محمد الخطيب

الحضارة الفينيقية




mohamed khatab


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



الحضارة الفينيقية


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

محمد الخطيب

الحضارة الفينيقية



منشورات دار علاء الدين

- **الحضارة الفينيقية.**
- تأليف: **محمد الخطيب.**
- الطبعة الثانية ٢٠٠٧.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين.**

- الإدارة والإشراف العام: م. **زويا ميخائيلينكو.**
- التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير.**
- المتابعة الفنية والإخراج: **أسامة راشد رحمة.**

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

مقـدمة

أرسى الإنسان في منطقة الشرق الأدنى القديم أصول الحضارة الإنسانية المستقرة في جميع مظاهرها المادية والمعنوية منذ بداية استقراره فيها. وقد اتفق العلماء على أولوية هذه المنطقة على بقية أجزاء العالم في الشرق والغرب في التوصل إلى مرحلتي إنتاج الطعام والمدنيّة، ولذلك اتجهت أبحاثهم إلى أجزائها ذات الأثر الخالد في سجل حياة الإنسان.

إن منطقة سوريا والساحل الفينيقي وفلسطين كانت مكان التقاء لكافة الحضارات العريقة القديمة: السومرية والأكادية والبابلية والآشورية والحضارة الحثية القديمة وأيضاً الحضارة الميتانية الحورية والحضارة المصرية ثم الحضارتين اليونانية والرومانية. ولذلك تأثرت هذه المنطقة بكافة هذه العناصر الحضارية في المجالين المادي والمعنوي.

ومنذ أن نجح شامبليون في قراءة الهيروغليفية المصرية في أوائل القرن التاسع عشر أخذ الاهتمام بدراسة الحضارات القديمة يزداد وأقبل الرحالة على زيارة آثارها ونشطت البعثات العلمية في التنقيب عنها ودراسة كل ما يتعلق بها.

يرتبط اسم الكنعانيين - الفينيقيين ودورهم في تاريخ الحضارة بمنجزات حملها ملاحو صور وتجارها ومعلموها إلى أرجاء البحر المتوسط قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام، وفي مقدمتها النسيج الصوفي الأرجواني الصبغة، والكتابة الأبجدية، وتطوير الملاحة وصناعة السفن والتجارة البحرية.

وتاريخ الفينيقيين هو تاريخ المدن الفينيقية التي كونت منذ الألف الثالث دويلات مدن أهمها: أرواد - أوغاريت - طرابلس - جبيل (بيبلوس) - بيروت وصيدا وصور وقرطاجة (في تونس) وعكا. وقد ورد ذكر هذه المدن وغيرها في سجلات الفراعنة (تحوتمس الثالث مثلاً) وفي أسفار العهد القديم (يشوع والقضاة) وفي السجلات الآشورية.

ومهما يكن من أمر هذه المدن الفينيقية سواء الشرقية منها أو الغربية فإن شهرتها كانت تعتمد في أساسها على نشاطها الاقتصادي الذي هيأ لها مكانة تجارية مرموقة بين أقطار العالم القديم، ففي الوطن الأصلي (المدن الفينيقية الشرقية) توافرت الأشجار الجيدة الأخشاب (الأرز) التي كانت محببة لدى الأقطار المجاورة من جهة والتي صنع منها الفينيقيون سفنهم التي ساعدتهم على ركوب البحر من جهة أخرى، كذلك فإن توصلهم إلى استخراج أصباغ جيدة لمنسوجاتهم من الأصداف البحرية ومن بعض الديدان التي كانت تكثر على الأشجار قد جعل الشعوب المجاورة تتهافت عليها وشجعهم ذلك على التجوال في البحر والتوغل فيه ثم اتجهوا إلى إنشاء مراكز تجارية لهم تطورت فيما بعد إلى مستعمرات تجارية تعاظم شأنها حتى فاقت إحداها (وهي قرطاجة) الوطن الأم.

وما من شك في ازدهار تجارتهم ونجاحهم في تبادلهم التجاري مع مختلف الجهات قد أثار فيهم حب المغامرة للوصول إلى أسواق جديدة والبحث عن سلع مرغوبة فلم يقتصروا على الاتجار في منتجاتهم بل تبادلوا مختلف السلع مع الأقطار الأخرى، وقد جعلهم تنقلهم بين مختلف الأقطار رسل حضارة ينقلون مظاهرها بين قطر وآخر كما تأثروا بثقافة البلدان الأخرى وأثروا فيها، وحتى في أوقات ضعفهم لم تفقد المدن الفينيقية أهميتها أو يتضاءل شأنها من الناحية الحضارية إذ أنها تركت بصماتها في التاريخ أكثر من غيرها من مدن الشرق الأدنى القديم، فإليها ترجع أرقى أساليب الاستعمار الاقتصادي وإليها يرجع اختراع الكتابة بحروف هجائية راقية وهي من أسس الثقافة الحديثة حيث انتقلت منها إلى اليونان ومنها إلى العالم الحديث.

إن دراسة تاريخ المدن الكنعانية - الفينيقية وحضارتها، دراسة لخطا الإنسان ونموه وتطوره، ولا يستطيع دارس أن يُغفل جهود هذا الشعب العريق في حمل مشعل الحضارة وفي إرسائها على أسس وطيدة ثابتة.

مدخل إلى
تاريخ الحضارة الكنعانية - (الفينيقية)

الساميون:

الساميون هم أصحاب الثقافة السائدة في الهلال الخصيب كله، وشبه جزيرة العرب على الأقل منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وشعوب هذا شأنها قد اتصلت في خلال تاريخها الطويل بمختلف الحضارات والثقافات التي استقرت أو أثرت في الشرق الأدنى واتصلت بها وتأثرت بها وأثرت فيها. وإذا كان الفينيقيون - في رأي جمهرة الكتاب - من أصل سامي، وما دمنا في صدد إقليم سامي فلا بد لنا تفصيل النظريات الخاصة بالساميين وهجراتهم ومنازلهم لأن في ذلك ما يهدي البحث الخاص بالساحل الفينيقي.

ونريد بادئ ذي بدء أن نؤكد أن تعبيرات السامية والحامية والآرية ليست تعبيرات أنثروبولوجية جنسية ولكنها تعبيرات ثقافية - لغوية قد ترقى إلى حد إطلاقها على بعض الحضارات. وقد دخل هذا التعبير إلى اللغات الأورُبية عن طريق الترجمة اللاتينية للتوراة، ثم أحيا العالم النمساوي (شلوزر Schlozer) هذا التعبير وأطلقه على الشعوب التي اعتقد أنها تنحدر من صلب سام بن نوح، واستعملها في كتاباته منذ عام ١٧٨١. وقد سلك مسلكه العالم ايشهورن J.Eichorn وجمهرة العلماء منذ القرن الثامن عشر.

والسامية في رأي رينان وجوبينو وتشمبرلين مزاج خاص في التفكير واتجاه ذهني يظهر في طرق التفكير وأسلوب التعبير. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن السامية في واقع الأمر تعبير لغوي أولاً وقبل كل شيء، وقد تقترن اللغة أو

مجموعات اللغات بحضارات خاصة وأساليب ثقافية معينة ينصرف إليها التعبير الذي استعمل أولاً وقصد به اللغة مثل الثقافات السامية الرعوية البطرياركية، والثقافة الآرية وهي رعوية أيضاً ولكنها حربية، وهكذا. هذا التعبير اللغوي الذي اتسم بالسامية يشمل عدداً كبيراً من اللغات، وهي البابلية والآشورية والكنعانية والعبرية والآرامية والعربية واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية. وهي جميعاً تشترك أو تتقارب في جذور الأفعال وتصريفها وصفات لغوية أخرى، كما أنها تشترك في التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين.

وقد قسم العلماء اللغات السامية إلى مجموعتين: المجموعة السامية الشمالية والمجموعة السامية الجنوبية. وتتألف المجموعة السامية الشمالية من العبرية والفينيقية (وكلتاهما في الواقع لهجتان من الكنعانية) والآرامية والآشورية والبابلية. وأما المجموعة الجنوبية فتتألف من العربية والعربية الجنوبية والحبشية[1].

الهجرات السامية:

إذا أخذنا بالنظرية العربية عن الوطن الأصلي للساميين فإنه ينبغي أن نتصور شبه الجزيرة العربية خزاناً هائلاً للبشرية يفيض من فترة إلى أخرى بمن لا يستطيع أن يطعمهم فيخرجون على شكل هجرات سلمية أو غزوات مسلحة على أراضي الهلال الخصيب في الشمال واليمن في الجنوب.

والبدو بطبيعتهم يحبون السفر والترحال وراء الكلأ والمراعي، وهم ليسوا بغرباء عن مواطن الحضارة المستقرة التي تحف بهم، بل هم يرتادونها من حين إلى آخر لاستبدال منتجات قطعانهم بما يحتاجونه من أسلحة أو ملابس. وفوق ذلك فهم الوسيلة الوحيدة التي تنتقل بواسطتها التجارة عبر الصحراء من أماكن الاستقرار والحضارة في الشمال والجنوب. وقد نوّه القرآن الكريم بذلك في سورة قريش، إذ ذكر رحلة الشتاء والصيف.

---

١ - د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

إذن فالبدو يخرجون إلى أقاليم الحضارة المستقرة مدفوعين بدافعين: دافع نقل التجارة والتبادل في السلم، ودافع الانبعاث تحت وطأة الفقر والعوز إما متسللين فرادى وجماعات بشكل سلمي أيضاً وإما غزاة فاتحين.

وبالإضافة إلى ذلك حلَّ الجفاف محل المطر تدريجياً في هذا النطاق الصحراوي العربي، وتحوّل منذ نهاية العصر الحجري القديم إلى إقليم سهوب أو إقليم صحراوي على النحو الذي نعهده الآن.

منذ نحو ١٠.٠٠٠ق.م بدأت الظروف المناخية في التغير نحو الجفاف وتبع ذلك هجرة الحيوانات الضخمة وذبول النباتات الكبيرة وهجرة الإنسان وتغيير أسلوب حياته، إلا أن تتابع الهجرات السامية في فترات متباعدة دفع بعض العلماء إلى افتراض أسباب مادية لهذه الهجرات. فالعالم الإيطالي كيتاني يرى أن فترات الجفاف كانت دورية على شبه جزيرة العرب وهو في هذا يشايع هنتجون. وقد ربط بين فترات الجفاف وحدوث الهجرات، وقد أسرع بعض المستشرقين وعلى رأسهم السير توماس أرنولد إلى قبول تلك النظرية. أول هجرة سامية انبعثت من شبه الجزيرة إلى بلاد الهلال الخصيب اتجهت صوب العراق الأدنى وأسست دولة بابل نحو ٣٥٠٠ق.م.

وفي نحو بدء الألف الثالثة قبل الميلاد انبعثت الهجرة السامية الثانية من شبه جزيرة العرب، وهي هجرة حملت الكنعانيين إلى الساحل السوري، إلا أن هذه الهجرة لم تكن قاصرة على سوريا، فالأسماء الكنعانية مثل حداد وريمون ومراجون وأشباهها تظهر في بابل بشكل يلفت النظر منذ عام ٢١٠٠ قبل الميلاد، ويختلط في كتب الآثار والتاريخ ذكر الكنعانيين والعموريين[1].

الكنعانيون فرع من الدوحة العربية القديمة من حيث الأرض المشتركة واللغة المشتركة وهم والعموريون اسمان على مسمى واحد. كانوا في قلب الجزيرة العربية وفي منطقة شواطئ البحر الأحمر أو شواطئ الخليج العربي - الغربية، وفي بوادي شبه

١- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٢١١.

الجزيرة العربية منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ولأسباب تتعلق غالباً بالجفاف التدريجي الذي ألم بمواطنهم، اتجه شطر منهم نحو الرافدين وحملهم الرافديون اسم العموريين، لأنهم كانوا يتقاطرون من الغرب وهو يسمى «آمورو» في اللغة الأكادية. لكن القسم الذي اتجه إلى بلاد الشام عرف باسم الكنعانيين. ولم يتفق حتى الآن على معنى هذا الاسم فالبعض يرى أن اسمهم أتى من «كناخي» ومعناها العاملون في الأرجوان أو تجار الأرجوان[1].

وفي العصر الذي احتك فيه الحوريون احتكاكاً وثيقاً بساحل البحر المتوسط في القرن الثامن عشر أو السابع عشر كانت صناعة الأرجوان على الغالب الصناعة السائدة في البلاد. كذلك يشير اسم فينيقيا المشتق من اليونانية Phoinix أي أحمر أرجواني إلى الصناعة نفسها. وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم فإن كلمة فينيقي أصبحت بعد نحو ١٢٠٠ق.م مرادفة لكلمة كنعاني.

وقد أطلق اسم كنعان في أول الأمر على الساحل وغربي فلسطين ثم أصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سوريا. وكان هذا أول اسم لفلسطين وجميع الأسماء الأخرى أقل أهمية. وفي وثائق العهد القديم الأولى أطلق اسم كنعاني بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد من دون أي مدلول عرقي، وتعبير «لغة كنعان» كان يطلق بصورة عامة على لغة فلسطين السامية.

تبدأ الديانة واللغة الكنعانيتان بالظهور من غياهب العصور السامية القديمة نحو مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. غير أن أسلاف الذين سموا كنعانيين كانوا غالباً يحتلون البلاد قبل ذلك بألف سنة أو أكثر. ويمكن استنتاج ذلك من أسماء الأماكن كما أظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن مثل أريحا وبيسان ومجدو التي لها أسماء كنعانية واضحة قبل عام ٣٠٠٠ق.م. وظهر في الكتابات الأثرية في النصف الأول

١- د. عدنان البني: رحلة مع الكنعانيين، مقال في مجلة المعرفة السورية، العدد ٥٠٤، ٢٠٠٥، ص ١٨- ١٩.

للألف الثاني مدن أخرى لها أسماء سامية معروفة يمكن اعتبارها كنعانية مثل عكو وصور وصيدا وجبلة (جبيل) وأريحا وسيميرا[1].

ممالك المدن:

كانت نتيجة طبيعة أراضي كنعان وموقعها الإستراتيجي بين مراكز الدول الكبرى التي قامت في وادي النيل ووادي دجلة وآسيا الصغرى أن الكنعانيين لم ينجحوا قط في تأسيس دولة قوية موحدة. وبدلاً من ذلك فإنهم كانوا ينتظمون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك وصل إلى الحكم غالباً بعد أن كان ينتسب إلى طبقة الأشراف الملاكين. وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصنة بأسوار ذات شرفات وأبراج للدفاع يمكن لسكان الريف المجاورين أن يلتجئوا إليها في وقت الخطر وأن يقصدوها في وقت السلم فتكون لهم سوقاً ومركزاً اجتماعياً.

غير أن انقسام البلاد إلى ممالك مدن صغرى في حالة حرب بعضها مع بعض في كثير من الأحيان وينقصها الاستقرار الداخلي بسبب نزاع النبلاء الطامعين بالسيادة المحلية، هذه العوامل جعلت البلاد كلها تحت رحمة الدول المجاورة الميالة للاعتداء.

انتشرت المدن الكنعانية الأولى على طول الساحل من جبل كاشيوس حتى الكرمل في الجنوب ولكن تعرجات الشاطئ القليلة جعلت عدد الموانئ الطبيعية محدوداً. غير أن جبال أمانوس وكاشيوس في الشمال ومرتفعات فلسطين في الجنوب لم تشكل ترساً كافياً ضد الهجمات من الوراء كما فعلت جبال لبنان المرتفعة. ولذلك فإن المدن العظيمة وهي التي قدر لها البقاء تجمعت وازدهرت في سفح جبال لبنان وهي طرابلس وبوترس Botrys (البترون) وبيبلوس (جبيل) وبيرتيوس (بيروت) وصيدا وصور. هذه المدن بالإضافة إلى عرقة وسيميرا وارادس (أرواد) في الشمال وغيرها من المدن كانت تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة التي تكفي نفسها بنفسها.

١- د. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢ ص ٨٦- ٨٨.

وفي سوريا الجنوبية تقع غزة وعسقلان على الساحل ولكن هنالك عدداً من المدن الكنعانية في الداخل مثل جزر ولاكش ومجدو وحاصور Hazor وشكيم وأورشليم. وقد ذكرت جميع هذه المدن وكثير غيرها في تقارير حملات تحوتمس الثالث (في مطلع القرن الخامس عشر قبل الميلاد) ورسائل تل العمارنة ويوجد وصف لها في سفري يشوع والقضاة[1].

كانت هذه المدن صغيرة في مساحتها. فقد كانت مساحة جزر وحاصور وهما من أكبر المدن خمسة عشر وستة عشر فداناً بينما كانت مساحة أريحا ستة أفدنة فقط.

وربما كان وجود مرتفع يسهل الدفاع عنه أو ينبوع ماء، العامل الذي قرر اختيار الموقع. ولكن سور جزر كما أتضح من الحضريات الحديثة كان ضخماً. بحيث بلغ سمكه ستة عشر قدماً، وارتفعت أسوار أريحا حتى بلغ ارتفاعها واحداً وعشرين قدماً.

تلك كانت حصون الكنعانيين القوية التي ألقت الرعب في قلوب جواسيس موسى. وكانت المركبات الحربية التي أدخلها الكنعانيون إلى البلاد وسيلتهم الرئيسية في الدفاع.

وقد أدخل الحصان في أيام الهكسوس تقريباً (نحو ١٧٥٠ق.م) وإما سائر أسلحة الهجوم فكانت تضم القوس والسهام برأس برونزي أو صواني وخنجراً قصيراً وسكنياً معقوفاً - وقد وجدت آثار من جميع هذه الأسلحة - ونبوتاً ثقيلاً من الخشب القاسي.

وكان سكان الريف غالباً متفرقين قليلي العدد ويحتمل أن لا يكون عدد السكان في فلسطين كلها قبل قدوم الإسرائيليين قد تجاوز ربع المليون. وقد حصل نمو المدن من دون أتباع مخططات موضوعة سلفاً. وكانت المنازل الكنعانية في القرن الخامس عشر كما كشفها علماء الآثار هزيلة في بنائها وغير منتظمة في تخطيطها بوجه العموم.

١- د. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢ ص ٨٩.

وكانت منازل الفقراء صغيرة ومزدحمة بعضها بقرب بعض كما في القرى القديمة الطراز اليوم. أما منازل الأغنياء فقد كان لها باحة في وسطها وحولها الغرف. وكانت بعض البيوت مزودة بعنبر للقمح وصهريج خاص[1].

المدن الواقعة على جزر:

كانت تتمتع بعض المدن مثل ارادُس (أرواد) وصيدا وصور بخط دفاع مزدوج. وكان مواطنوها يحتلون موقعين الواحد في البر حيث كانوا يتاجرون أو يزرعون بساتينهم والآخر في جزر صغيرة مجاورة يلجؤون إليها كلما تدفق الفاتحون الأشوريون مثلاً عبر الممرات الجبلية. فالأرواديون الذين كانت تسمى مدينتهم الكائنة على الساحل انتارادس Antaradus في العصر الهلنستي كانوا يتجمعون في جزيرتهم الصخرية كما يفعل الناس في جزيرة منهاتن بنيويورك في ناطحات سحاب مصغرة. وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه لأجل جزيرتهم. وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج وتضاف إليها مياه ينبوع تحت البحر يحصلون عليها بوضع قمع ضخم مقلوب على الينبوع بحيث يتصل القمع بأنبوب جلدي وربما كان هذا أقدم ما سجله التاريخ من وجود نبع مياه عذبة تحت البحر.

كانت صور الواقعة على جزيرة صغيرة «مبنية بنفس الشكل الذي بنيت فيه ارادُس» وكانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل بناه الإسكندر أثناء حصاره لها. وقد أظهرت الحضريات الحديثة تحت البحر والصور الفوتوغرافية من الجو أن المرفأ الرئيسي كان في الجهة الجنوبية للجزيرة وأن الرصيف الذي كان يحميه وهو الآن على عمق خمسين قدماً كان طوله ٧٥٠ متراً وسمكه ثمانية أمتار وأن أسوار المدينة كانت تشرف على هذه المجموعة كلها مع أبراج في كل طرف. ويعتقد أن هذه الأشغال الضخمة بناها الملك حيرام معاصر سليمان الذي بلغت المدينة ذروتها في أيامه. وهذا جعل صور من أقوى

١- د. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، ص ٩٠.

الموانئ في شرقي البحر المتوسط. غير أن إمبراطورية صور في ذلك العصر وفي جميع العصور كانت قائمة على التجارة والغنى وليس على الأراضي والفتح[1].

وكانت تقع صيدا وهي شقيقة صور الشمالية على رأس جبلي اختاروه على الأكثر بسبب المرفأ الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة ببعضها بعضاً بأرصفة اصطناعية. وكان هذا المرفأ يقع إلى جهة الشمال، وفي الجنوب كان يوجد مرفأ آخر يسمى المرفأ المصري وهو أكبر من الشمالي ولكنه ليس آمناً مثله. وكان يحمي المدينة من جهة البر سور. وقلعة صيدا الحالية وتسمى قلعة البحر يعود أصلها إلى زمن الحروب الصليبية وتقع على أكبر هذه الجزر. وفي أوائل القرن السابع عشر أمر الأمير اللبناني فخر الدين المعني بملء المرفأ القديم ليمنع اقتراب الأسطول العثماني.

اتحاد المدن:

وللتغلب المؤقت على عزلة ممالك السياسة، هذه العزلة التي تعكس تجزؤ البلاد الجغرافي كانت أحسن وسيلة أن تحصل إحدى المدن على الزعامة ويصبح لها سيادة سياسية على سائر المدن. وكانت المصالح المشتركة تتطلب الاتحاد الاختياري في بعض الأحيان. وقد حصلت على مثل هذه الزعامة أوغاريت في أواخر القرن السادس عشر وجبيل في القرن الرابع عشر وصيدا بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر وصور بعد هذا القرن وطرابلس في القرن الخامس. وتحت ضغط الخطر المداهم خاصة كانت هذه المدن تتعاون وتشكل عصابات وأحلافاً. ومن الأحلاف القليلة المهمة المعروفة ذلك الحلف الذي كسره تحوتمس الثالث في مجدو في ١٤٧٩ق.م غير أن السلطة الموجهة في ذلك الحلف كانت قادش الواقعة على العاصي.

١ـ د. فيليب حتي: تاريخ سوري ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، ص ٩١.

وتظهر مراسلات تل العمارنة بعد ذلك بقرن ليس فقدان العمل المشترك فحسب وإنما محاولة الملوك الفينيقيين أيضاً للحصول على الفوائد من سيدهم المصري بعضهم على حساب بعض. وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم إلى فرعون بصورة شخصية وإفرادية. وقد برهن الكنعانيون خلال تاريخهم الطويل إنهم كانوا يحبون السلم ولا يميلون إلى الأعمال الحربية. وكانوا يوجهون اهتمامهم إلى نواحي التجارة والفن والديانة وليس إلى الحرب. وكانت مدنهم عادة تحني رأسها أمام حوادث الفتح الموجهة من مصر وبابل والحثيين وفارس ومكدونيا. وكانوا يدفعون الجزية ليضمنوا عدم التدخل في شؤونهم ويأملون أن يكافأوا ولو جزئياً بتوسيع أسواقهم في البلاد الداخلية[1].

الدراسات الفينيقية القديمة في العصر الحديث:

منذ قرن ونصف القرن من الزمان، كانت معلوماتنا عن التاريخ الفينيقي القديم، إنما تعتمد - شأنها في ذلك شأن معظم تاريخ دول الشرق الأدنى القديم - على ما جاء في التوراة - وربما التلمود - وعلى ما كتبه القدامى من الكتاب الإغريق والرومان، وليس هناك من ريب في أن هذا كان شيئاً قليلاً، لا يشفي غليل العلماء، فضلاً عن أن يقدم صورة صحيحة لتاريخ المدن الفينيقية في العصور القديمة.

ثم سرعان ما بدأت الآثار تدخل الميدان في هذا العصر الحديث، والآثار كما هو معروف - نعني بها كل الآثار المادية الباقية، والتي تبدأ بما خلفه الإنسان البدائي القديم في دهوره الحجرية، وحتى نهاية العصور القديمة.

ولا ريب كذلك في أن دور الحفائر في العلم بالحضارات العتيقة، هو دور رئيسي، وكان باكورة العمل الآثاري في لبنان، هو الكشف عن قبر «أشمونزو» في عام ١٨٥٦م وقد بدأت القصة في جنوبي مدينة صيدا، حيث يوجد تل صغير قائم عند التقاء طريقين من الطرق المؤدية من صيدا إلى الريف، وقد لاحظ أحد

١ـ د. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، ص ٩١ـ ٩٢.

الفلاحين انهياراً في أحد أركان التل، فلما اقترب منه، رأى بمستوى الأرض، قبراً أعراه انهيار التل، ورأى به تابوتاً، على هيئة توابيت المومياءات المصرية، مصنوعاً من الحجر الأسود، وعلى غطائه نقش من اثنين وعشرين سطراً، ظهر أنه فينيقي، وأنه أطول نقش عثر عليه حتى ذلك الوقت، وأول نقش وجد في مكانه بأرض فينيقيا نفسها، على حين وجدت النقوش الأخرى في المستعمرات الفينيقية.

هذا وقد ترجم العلماء النقش، عرفوا أن القبر، هو قبر ملك من ملوك صيدا، وأن النقش جنائزي، يذكر ألقاب الملك ونسبه، ثم ينتهي باستنزال اللعنات التقليدية في العصر القديم، على كل من ينتهك حرمة المدفن.

وهذا التابوت - تابوت الملك «أشمونزو» ملك صيدا، محفوظ الآن بمتحف اللوفر في باريس[1].

وقد أثار هذا الكشف الآثاري اهتمام الدوائر العلمية، وكان الوقت مهيأ للدراسات الآثارية خاصة وكان «شامبليون» قد نجح في قراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية، في عام ١٨٢٢-١٨٢٤م.

١- بعثة رينان:

في أكتوبر من عام ١٨٦٠م، وصل «إرنست رينان» إلى بيروت مع الحملة التي أرسلها نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، للمساهمة في إحلال السلام بين الموارنة والدروز.

هذا وقد اختار رينان أن يقيم الحفائر، عند المراكز الأربعة الرئيسية التي كانت معروفة وقت ذاك في تاريخ الحضارة الفينيقية وهي من الشمال إلى الجنوب:

١- أرواد - طرطوس - عمريت (على مبعدة ٧ كم جنوبي طرطوس).

٢- جبيل. ٣- صيدا. ٤- صور.

١- ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية- ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة د. طه حسين، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٠.

وكان من نتائج حضريات رينان أن معظم المجموعة الفينيقية الموجودة الآن بمتحف اللوفر في باريس، إنما يرجع إلى هذه البعثة - والتي ينسب إليها كذلك وضع أسس علم الآثار الفينيقي[1].

نجح رينان عن طريق حفائره المختلفة التي استمرت حتى عام ١٨٦١م أن يتعرف على نماذج القبور الفينيقية في أطلال عمريت، وأن يتعرف على طرق الدفن المختلفة، وأن يحدد لكل طريقة تاريخها، كما حرص رينان أن يحدد الفن الفينيقي تحديداً متميزاً، ولم يكن هذا الفن محدداً وقتئذ. وظل أرنست رينان طوال خمسة وعشرين عاماً يوجه جهوده للقسم الخاص بالنقوش الفينيقية. وهكذا أصبح درس النقوش الفينيقية سهلاً بفضل «مجموعة النقوش السامية» وكان رينان يهدف من هذا العمل هو جمع النقوش السامية في مجموعة مستمرة، بحيث تشمل النقوش التي يتزايد عددها بالكشف دون انقطاع، ثم إخراج صور لها، ثم قراءتها، وترجمتها والتعليق عليها.

هذا وقد تقدم رينان بخطته هذه إلى «أكاديمية النقوش» فقبلتها، وتولت بنفسها منذئذ طبع المجموعة، وقد ظهرت عام ١٨٨٠ أول مجموعة من صور النقوش، ثم ظهر لمجموعة النقوش هذه ملحق سمي «سجل النقوش السامية»، وكان الهدف من هذا السجل تبويب النصوص المكتشفة حديثاً، قبل أن تتخذ مكانها النهائي ضمن نصوص المجموعة.

إلا أن أعوان رينان لم يكونوا على مستواه ومن ثم فلم يقدروا قيمة الآثار التي كانوا يعثرون عليها، فيهملون الكثير منها، وبخاصة الفخار، مع أنه - أي الفخار - من أهم ما يعتمد عليه الباحثون في التوصل إلى كثير من الحقائق عن تاريخ المناطق التي يعثر عليه فيها، بصفة عامة[2].

٢- حفائر صيدا:

في عام ١٨٨٧م، كشف في نواحي صيدا وفي مكان يدعى «إيا» Ayaa شرقي صيدا وعلى مقربة من قرية الهلالية عن مقبرة تتألف من طابقين يمكن الوصول إلى

١- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤، ص ٧٣- ٧٤.

٢- ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية- ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة د. طه حسين، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٢- ١٤.

الأول منهما عن طريق بئر يبلغ ١٠م عمقاً، ٤م جانبيه، وقد وجد به ١٧ تابوتاً منها سبعة لا تحمل أيّ زخرفة.

أما الطابق الثاني فقد وجد سليماً وقد عثر فيه على أقدم مجموعة من المكتشفات، وهناك نقش عليه اسم صاحب القبر وهو «الملك تابنيت» أبو «إشمونزو» وقد كشف عن قبره قبل قبر أبيه بثلاثين سنة، وتابوتيهما من أصل مصري، كما أن توابيت الطبقة العليا مصرية كذلك، وأما معظم بقية التوابيت الأخرى فمن رخام أبيض، ذات صنعة فائقة وطابع متأثر بالأثر اليوناني.

وسرعان ما اتخذت هذه التوابيت طريقها إلى القسطنطينية، وقد اهتمت الحكومة العثمانية بها، وقدرت قيمتها، فبنت لها ملحقاً خاصاً بمتحفها، وأودعتها فيه، ثم وصف هذا الاكتشاف «حمدي بك» أمين متحف القسطنطينية وتيودور رانياك الفرنسي[1].

وفي عام ١٩٠١ كشفت بعثة ألمانية عن معبد فينيقي مكرس للمعبود «اشمون» وهو «أدونيس» الفينيقي وهو نفس المعبد الذي رممه الملك «بود عشتارت» من سلالة «تابنيت» و «اشمونزو».

وفي عام ١٩١٤ كلفت الحكومة الفرنسية «ج. كونتنو» G. contenau، مؤلف كتاب الحضارة الفينيقية بالحفر في صيدا بالاشتراك مع المتحف الإمبراطوري العثماني ممثلاً في شخص «مكريدي بك»، غير أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) قطعت البحث الذي بدأ في المدينة وضواحيها، ثم كان الاحتلال الفرنسي للبنان، فلما انتظم الوضع السياسي رغب المندوب الفرنسي في سوريا ولبنان في استمرار الحفائر، وفعلاً بدأ العمل من جديد في آخر صيف عام ١٩٢٠.

وفي عام ١٩٢١ أوفدت الحكومة الفرنسية الأستاذ «أ. دي لوري» في «أم العمد أو أم العواميد» جنوبي صور، وكشفت عن بعض مواقع المدن التي كانت مزدهرة في العصر اليوناني الروماني ثم هجرت.

١- ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية- ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة د. طه حسين، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٥.

ثم جاءت مدام «دنيزلي لاسور» فقامت ببعثتين في عامي ١٩٢١-١٩٢٢، وقد لزمت الحفر في إقليم صور حيث كانت تقع معابد صور البرية وقد أزاحت التراب عن قبر بجبل العمد ووجدت به آثار ذات قيمة مهمة.

هذا وقد قام الأستاذ «بيير مونتيه» بزيارة مدينة جبيل «بيبلوس» على مبعدة ٤٥ كم شمالي بيروت في عام ١٩١٩، ثم قام ابتداءً من عام ١٩٢١ بأربع بعثات، ولعل من أهم ما كشف عنه زهريات كثيرة عليها أسماء ملكية مصرية، مثل الملك «منكاورع» من الأسرة الرابعة والملك «أوناس» من الأسرة الخامسة، والملك «بيبي الثاني» من الأسرة السادسة.

هذا فضلاً عن العثور عن أسطوانة لختم اللوحات من عصر الأسرة الثالثة المصرية، وهي أي الأسطوانة - على هيئة إلهة من جبيل في زي إلهة مصرية، هذا فضلاً عن بقايا أعمدة ضخمة شبيهة بتلك التي كان يقيمها المصريون أمام معابدهم[١].

ومثل هذه الاكتشافات التي قام بها «مونتيه» تثبت العلاقة بين مصر وفينيقيا منذ أقدم العصور.

ثم استمرت علاقة مصر بجبيل على أيام الدولة الوسطى، حيث عثر على قبر من عصر الملك «أمنحات الثالث» ١٨٤٣-١٧٩٧ق.م به أثاث جنازي أرسله الفرعون لملك بيبلوس، كما اكتشف «مونتيه» ثلاثة مقابر فينيقية ترجع إلى نفس العصر، وقبر رابع به أشياء تحمل اسم «رعمسيس الثاني» ١٢٩٠-١٢٢٤ق.م من الأسرة التاسعة عشرة، وقد عثر في نفس القبر على تابوت عليه رسوم آدمية، ونقش فينيقي محفور. هذا وقد تابع «دونان» العمل - بعد مونتيه - حيث أثبتت الحفريات تأكيد الصلة الوثيقة، والتبعية التامة بين بيبلوس ومصر، حتى العام الألف قبل الميلاد[٢].

٣- حفائر صور:

كانت حفائر «رينان» في عام ١٨٦٠م، أولى المحاولات الجدية للكشف الآثاري في مدينة «صور»، بعد أن كانت الحفريات من قبل، لا تتعدى البحث عن الذهب والكنوز المدفونة، من قبل بعض الهواة - أو لصوص الآثار -.

١- ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية- ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة د. طه حسين، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٥- ٢٢.

٢- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤، ص ٧٧- ٧٨.

وكان رينان قد قام بعدة حفريات في صور - في وسط السوق، وقرب العين، وقرب قصر إبراهيم باشا، وفي تل المعشوق، وقرب القنوات الرومانية.

وفي عام ١٨٧٤ كلف المستشار الألماني «بسمارك» «سب» والأستاذ «برونز» بالذهاب إلى مدينة صور للبحث في كنيستها الصليبية عن عظام الإمبراطور «فردريك الأول» (فردريك بارباوسا) ١١٢٢-١١٩٠م المدفونة فيها وذلك لإرجاعها إلى ألمانيا، باعتبارها إرثاً قومياً للأمة الألمانية جمعاء.

غير أن حفائرهما بمنطقة المنارة في صور - موضع كنيسة مرقس الصليبية - لم تؤد إلى الغاية المنشودة.

وفي عام /١٨٨٥ م/، عثر على أول كتابة فينيقية من صور، ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

وفي عام ١٨٩٨م، عثر في منطقة الصليب في صور على قطعة رخامية مكتوب عليها: «من عبد بعل، رأس المئة»، والذين كان يتألف منهم مجلس الشعب في صور.

هذا وكما أشرنا من قبل أن الحكومة الفرنسية قد أوفدت عالمة الآثار «دنيزلو لاسور» لإجراء حفريات في صور، حاولت فيها أن تقتفي أثر خطوات رينان ولكنها اقتصرت آخر الأمر على الحفر في المعشوق وتل العمد، وقد عثرت في تل العمد - على مبعدة ٣ كم من صور - على كتابة يونانية على قطعة من عمود رخامي، كما عثرت في المعشوق على بقايا فخارية وبعض الفسيفساء والزجاج والنقود ترجع إلى الفترة فيما بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي[1].

وفي عام ١٩٢٧، عثر في صور على مذبح حجري، كثير الشبه بمذبح موجود في متحف السويداء يعبر عن الثالوث الإلهي (ملقارت - عشتارت - بعل شمين).

وفي الفترة ١٩٣٤-١٩٣٦ انتدبت الأكاديمية الفرنسية «الأب بوادباء» للبحث عن المرفأ المصري، وقد انتهت أبحاثه إلى أن المرفأ المصري يقع في القسم الجنوبي من شبه جزيرة صور.

١- معن عرب: صور حاضرة فينيقيا، بيروت ١٩٧٠، ص ١٨٧- ١٨٩.

وفي عام ١٩٣٧ عثر على مقربة من صور، على معبد فينيقي تحت الأرض مساحته ٣٠م، وعلى جدرانه صور ملونة ترجع إلى القرن الثاني الميلادي، وتتعرض لموضوع البعث وخلود الروح في العالم الثاني.

ومنذ عام ١٩٤٧ تقوم مديرية الآثار اللبنانية - بإشراف الأمير موريس شهاب - بحفريات في مناطق المنارة (الكنيسة الصليبية) والخراب المجاور لها (المدينة الرومانية، والبص (منطقة المدافن).

هذا وقد تم الكشف عن شارع معبد بالفسيفساء وعلى جانبيه أعمدة من الرخام الأبيض، المطعم بالأخضر، وفي طرفه مبنى كبير مربع الشكل، كان محاطاً من ثلاث من جهاته الأربع بأعمدة من الجرانيت.

وهناك على مبعدة ٣٠ متراً من الشارع - شيد ملعب (Arena)، مربع الشكل تقريباً (٤٥ × ٤٣)، تحيط به مقاعد حجرية، وفي خمسة صفوف، وعلى جوانبه كانت خزانات المياه، وغير بعيد من الملعب كانت الحمامات.

هذا وقد عثر - على مقربة من الكنيسة الصليبية - على مذبح حجري مكرس لإله المدينة «ملقارت» مع عبارات التقدمة.

وقد أدت حفريات «البص» إلى العثور على قوس ارتفاعه ٢٠م في أول الشارع المؤدي إلى صور الرومانية والذي رصف بمربعات حجرية لا تزال آثار العجلات ظاهرة عليها.

وكان هذا الشارع محاطاً من جانبيه بالعمدة والدكاكين - كما كانت قناة المياه تسير على محاذاته، فتزود سكان المدينة بمياه الشرب من برك رأس العين.

هذا وقد عثر في هذه المنطقة على كمية كبيرة من النواويس ترجع إلى منتصف القرن الثاني وأول الثالث قبل الميلاد - يقارب عددها ٣٠٠ ناووس منها عشرة عليها نقوش من الإلياذة والأساطير الإغريقية.

وفي منطقة المدافن في البص عثر على ساحة سباق للعربات من القرن الثاني الميلادي، كانت مغطاة تحت طبقة كثيفة من الرمال، تعد أكبر ما عرف في العصر الروماني من ساحات (٤٨٠ × ١٦٠م)، وتمتد على شكل حذوة الحصان، تحيط بها

مقاعد تتسع لآلاف المتفرجين، وتتسع نفسها لاثنتي عشرة عربة، يمكنها أن تشترك دفعة واحدة في السباق[1].

٤ـ حفائر رأس شمرا:

يقع تل «رأس شمرا» قرب (مينة البيضا) على مبعدة ١١ كم شمالي مدينة اللاذقية. وفي رأس شمرا تقع مدينة أوغاريت.

تعتبر أوغاريت أهم مركز حضاري في سوريا الكنعانية في الألف الثاني قبل الميلاد. وقد ورد اسم أوغاريت في النصوص المصرية العائدة إلى القرن الخامس عشر، وتفيدنا هذه الوثائق بأنها كانت مدينة ساحلية مهمة على الشاطئ الشرقي للمتوسط. وقد اكتشف موقع أوغاريت مصادفة عندما عثر على آثار قبر قديم في «مينة البيضا» عام ١٩٢٨ فتدخلت السلطات الفرنسية المختصة بالآثار آنذاك وقامت إدارة متحف اللوفر والمجمع الفرنسي بتوجيه بعثة للبحث والتنقيب برئاسة الدكتور «كلود شيفر» ومعه «جورج شيني» وتوجهت البعثة إلى الموقع ومعها أجهزتها ومعداتها ومؤونتها على قافلة من الجمال كما ذكر شيفر في تقريره الأول عن أعمال التنقيب لتعذر الوصول بطريق السيارات آنذاك ومن ثم تم تحديد موقع الميناء ثم موقع المدينة القديمة القائمة على تل يعرف باسم رأس شمرا.

وكان أول ما اكتشف في الموقع خنجر برونزي من القرن الخامس عشر أو الربع عشر، ثم بقايا قصر مملكة عرف بأنها خرائب قصر مملكة أوغاريت المعروفة في النصوص المصرية والحثية ووثائق بلاد الرافدين. ووجد بعدئذٍ أساس معبد الرب بعل وقطع من الأسلحة والأدوات البرونزية.

وفي عام ١٩٢٩ عثر على أول رُقيم من مكتبة أوغاريت مكتوب بحروف مسمارية عرف فيما بعد بأنها (أبجدية أوغاريت) وهي أقدم أبجدية في العالم وتتألف من ثلاثين علامة مسمارية فقط. ووجدت نصوص من الأدب بالكتابة الأوغاريتية تعتبر أقدم نصوص أدبية معروفة في الحضارة الكنعانية. كما عثر على وثائق رسمية مهمة جداً في القصر الملكي ومعاهدات مع الدول المعاصرة: مصر

١ـ معن عرب: صور حاضرة فينيقيا، بيروت ١٩٧٠، ص ١٨٩ـ ١٩٠.

الفرعونية، والمملكة الحثية وكذلك نصوص تجارية وعقود تجارية موثقة. وقد تطورت الدراسات المعنية بأوغاريت وحضارتها في فرنسا حيث صدرت بإشراف الأستاذ شيفر موسوعة من عدة مجلدات باسم «أوغاريتيكا» وتصدر الآن دوريات ومجلدات سنوية متخصصة من عدد من جامعات العالم وأهمها «بحوث أوغاريتية» (بالألمانية) من جامعة مونستر.

واعتباراً من العام ١٩٥٠ جرت التنقيبات الأثرية في أوغاريت بوتيرة أقوى وعثر على كثير من النصوص مكتوبة على رقم طينية وبكتابات مسمارية أكادية وحثية وحورية وكذلك وجدت نصوص مكتوبة بالمصرية.

وكان أبرز الذين أسهموا في تفسير الأبجدية الأوغاريتية وقراءة النصوص (دورم وباور) و(فيرو للو) الذي أحيا الآداب الأوغاريتية وترجمها إلى الفرنسية.

ونشرت المجموعة الأولى من النصوص الأبجدية الكنعانية المكتشفة في رأس شمرا بين عامي ١٩٢٩-١٩٣٩ (أ. هردنر، ١٩٦٣). وهو عمل لا نظير له في الدقة ويعتبر حصيلة الدأب والصبر على البحث العلمي المنظم الدقيق مما يجعله أساساً لا غنى عنه لكل دراسة جادة في تاريخ سوريا في عصر أوغاريت، وهو عمل يقول عنه (أ. كاكوانه) أنه «يمكن اعتباره كاملاً ونهائياً». كما أن كاكو وسنيسر وهردنر نشروا قبل تسع سنوات مجموعة كاملة بنصوص الأدب الأوغاريتي يتضمن الملاحم الدينية والسير الشعبية[1].

جغرافية البلاد:

يبدأ تاريخ الفينيقيين في المنطقة الواقعة على الساحل السوري - الفلسطيني ويمكننا رسم الحدود الشمالية لهذا الإقليم عند النقطة المحاذية لتل سوكاس، لأنه لا يوجد إلى الشمال من هذه البلدة مقارّ فينيقية ثابتة. طبعاً هناك مدينة أوغاريت، إلا أن تاريخ أوغاريت ينتهي قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد. أما الحدود الجنوبية فترسم عند النقطة المحاذية لمدينة عكا.

١- د. محمد حرب فرزات: موجز في تاريخ سوريا القديم، جامعة دمشق ١٩٨٧، ص ٩٨- ١٠٠.

أما الحدود الشرقية والغربية فواضحة: البحر المتوسط من الغرب، وجبال لبنان في الشرق.

وتمتد جبال لبنان مما يلي الشريط الذي يتألف منه جبال اللاذقية، وتوازي البحر على مسافة تقارب ستين ميلاً، ويبلغ ارتفاعها في بعض الأمكنة تسعة آلاف قدم أو أكثر. والمسافة بين الجبال والبحر تتفاوت ما بين ثلاثين ميلاً وسبعة أميال، تتخللها قنان الجبال الصخرية التي تضرب في مياه اليم. وبين هذه القمم تتفرج أودية صغيرة تجري فيها مياه تنحدر من الجبال، وهي في العادة ينابيع صغيرة، تغزر في مواسم المطر، وتجف في فصل الصيف.

المضامين التاريخية التي ينطوي عليها هذا الموقع الجغرافي واضحة. في المكان الأول، الإقليم كله منحصر بين الجبال والبحر، وقد نتج عن هذا انفصال تاريخي عن الداخل غالباً ما كان يعمقه وصول شعوب ودول قوية في نحو ١٢٠٠ق.م. وفي المكان الثاني، كانت التجزئة الداخلية للمنطقة عائقاً دون قيام وحدة سياسية، بل ودون نشوء وعي وحدوي، مما نجم عنه قيام دويلات المدن وتعددية في المجتمع. وفي المكان الثالث، كان البحر المتوسط هو الطريق الطبيعي الوحيد المتاح أمامهم للامتداد والتوسع.

وقد نشأت ضرورة الملاحة في البحر عن مشكلة المواصلات. فقد كان الانتقال عن طريق البر صعباً لامتداد الجبال في البحر. فقد تقطع قمم الجبال، التي تشكل أحياناً ساحل البحر، ممراً ضيقاً، وعندئذٍ تكون الملاحة البحرية أيسر وسيلة للنقل وأضمنها، لا فرق إن كان التنقل بين بلدة وأخرى أو بين قطر وآخر.

كان للمدن الفينيقية طبوغرافيتها المميزة غالباً: كانت في العادة تشيّد على مرتفعات صخرية فيكون لها مرفآن آن، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب، يستخدمان تبعاً للرياح والفصول. وكان الفينيقيون أيضاً يفضلون الجزيرات التي تقع بعيداً عن الشاطئ حيث كان من الأيسر عليهم تحصينها والدفاع عنها مدة أطول عند الحصار. هكذا كان حال المدينتين الفينيقيتين الكبيرتين، أرواد وصور. وقد ضمت هذه الأخيرة فيما بعد إلى البر الفينيقي بواسطة سد حاجز للأمواج أقام الإسكندر الأكبر.

أما الملاحة الفينيقية ، وهي التي نجمت عن شروط جغرافية وتاريخية - سياسية ، فقد حتمت عليهم أن يتوسعوا عبر البحر المتوسط، ويؤسسوا من المراسي أو محطات النزول أو المراكز التجارية.

امتد توسع الفينيقيين إلى ما وراء جبل طارق، وظلوا طوال مدة توسعهم يبحثون عن مراكز كانوا قد اعتادوا عليها - كقرطاجة ونورا وبيثيا Bythia ، أو جزيرات كسان انطيكو وموطيا وموغادور. ثم لكي تكون مراسي تناسب أسفارهم الطويلة قاموا بتأسيس مقار ما بينها مسافات منتظمة.

كان الطقس في فينيقيا قديماً مثلما هو عليه اليوم تقريباً : أمطار غزيرة في الشتاء تتسرب في أعماق تربة طفالية وتخصبها. يبدأ الربيع في آذار ، وتنضج الذرة في أيار. وفي آذار تقل الأمطار ، وتكاد تتوقف تماماً بين أيار وأيلول. أما الصيف فيدوم أربعة أشهر أو خمسة ، وفي أثنائه تيبس الخضار على الرغم من سقايتها بواسطة السواقي في نقاط عديدة. وفي تشرين الأول يبرد الطقس، ويستأنف تهطال المطر ، وتعيد الدورة سيرتها الأولى. لذلك كانت فينيقيا ، على وجه الإجمال ، تشترك مع سائر بلدان الشرق الأدنى في الأحوال الطقسية العامة ، في شيء من الملطفات والمحسنات، بسبب من وضعها الجغرافي الخاص. ونتيجة لذلك كانت فينيقيا من أخصب بلدان المشرق. كانت زراعتها نامية جداً ، على الرغم من محدودية الأرض الصالحة للزراعة: كانت تنبت فيها الحنطة والكرمة والزيتون والأشجار المثمرة (لا سيما التين والجميز). أما أشجار النخيل فكانت كثيرة في الأزمنة القديمة ، على حين تكثر اليوم أشجار البرتقال ولم تكن معروفة من قبل.

لكن أعظم ثروات فينيقيا ، على ما تفيدنا به النصوص التاريخية ، كانت غابات جبال لبنان. كان يكثر فيها شجر الصنوبر والسرو ، وفوق كل شيء ، شجر الأرز المشهور في جميع أنحاء الشرق الأدنى. فقد ظلت البعثات القادمة من ما بين النهرين أو من مصر تفد إلى فينيقيا على مدى العصور لكي تحصل على هذه المادة الثمينة التي كانت تعطّر كل ما حولها برائحتها الذكية. لكن في أيامنا هذه لم يبق من هذه الغابات الرائعة إلا القليل بعد أن استنفدها الاستثمار بالتدريج.

أما حيوانات فينيقيا القديمة فكانت تتفق مع ما يحيط بها ومع طقسها. كانت الجبال موبوءة بالنمور والدببة والضباع والثعالب وبنات آوى والأرانب البرية، بينما كانت الحيوانات الأهلية كالحمير والثيران والغنم والماعز أكثرها شيوعاً. كان فيها وفرة من السمك يصيدونه من البحر، ولا سيما الموركس Murex الأرجواني اللون.

عموماً، كانت البلاد تمد سكان فينيقيا القدماء بموارد ممتازة. لكن هذه الموارد ما كانت لتفيدهم إلا على أساس التبادل التجاري الفعّال، وقد مارسه الفينيقيون أول ما مارسوه مع الأقوام المجاورة، ثم مع جميع البلدان الواقعة على شواطئ المتوسط، مما جعل من الفينيقيين أشهر تجار العالم القديم وأكثرهم قدرة[1].

١ـ سبا تينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية، ترجمة نهاد خياطة ـ العربي للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٨ ص ٢٣ ـ ٢٥.

تاريخ الوطن الفينيقي

التعمير السامي للساحل الفينيقي وظهيره:

ليس التعمير السامي أول تعمير بالسكان لهذا الجانب السوري، فلم يدخل الساميون أرضاً خالية من السكان فاستعمروها، ولكنهم في الواقع دخلوا بلاداً كانت إلى حد ما عامرة بالسكان ليس إلى درجة الازدحام أو حتى الاكتمال، ولكنها تعمر ببعض المحلات المتفرقة في أحسن الجهات ملاءمة للتعمير البشري. وقد ترك هؤلاء السكان آثارهم في جهات متفرقة من فلسطين وسوريا، وهي ترجع إلى العصور الحجرية القديمة والمتوسطة والحديثة في فلسطين وسوريا. وقد اصطلح على إطلاق تعبير (السابقين للساميين) على هؤلاء السكان، هم ينتمون إلى سلالة البحر المتوسط التي تميزت صفاته وتم انتشاره في حوض هذا البحر منذ العصر الحجري الحديث، كما أن سفر التكوين من العهد القديم قد ترك لنا سجلاً بأسماء بعض قبائل هذه السلالة التي قابلها في فلسطين. ولما كان العهد الذي عمر فيه هؤلاء الأقوام أقطار الجانب السوري خارجة عن نطاق البحث فإننا نكتفي بهذه الإشارة[1].

أول من عمر سوريا من الشعوب هم العموريون، وهذا اسم أطلقه السوريون عليهم، ولا نعلم ما هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على أنفسهم، ومعنى هذا الاسم: الغربيون دلالة على أنهم شعبة سامية اتجهت نحو الغرب. وقد قدم العموريون عن طريق الشمال الشرقي لسوريا وحطوا رحالهم في وادي الفرات الأوسط عند التقائه بنهر الخابور حيث أسسوا عاصمتهم ماري[2].

١- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٢١٣- ٢١٤.

٢- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٢١٣- ٢١٤.

ويظهر اسم العموريين لأول مرة في وثائق سرجون الأكادي نحو عام ٢٤٥٠ق.م. ويبدو أنهم بدؤوا يتسللون من الركن الشمالي الشرقي لسوريا الحالية حيث وطدوا أقدامهم أولاً، ثم انتشروا إلى بقية أجزاء سوريا فظهروا في حوض العاصي والساحل الفينيقي وتقدموا جنوباً حتى فلسطين. ويقال أن الأسماء التي تنتهي بحرفي (ون) عمورية الأصل ومن هذه الأسماء اسم لبنان القديم «ليبنون» و «صيدون» و «عسقلون» و «حرمون»، كما لا تزال قرية «عمريت» تحمل آثار اسم العموريين في شمال الساحل الفينيقي حتى الآن. (محافظة طرطوس).

العموريون إذن أول من صبغ سوريا بالصبغة السامية التي ظلت غالبة عليها. ولم يكن هذا بمجهود ضئيل إذا ستغرق عدة قرون من أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد حتى القرن الثامن عشر قبل الميلاد عندما أصبحت سوريا جميعها فيما عدا جيوب حورية واوسانية متفرقة عمورية الثقافة واللغة، وعندما تحققت وحدة الهلال الخصيب لأول مرة في التاريخ حيث امتد نفوذ العموريين من الفرات الأوسط إلى سوريا غرباً والعراق شرقاً، وقامت عدة أسر سامية في العراق من أشور في الشمال إلى لارسا في الجنوب حتى انتقل مركز حكم تلك الإمبراطورية السامية من ماري العمورية إلى بابل في عهد حمورابي (نحو ١٧٠٠ق.م).

وقد أخرجت لنا حفائر ماري في تل الحريري (١٩٣٨) وثائق مسمارية مهمة مكتوبة باللغة الأكادية واللهجة السامية الغربية (العمورية) في لوحات من الطين تشبه لوحات نينوى وبوغاز كوي وتكون مصدراً أصلياً مهماً للحضارة العمورية. وقد تبين من هذه اللوحات أن العربات التي تجرها الجياد كانت معروفة في ذلك الوقت. ويبدو أن الحضارة العمورية كانت مزيجاً بين الحضارات القديمة الأصلية والحورية والبدوية العمورية. وهكذا وضعت الحضارة العمورية أسس التقاليد السامية في استيعاب عناصر الحضارات المحلية. وقد ظهرت هذه الأسس فيما بعد في كل الحضارات السامية سواء أكانت كنعانية أو آرامية أو عربية وكانت مميزة لها في التاريخ[1].

١ـ د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٢١٥ـ ٢١٦.

وقد قامت حضارة العموريين على أساسين: الزراعة التي اقتبسوا فنها من السكان الأصليين، والتجارة التي كانت محور حياة الساميين في الشرق الأدنى. أما الزراعة فقد كانت كما هي الحال الآن قائمة على الري، وأما التجارة فقد استغل العموريون موقع شمال سوريا كحلقة وصل بين البحر المتوسط ووادي دجلة والفرات فالخليج العربي أحسن استغلال. إنها شقة من الأرض بين خليج إسكندرونة ونهر الفرات لا تزيد على ١٥٠ كيلومتر، وهي تقع بين جبال أمانوس وطوروس شمالاً وجبال الناصرية والزاوية جنوباً بغرب، وبادية الشام في الجنوب وتصل بين البحر المتوسط حيث تنتهي تجارة الغرب، وبين نهر الفرات حيث تنتهي تجارة الشرق من الصعود في الخليج العربي ونهر الفرات أو حيث تنتهي تجارة دجلة إلى نينوى، ومنها تنقلها القوافل إلى حران... هذه الشقة من الأرض كانت مركز تجارة العبور الكبرى بين مصر والعراق، وبين البحر المتوسط والخليج العربي، بل وبين آسيا الصغرى وبلاد اليمن... ولهذا ليس بغريب أن تكون مركز أول دولة قوية في سوريا، وليس بغريب أن تنشأ فيها أقدم مدن سوريا التجارية: حلب، وأقدم ميناء سوري وهو أوغاريت.

وقد انتقل مركز العموريين منذ نهاية الألف الثانية قبل الميلاد من الشمال إلى الانخفاض السوري الأوسط في شمال سوريا وحوض نهر العاصي[1]. وذلك تحت ضغط عناصر جديدة بدأت تدق الباب الشمالي الشرقي مرة أخرى: ضغط الحثيين، ثم الضغط الحوري والميتاني. وبذلك تكونت عدة دويلات عمورية في شمال سوريا، وفي حوض نهر العاصي وفي الساحل الفينيقي. وهذه الدويلات التي أخضعها تحوتمس الثالث لحكم مصر وظلت تقوم برسالتها في نقل التجارة وتعمير البلاد تحت الحماية المصرية إلى أن تمردت عليها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

وأهم مراكز التعمير العموري في سوريا كما يظهر من دراسة لوحات ماري هي حلب أو (حلبو) عاصمة إقليم كان يقال له (يمخد)، وجبله (جبيل) أو بيبلوس، وكانت مركزاً لنسيج الأقمشة وتجارة الأخشاب مع مصر، وقطنه (تل المشرفة حالياً) شمال

١- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٢١٧.

شرقي حمص، وحرانو (حران)، وقد ورد ذكرها في سفر التكوين إذ كانت إحدى المحلات التي استراح فيها إبراهيم في رحلته من عامور إلى شرق الأردن.

وتظهر في خطابات تل العمارنة أسماء مدن عمورية أخرى أثناء ذكر الدسائس السياسية بين أمراء هذه المدن ومصر. من هذه المدن حماه ودمشق، ثم بعض المدن الفينيقية مثل أرقات (شمال شرق طرابلس بنحو ١٢ ميلاً) وأرواد وشيجات (شمال البترون) وامبي (بين الشقة وطرابلس) والبترون وسميرا، وفي خطاب آخر تظهر أسماء: الازا وارداتا وصور وصيدا وبيروت[١].

الاستقرار الكنعاني:

لا يختلف الكنعانيون عن العموريين في شيء، فهما فرعان من أرومة واحدة أو فرع من الساميين الغربيين احتل بؤرتين مختلفتين في التوجيه الجغرافي والتأثر الثقافي. أما العموريون فلأنهم استقروا في شمال سوريا أولاً كانت وجهتهم الثقافية نحو سومر وأكاد، ثم اتصلوا بعد ذلك بالحثيين والحوريين والميتانيين، وأما الكنعانيون فلأنهم استقروا في جنوب الجانب السوري وعلى الساحل، فقد كانت وجهتهم الثقافية نحو مصر، أما فيما عدا ذلك فلا فرق أساسي بين العموريين والكنعانيين.

وتبدأ اللغة الكنعانية في الظهور في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد، ولكن الكنعانيين أنفسهم كانوا مستقرين في البلاد قبل ذلك بنحو ألف عام، إذ إنهم جاؤوا إلى سوريا مع العموريين في هجرة واحدة، ولكنهم جاؤوا من الجنوب عن طريق النقب، ومن الشرق عن طريق شرق الأردن، ويدل على ذلك أسماء المدن القديمة في فلسطين وفينيقيا، وهي أسماء كنعانية لا شك فيها مثل أريحا وبيت شان (بيسان الحالية) ومجدو في فلسطين و(عكا) وصور وصيدا وجبلا وغركا وسميرا.

وقد فضل الكنعانيون السهل الساحلي في فلسطين، والساحل الفينيقي في أوغاريت تاركين الهضاب الفلسطينية وسوريا الداخلية للحوريين. وإليهم يرجع الفضل في تشييد أقدم المدن في فلسطين وفي الساحل الفينيقي. وكانت مدنهم صغيرة الحجم

١- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٦٩، ص ٢١٨- ٢١٩.

لا تزيد مساحتها على بضعة فدادين مقامة في أماكن يسهل الدفاع عنها تشرف على طريق من فوق نشز من الأرض أو عند مداخل الوديان. وكانت تقوم بوظيفة السوق المحلية ومكان العبادة والحصن الذي يلجأ إليه الفلاحون في وقت الخطر إذا تعرضوا لغزو الغزاة.

أما على الساحل الفينيقي فقد انتشرت المدن الكنعانية التي كان همها الأول الاشتغال بالزراعة في السهل الساحلي الضيق. ولم تكن النتوءات الصخرية القليلة تشجع على إنشاء موانئ ترسو فيها السفن. والواقع أن هذا الغرض لم يكن في ذهن الكنعانيين الأوائل، اللهم إلا في النقط القليلة التي كانت في صلات تجارية مع مصر مثل جبلا (بيبلوس) أو مع وادي دجلة والفرات مثل أوغاريت. وكان الكنعانيون كما قدمنا يبحثون عن الأمن والسلام، ولذلك كانت محلاتهم في الساحل الفينيقي في كنف الجبال التي عصمتهم من الغزو من خلفهم (من الشرق) فتجمعت محلاتهم ومدنهم خلف جبال لبنان الغربية لأنها عقبة كأداء في وجه أي غاز من الشرق.

ولذلك كانت معظم المدن الكنعانية الأولى في هذه المنطقة مثل طرابلس وبيبلوس وبيروت وصيدا وصور. أما جبال أمانوس وجبال الناصرية فأقل حماية للمدن التي تقع أسفل منها من جبال لبنان الغربية. ولذلك قلت مدن الكنعانيين في سفوحها البحرية، ومن هذه المدن عركا وسميرا وأرواد[1].

وهكذا وضع الكنعانيون الأساس الأول للمدن الفينيقية في الشمال، كما وضعوا الأساس لجميع المدن الفلسطينية في الجنوب. واختاروا لكل المواقع المناسبة التي تفي بحاجات الدفاع والتي تتوفر فيها ضروريات الحياة المستقرة كما وضع العموريون أسس المدن التجارية الداخلية في المنخفض السوري الأوسط (حوض نهر العاصي أو سوريا الوطيئة على حد تعبير الكلاسيكيين) والمدن التي على حافة الصحراء ومدن الواحات محطات القوافل.

والكنعانيون أصحاب أول حضارة مستقرة في الجانب السوري، اللهم إلا إذا استثنينا حضارات العصر الحجري الحديث، وهم بعكس العموريين وجهوا كل همهم

١- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٦٩، ص ٢٢٠- ٢٢١.

للزراعة والتعمير، ولم يعرف عنهم أنهم كانوا شعباً محارباً. أما العموريون فقد وجهوا جزءاً كبيراً من طاقاتهم نحو التجارة وكانوا شعباً محارباً.

استوعب الكنعانيون ما وجدوه لدى السكان الأصليين من أصول الحضارة الزراعية، وأضافوا إليها من تجاربهم، واستثمروا الأرض التي أثرت في دياناتهم تأثيراً واضحاً... ويبدو أنهم عرفوا المحراث من بابل ومصر معاً. وقد عثر في رأس شمرا على فؤوس يدوية من البرونز، كما عثر على آثار توضح أساليبهم الزراعية في حفائر بيت مرسم في فلسطين ترجع إلى الفترة التي تقع بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر قبل الميلاد.

وقد أدخلت آلات الحرث والحصاد الحديدية نحو القرن العاشر قبل الميلاد.

ولا تختلف نظم الزراعة الحالية في سوريا كلها إذا استثنينا بعض المحاصيل الحديثة مثل الحمضيات والموز وقصب السكر والقطن عن نظام الزراعة الذي وضع أساسه الكنعانيون، بل إن الكنعانيين بأخذهم بأسباب الزراعة وطدوا أقدامهم في كل أقطار سوريا أكثر من أي شعب آخر، إذ كوّنوا طبقة الفلاحين التي تعمل في الأرض والتي لم تتحول عنها قط، فالتصقوا بها وأصبحوا جزءاً أساسياً من البيئة.

زرع الكنعانيون السهل الساحلي، فلما ضاق بهم أقاموا المدرجات على سفوح الجبال، وظلت هذه المدرجات شاهداً على صبرهم وعبقريتهم إلى يومنا هذا. وكان عماد الثروة الزراعية ثالوث البحر المتوسط (الحبوب والكروم والزيتون). وهذه المحاصيل أصيلة في مرتفعات سوريا أو جنوب غرب آسيا ولم تدخل إليها من الخارج.

ويرى الأستاذ (فنسنت) أن الكنعانيين في فلسطين وفينيقيا كانت لهم حضارة خاصة في عهد البرونز، يطلق عليها اسم الحضارة الكنعانية، ويقسمها حسب ما وجد من فخار في فلسطين إلى ثلاثة أدوار تكاد تتفق مع أقسام عصر البرونز في كريت وبحر إيجة وفي مصر. ومن المرجح أن يكون الكنعانيون قد تميزوا بصفات حضارية محلية قوامها الزراعة وتربية الحيوان كالبقر والضأن والماعز والخنزير. كما كان الحمار يستعمل في تلك البيئة الزراعية. أما مميزات الحضارة الأخرى ولا سيما في الصناعة فقد كانوا متأثرين فيها بما حولهم من حضارات ولا سيما المصرية والكريتية في عصر البرونز، ثم الميكينية في عصر بدء الحديد. ويبدو من آثار أوغاريت الحديثة أن العلاقة كانت قوية بينها وبين ميكني وقبرص.

وقد برع الكنعانيون في أعمال التعدين في أواسط البرونز وآخره (٢١٠٠-١٢٠٠ق.م). وتبدو براعتهم في صناعة المعادن من تحليل الآلة الحادة التي وجدت في أوغاريت، وترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهي تدل على أنهم عرفوا خلط الحديد بمعادن أخرى لتكوين الصلب وهذا في حد ذاته يعتبر سبقاً جديداً. هذا وتنص النقوش المصرية على الأسلاب التي وقعت في أيدي المصريين من سوريا، ومنها الأطباق الفضية والحلي الذهبية[1].

علاقة أوغاريت بمصر:

منذ فجر التاريخ الفرعوني أي نحو الألف الثالثة قبل الميلاد. ومصر توالي إرسال البعوث الحربية نحو الشمال الشرقي، لصد هجمات الآسيويين. وهذا الوقت يعاصر بدء استعمال المعدن وعصر البرونز الذي كان دافعاً قوياً للمصريين وغيرهم من الشعوب الأخرى للبحث عن المعدن ولذلك بدؤوا يوطدون أقدامهم في شبه جزيرة سيناء للبحث عن النحاس والفيروز. وأكثر من ذلك فإن النفوذ المصري في عصر الدولة القديمة توطد على الأقل في جنوب فلسطين.

وتتمثل في معبد ساحورع نقوش البعثات الحربية المصرية إلى فلسطين وسوريا في عهد الأسرة الخامسة. وإلى هذا العهد (القرن ٢٧ق.م) ترجع الاتصالات التجارية التي يحفظ وثائقها التاريخ بين مصر والساحل السوري. وهذا يفسر إنشاء المحميات والمستعمرات المصرية على الساحل الفينيقي مثل محمية ببلوس التي سنتحدث عنها فيما بعد.

في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد كان لفراعنة مصر في عصر الدولة الوسطى اتصالات منظمة وعديدة مع مدن الساحل الفينيقي. والأدلة لا تعوزنا على نفوذ مصر في ببلوس على الساحل وقطنة في الداخل. أما أوغاريت بعد عدة قرون من الاحتلال السامي، أصبحت مدينة تجارية مهمة شجعها موقعها الممتاز على القيام بدور كبير في التجارة الدولية لذلك الحين وأصبحت ملتقى لحضارات ما بين النهرين ومصر وبحر إيجة وظهر اسمها في خطابات تل العمارنة ووثائق الحثيين في بوغاز كوي.

١- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٢٢٢- ٢٢٣.

ووجد في أوغاريت عدة خراطيش تحمل اسم سيز وستريس الأول الذي حكم مصر ما بين ١٩٧٠-١٩٣٦ق.م، كما وجدت جعارين منقوش عليها اسم هذا الفرعون في أجزاء أخرى من سوريا في بيت جزين ومجدّو وبيسان ولاكيش وغزل في فلسطين، وهذه هي أقدم آثار مصرية وجدت في سوريا حتى الآن مع استثناء آثار ببلوس.

وفي هذا العهد الذي يطلق عليه «شيفر» اسم أوغاريت الوسطى، كانت أوغاريت مثل ببلوس تستورد مقداراً كبيراً من المصنوعات الكريتية (المينوية الوسطى)، بل إن بعض واردات كريت مثل الأواني البيضية الخفيفة قد وصلت إلى الداخل حتى قطنة (مشرفة).

ووجدت نفس السلع في مصر، أي أن الحركة التجارية كانت متسعة تشمل وادي النيل في الجنوب حتى أوغاريت في الشمال والعراق في الشرق حتى كريت في الغرب. وبحكم موقع أوغاريت الجغرافي على رأس المثلث كانت تنتهي إليها تجارة النيل من الجنوب وكريت من الغرب ومنها تنتشر إلى الأناضول شمالاً والعراق شرقاً، ولهذا ازدهرت أوغاريت ازدهاراً كبيراً ولكن ما لبثت أوغاريت أن تعرضت لحركة قلقلة كبرى كان من جرائها أن توقفت التجارة وتهدمت الآثار المصرية. لقد كانت أعمق وأشهق من مجرد تغيير في نظام الحكم، فقد كانت حركة من حركات الشعوب الكبرى التي إذا بدأت في الاضطراب في أحد أركان العالم القديم دفعت أمامها غيرها، وهكذا حتى يتجاوب صداها في أرجاء العالم القديم بأكمله. ويبدو أن هذه الحركة كان منشأها البلقان والدانوب الأسفل، ومنها انتشرت غرباً حتى وادي الراين وشرقاً إلى القوقاز وجنوباً حتى ساحل فينيقيا. ويبدو أيضاً أنها كانت إحدى الحركات الهندية الأورُبية القديمة التي كان أثرها حمل الحاتي إلى آسيا الصغرى ودفع الهكسوس إلى مصر.

وأمام هذه التغيرات الكبرى كان لا بد من تعديل التوجيه الجغرافي لأوغاريت، فها هي ذي الهجرات البشرية قد حملت الحوريين إلى منطقة نصيبين وكركميش وعزلت أوغاريت عن ظهيرها العراقي وتركتها منفردة لم يبق أمامها سوى الالتجاء إلى مصر التي تستطيع وحدها أن تؤمن تجارتها وتجد فيها عوضاً عن خسارتها في العراق. وقد كانت هذه الحركة من جانب أوغاريت تجاوباً لرغبة أمنحات وسيزو ستريس اللذين قررا التدخل في شؤون سوريا (فينيقيا وفلسطين) تأميناً لبلادهما من غزوات

البرابرة من هضبة إيران وهضبة آسيا الصغرى. فأنشأ الفراعنة المصريون نظام الوصاية على الملوك الصغار الذين أجلسوهم على عرش مدن سوريا. وبهذا أمنوا أنفسهم ضد الآسيويين من ناحية، وأمنوا طرق مواصلاتهم مع مصدر الخشب والمواد الأولية اللازمة لصناعاتهم من ناحية أخرى.

يمتاز القرنان الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد في أوغاريت بأنها كانت واقعة فيهما تحت سيطرة الهكسوس الذين أخضعوا سوريا بأكملها ومصر لحكمهم، ولا تزال الآراء مختلفة في أصل الهكسوس. ويبدو أنهم كانوا شعباً سامياً آرامياً تقوده أقلية أرستقراطية حورية أو ميتانية. وبعبارة أخرى هندية أورُبية من طلائع الهنود الأورُبيين الذين ظهروا في الشرق الأوسط في الألف الثانية قبل الميلاد. وقد دخلت أوغاريت في هذا الوقت في دور مزدهر يشبه حالة الازدهار التي كانت سائدة في سوريا كلها بصفة عامة وفلسطين بصفة خاصة. ويدل على ذلك وجود أسلوب واحد في تحصين المدن وتخطيطها، وهي ميزة طبعت حكم الهكسوس في كل البلاد السورية. وتدل آثار مدينة أوغاريت لهذا العهد على أن منازلها كانت متسعة مبنية من الحجارة يشقها حواري أو شوارع ضيقة مستقيمة. أما الأواني التي عثر عليها فهي نتيجة خليط من عدة ثقافات. وهناك الطراز الكنعاني الذي يدل على أن العنصر السامي كان لا يزال قوياً وإلى جانبه أواني من الطراز المينوي الأوسط مما قد يحمل على الظن بأنه كانت توجد مستعمرة إيجية مؤسسة في أوغاريت من قبيل المستعمرات التجارية التي تأوي إليها الجاليات الأجنبية. ويرجع تاريخ هذه المستعمرة إلى الألف الثانية قبل الميلاد. كما وجدت أوانٍ ذات نقوش غائرة من الطراز الذي وجد مثيله في سوريا وفلسطين وقبرص ومصر. أما الصبغة الحربية لهذه المدينة فتظهر في أدوات الحرب والقتال التي وجدت في مقابر أوغاريت في ذلك العهد، وهي جميعاً أدوات من البرونز. وقد بدأت الآثار الميكينية وهي إحدى مظاهر الحضارة الإيجية التي انتقلت إلى اليونان في الظهور، مما يدل على وجود علاقات بين أوغاريت وميكيني ابتداءً من القرن السابع عشر وخلال القرن السادس عشر قبل الميلاد[1].

١- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٢٣١- ٢٣٢.

أوغاريت من القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد:

مرت أوغاريت في أزهى عصورها في هذين القرنين فكانت بحق ملتقى ثلاث حضارات قامت في شرق البحر المتوسط، وهي بهذا قد حققت أو بررت مركزها الجغرافي الممتاز. ففي خلال هذين القرنين كانت أوغاريت تحت السيطرة المصرية الاسمية وكانت ملتقى العنصر الحوري والميتاني الذي كان يسيطر على تجارة طريق سوريا الشمالي في الحضارة الميكينية التي ورثت الحضارة المينوية، والتي كانت تحمل إليها حضارة الغرب، وبذلك لعبت أوغاريت الدور الذي قدر للفينيقيين التاريخيين أن يلعبوه فيما بعد.

أما عن النفوذ المصري فقد حمله تحتمس الأول وتحتمس الثاني بعد طرد الهكسوس من مصر ومطاردتهم في سوريا. وقد أعاد المصريون تنظيم الموانئ الفينيقية على أن تكون قواعد للأسطول المصري، ذلك الأسطول الذي كان الفينكو والحونبو (كما ورد ذكرهم في الوثائق المصرية) يكونون جزءاً كبيراً من رجالهم... ولنا أن نتساءل: من هم الفينكو والحونبو؟ إن الاسم الأول قريب من اسم الفينيقيين، مع أن هؤلاء كما نعرفهم في التاريخ لم يكونوا قد ظهروا بعد. ومما لا شك فيه أن هؤلاء القوم من شعوب شرق البحر المتوسط وأن هذه الشعوب كانت ذات طبيعة بحرية قديمة ظهرت في حضارات بحر إيجة، وظهرت في الجنود البحرية المرتزقة، وقوي أثرها فيما بعد وبشكل محسوس في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد.

أما عن الأثر الحوري والميتاني في أوغاريت في أواسط الألف الثانية قبل الميلاد فيكفي دليلاً عليه العثور على قاموس للأساليب والمصطلحات القانونية في اللغتين السومرية والحورية في حفائرها. ويبدو أن قبرص في ذلك الوقت كانت أكثر اتصالاً بشمال سوريا منها بأي جزء آخر، وأنها أيضاً كانت ترسل جزية سنوية من معدن النحاس استرضاءً لصاحب السيادة على أوغاريت التي كان يقطنها عدد كبير من القبارصة.

ونظراً لازدهار المدينة بسبب كونها قاعدة للطرق البرية والبحرية نشطت التجارة بشكل استدعى قيام حي تجاري جديد بجوار الميناء عند ميناء (مينة البيضا). وقد أظهرت الحفائر منازل هذا الميناء والمخازن التجارية ومراسي السفن. وقد عثر على نحو ثمانين إناءً كبيراً لا بد أنها كانت مليئة بالزيت والنبيذ كما وجد في مكان آخر أكثر من ألف إناء قبرصي من التي تستعمل في حفظ العطور الزيتية في مصر

وفلسطين، مما يدل على ازدهار تجارة العطور وأدوات الزينة. كما وجدت أواني من الألابستر من الطراز المصري.

أما عن علاقة أوغاريت ببحر إيجة فهي قديمة جداً ترجع إلى موقعها الجغرافي. ويبدو أن حضارات بحر إيجة القديمة كانت متأثرة بالشرق. أما منذ الألف الثانية قبل الميلاد فإن التأثير القوي كان من العالم الإيجي أثناء الحضارة المينوية الوسطى إلى شمال سوريا.

وقد توغل الأثر الإيجي إلى داخل سوريا حتى وصل إلى الوادي الأوسط للفرات. وقد تعرضت هذه العلاقات التجارية مع بحر إيجة للانقطاع أثناء تعرض هذا الطريق الشمالي لهجمات الحوريين والميتانيين والهكسوس. وعادت العلاقات إلى سابق عهدها، بل وازدادت قوة بعودة النفوذ المصري إلى سوريا (الأسرة ١٨) الذين فتحوا أوغاريت للتجارة الإيجية وللاستعمار الإيجي أيضاً. إذا استقر في ذلك الوقت بعض شعوب البحر. ويدل على ذلك الجماجم التي وجدت في الكهوف من القرن ١٤-١٢ق.م. وهي جميعاً تدل على سلالة البحر المتوسط.

وهذا يقوي الرأي القائل بأن الإيجيين كانت لهم مستعمرة ثابتة في رأس شمرا، وهذه المستعمرة كانت مينوية في بادئ الأمر ثم أصبحت ميكينية ثم أصبحت من شعوب شرق البحر المتوسط (شعوب البحر) فيما بعد. ويدل على وجود الميكينيين قطع من الكهرمان الذي كانوا يجلبونه من شمال أورُبا إلى موانئ الأدرياتي في عصر البرونز، كما يدل على ذلك نصوص أوغاريتية عثر عليها سنة ١٩٢٩ وحل رموزها العالم دورم Dhorme[1].

علاقات لبنان مع مصر:

كانت أول مدينة ألقى عليها التاريخ أضواءه جبلة (جبال في التوارة واسمها السامي القديم لا يزال حياً في اسمها الحديث: جبيل. أما المصريون فقد كانوا يسمونها «كبنة» (Kupna) والإغريق ببلوس.

١- د. محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٦٩، ص ٢٣٣- ٢٣٥.

ويبدو أن أهل «جبلة» كانوا على اتصال تجاري بمصر السفلى قبل أن تتحد مصر العليا والسفلى في دولة واحدة تعرف بالأسرة الأولى. فقد وجدت جسور من جذوع الأرز في مقابر هذه الأسرة وبعض قطع من خشب الأرز يعود تاريخها إلى ما قبل هذه الأسرة. وفي هذا دلالة على أن هذا الخشب كان يستحضر من لبنان في ذلك العهد السحيق. وقد وجد أيضاً في قبور ملوك هذه الأسرة آنية خزفية وسلع كنعانية أخرى. وقد دلت الحفريات التي أجريت في جبيل على أن هذا الموقع كان يستوطنه فلاحون أو صيادو سمك منذ العصر الحجري الحديث. وقد مرت جبيل في أدوار عديدة متتالية كما يبدو من الطبقات الترابية التي تطمرها. فإن جبيل الثانية (مقابلة لها بجبيل الأولى أي أعمق طبقة في الحفريات) كانت قرية صغيرة جدران بعض بيوتها الخارجية متحنية أو مقوسة وبعضها الآخر ذات حيطان مستقيمة الأضلاع وشوارعها مرصوفة بالحجارة ومساحتها ما يقرب من ٨ دونمات. ولا يظهر في ما وجد من أسلحة نحاسية ومن أدوات فضية للزينة في جبيل الثانية أي دليل على أن هذه الصناعة واقعة تحت تأثير بلاد ما بين النهرين، بل تدل على أنها صناعة معدنية مستقلة.. وليس هذا وحسب بل قد يكون أن صناعة المعادن في العالم الإيجي قد اقتبست عن جبيل. أما في جبيل الثالثة فإن هندسة البيوت تتغير وصنع الخزف يدل على أنهم بدؤوا يستعملون دولاب الخزاف. وقد كانت جبيل الثالثة والرابعة معاصرة في الزمن للأسرة المصرية الأولى. وقد عثر في جبيل على هيكل وجد فيه قرابين وتقدمات ملوك مصر بدءاً بفراعنة الأسرة الثانية. ولم تقتصر تجارة هذا الميناء اللبناني، جبيل، على تجهيز مصر بالأخشاب الممتازة (ومصر فقيرة بالأخشاب) لصنع المراكب ولسقف القصور والهياكل ولصنع المواعين والتوابيت والسواري والكراسي وغيرها من أثاث البيت، بل كانت تصدر إلى مصر خمور لبنان المشتهاة وزيت زيتونها الطيب، ومختلف الصموغ التي تفرزها الشقوق في جذوع أشجار الصنوبر والأرز والشربين والسرو والتي كانت تستعمل في عملية التحنيط. وقل أن تدخل جناحاً خاصاً بمصر في أي متحف من المتاحف الأثرية دون أن ترى فيه شيئاً من خشب الأرز. ومقابل هذا التصدير كان الجبيليون يستوردون الذهب والمعادن والبردي للكتابة في شؤونهم التجارية ومنتجات أخرى من وادي النيل. وقد ظلت هذه العلاقات التجارية براً وبحراً مزدهرة نشيطة، لا بل ازدادت نشاطاً، طوال أيام المملكة القديمة (نحو ٢٧٠٠-٢٢٠٠ حسب التاريخ القصير)

فإن المراكب الشراعية المصرية، بدءاً بالأسرة السادسة، كانت تعرف «بمراكب جبلة».
ولم يقتصر الاتصال تجارياً بمصر على طريق البحر وحسب بل كانت القوافل البرية تتبع الطريق الدولية التي كانت تبدأ في دلتا النيل وتسير على محاذاة الشاطئ إلى سيناء حيث كانت تتشعب منها طريق تتجه جنوباً إلى معادن النحاس ومقالع الفيروز. وعلى مسافة قصيرة شرقاً كانت تتشعب منها طريق أخرى إلى بلاد البخور في جنوبي الجزيرة العربية. وتستمر الطريق شمالاً على محاذاة الشاطئ الفلسطيني إلى جنوب لبنان كانت الطريق تتشعب إلى طريقين رئيسيتين الواحدة تستمر على محاذاة الشاطئ شمالاً مارة في صور وصيدا وجبيل ومدن ساحلية أخرى، والثانية تنحرف جنوباً في وادي مجرى الليطاني إلى البقاع، ومن البقاع إلى دمشق. وكانت شعبتا هذه الطريق، الطريق الساحلية وطريق سهل البقاع، تلتقيان شمالاً في قادش (قرب بحيرة حمص) بطريق وادي النهر الكبير وهو الوادي الذي يمر فيه اليوم القطار الحديدي. وفي شمال سوريا تتشعب هذه الطريق الدولية الرئيسية مرة أخرى. فإن فرعاً منها كان يمر في مضايق كيليكية إلى أسيا الصغرى، وفرعاً آخر ينحرف شرقاً نحو الفرات ثم جنوباً إلى رأس الخليج العربي. وهكذا نجد أن طريقاً دولية رئيسية واحدة كانت تربط بين جميع المراكز الحضارية في العالم القديم، وهي الطريق ذاتها التي كان تبعها غزاة هذه المنطقة: رعمسيس واسر حدون والإسكندر المقدوني والصليبيون ونابليون بونابرت. وقد أنشأ التجار المصريون لأنفسهم مستعمرة وجالية مزدهرة في جبيل. يدلنا على ذلك ما وجد من آثار وبقايا مصرية في الحفريات التي أجريت في جبيل. ولا شك في أن هذا الاتصال المصري بفينيقيا لم يقتصر على جبيل وحدها، فقد أنشئت أيضاً جالية تجارية مصرية في مدينة أوغاريت. ويظهر أن هذه العلاقات بين مصر وفينيقيا كانت تجارية وحضارية تتميز بكثير من المودة والإخاء. فقد كان أمراء جبيل يتبادلون الهدايا الثمينة مع فراعنة مصر. وهكذا نجد اسم الفرعون خوفو، بأني الهرم الأكبر في الجيزة، محفوراً على مزهرية من المرمر مرفوعة إلى الآلهة «بعلة جبيل» التي كان لها هيكل ترسل إليه القرابين والتقدمات والنذور من الفراعنة الذين سبقوا خوفوا والذين خلفوه. وليس هذا فقط، بل أسفرت الحفريات عن اكتشاف معبد للآلهة المصرية (ايزيس) قائم إلى جانب معبد (بعلة جبيل). وفي الواقع أنه على مر الزمن أصبحت الإلهتان إلهة واحدة. وقد كان أمراء جبيل يزينون أسلحتهم برسوم ونقوش

مـصرية. وبعـضهم كـان يفخـر أن يـسمي نفـسه مـن «أبنـاء رع» الإلـه الشمـسي الأول في مصر[1].

السيـادة المصريـة:

بدأت العلاقات بين المدن الفينيقية ومصر على أساس تجاري حضاري، ولكنها أصبحت صلات سياسية. فإن فراعنة المملكة المتوسطة (نحو ١٩٠٢-١٦٢٨)، ولا سيما فراعنة الأسرة الثانية عشرة - وهي أعظم أسرة في تاريخ مصر المجيد - بدؤوا بفرض السيادة المصرية، ليس على الشاطئ اللبناني وحسب، وإنما على فلسطين وعلى جزء كبير من سوريا. ولكنها لم تكن على الأرجح سيادة تامة تفرض على البلاد بحزم وشدة. وإننا نبدأ أن نرى في الصور التي كانت ترسم على الجدران في القصور والهياكل رسوم وفود وأسرى آسيوية. وأقدم هذه الرسوم نجدها في القبور الملكية المنحوتة في الصخر في بني حسن والتي يعود تاريخها إلى سنوسرت الثاني (نحو ١٥٠٠ق.م). وتشير أسماء المدن والأمكنة التي تظهر في قوائم أسماء الأمكنة في النقوش المصرية على أن الشاطئ بأكمله حتى النهر الكبير، وحوران ودمشق، وجزءاً كبيراً من سهل البقاع جميعها كانت عند نهاية حكم أمنحات الثالث (نحو ١٦٩٠-١٦٤٢) تدور في الفلك المصري السياسي. وقد وصلنا من عهد أحد الفراعنة في هذه الأسرة أجمل قصة فيها أقدم وصف رائع للحياة الاجتماعية وأنظمتها في المنطقة. تلك هي قصة سنوحي.

قصة سنوحي:

كان مؤلف هذه القصة أحد أمراء القصر المصري واسمه سنوحي، الذي وجد من الحكمة عندما تسنم سنوسرت الأول (نحو ١٨٠٠) عرش مصر أن يهرب من البلاد إلى مكان ما في بلاد رتنو[2] حيث عاش بين البدو سنين عديدة استدعي للرجوع إلى القصر الملكي. وعندما رجع إلى وطنه كتب مذكراته بقالب شعري. لما غادر مصر هارباً أجاره

١- د. فيليب حتي: تاريخ لبنان، ترجمة أنيس فريحة، مراجعة د. نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ص ٨٥- ٨٨.

٢- لفظة مصرية لكلمة سامية غامضة الاشتقاق كانوا يطلقونها على سوريا عامة.

شيخ بدوي بالقرب من الحدود المصرية وخلصه من الموت جوعاً. فكان يعطيه حليباً ساخناً، وسمح له بالإقامة في قبيلته. وأخيراً وصل سنوحي جبيل ومال منها شرقاً إلى داخل البلاد إلى سهل البقاع كما يظهر من وصف الرحلة. وهنا استجار بشيخ قبيلة له اسم أموري وأقام عنده وأصبح كواحد من أهل البلاد. ويظهر أنه كان بطلاً مغواراً يحب الحرب والغزو فأخذ يقوم بالغارة تلو الغارة على القرى المجاورة فيطارد رعاتها غانماً أنعامها ويعود بعدد من الأسرى. وكان في صيده يستخدم الكلاب، وكان يستضيف الضيوف على طريقة شيوخ البدو. وكان يسقي العطشان، ويهدي ضال السبيل. وقد قام سنوحي ضيف البلاد، بدعاية واسعة النطاق لبلاده مصر. ولكن يظهر أن مضيفه الشيخ لم يكن على استعداد للتخلي عن حريته واستقلاله. وقد تزوج سنوحي من بنت الشيخ الكبرى فأقطعه حموه أرضاً طيبة تصلح للزرع والرعي. يقول عن أرضه: «فيها التين والعنب، وخمرها أكثر وفراً من الماء. فيها العسل الكثير والزيتون الوفير. فيها من جميع الثمار، وفيها الحنطة، وماشيتها لا يعرف لها عد». ويصف لنا فارساً جباراً عنيداً من أهل رتنو دعاه إلى المبارزة.

ويقول إن الخنجر والرمح والفأس والقوس والنبال استعلت في القتال. وكان الرجال يهتفون لسنوحي، وكانت النساء يزغردن له، فخرج من المبارزة منتصراً. وأخيراً، عندما تقدم سنوحي في السن شعر بحنين شديد إلى موطنه الأول. وكان يغتم عندما تراوده الفكرة بأنه سيدفن في أرض غريبة ويكفن بجلد الغنم. فأقام ابنه الأكبر وصياً ووكيلاً على ممتلكاته وعاد «غير نادم على كثبان الرمل فهي لأصحابها ينعمون بها، وغير آسف على أشجار الزيتون فهي لأصحابها وزيتها لهم يتمسحون به». أما هو فعائد إلى موطنه حيث يمكنه أن يتمتع بحمام وينام على فراش وثير.

مصر تحت حكم ملوك الرعاة (الهكسوس):

عند أواخر القرن السابع عشر انقطعت هذه الصلات بين مصر ولبنان وذلك بسبب ظهور شعب محارب قوي مجهول الأصل اجتاح أولاً القسم الأكبر من سوريا ثم انحدر جنوباً واحتل مصر وسادها بقوة السلاح. هؤلاء هم الهكسوس وهذا الاسم مصري الأصل معناه في لغتهم «أسياد أو حكام البلدان الأجنبية». ولكن أول من استعمل هذا اللفظ في كتابته مؤرخ مصري كتب باليونانية. وقد فسر الاسم على أنه يعني «الملوك الرعاة».

كـان الهـكـسوس شـعباً مزيجـاً في أكثـره سـامي العـرق (يـشمل الـكنعـانـين والأموريين والعرب). غير أن هذا المزيج السامي من الشعوب داخلته عناصـر غير سـامية من الحوريين والحثيين والميتانيين. وقد تكامل هذا الخليط من الناس في شـرقي حوض المتوسط، الذي كان أشبه ببوتقة تتصهر فيها جميع العناصر فتفيض من على جوانبها فيـضاً يطغـى علـى مـا يجاورهـا مـن بلـدان، وعنـدها طغـت إحـدى موجاتـه فأوصـلت الهكسوس إلى وادي النيل. وقد كان من جملتهم بعض قبائل «الخبيرو»[1] ومما يعـزز الرأي أن العنصر في هذا الخليط من الشعوب كان العنصر الكنعاني أسماء قوادهم وأمرائهم التي أبقوها لنا محفورة على التعاويذ والتمائم المصرية (بشكل الخنافس الـتي كانت عند المصريين رمـز الخلود). وقد وجدت آثار هكسوسية متباعدة مثل جزيرة كريت حيث عثر هناك على مزهرية عليها اسم ملك من ملوكهم. وكانت آلهتهم آلهة كنعانيـة. وقـد كانـت هـذه الموجـة الـتي انتشرت في الـشرق الأدنـى الـسبب في إدخـال عناصر بشرية غير سامية إلى كل من لبنان وفلسطين.

أدخل الهكسوس الحصان إلى هذه المنطقة، ولم يكن استعماله للركـوب بقـدر ما كان يستخدم في جر العربات الحربية. وقد دجّن الحصان في أزمنـة بعيـدة في منـاطق شرقي بحر قزوين على أيـدي القبائل الهندوأوروبيـة البدويـة، ومـن هنـاك انتقل إلى بـلاد ما بين النهرين فسوريا ومن ثم دخل إلى الجزيرة العربية قبل التاريخ الميلادي.

ومما لا شك فيه أن الحصان كان عاملاً أساسياً في انتصار الهكسوس الحربـي وسـيطرتهم علـى شـعوب سـوريا ولبنـان وفلـسطين. وقـد أدخـل الهـكسوس، فـضلاً عـن الحصان، الـسيوف الحديديـة المقوسـة والقـوس المزدوج الـذي ظهـر أول مـا ظهـر في بـلاد بابـل. وممـا زاد في تفـوقهم الحربـي اسـتخدامهم البرونـز في صـنع أسـلحتهم. وقـد تقـدمت الصناعات المعدنية في هذه الفترة تقدماً كبيراً، كما أن صناعة الخزف خطت خطوات كبيرة إلى الأمام. وقد كانت عاصمتهم في سوريا قطنة (مشرفة) الواقعـة شمـالي شـرق حمص في اتجاه الجزء الشمالي من البقاع.

١- قد تكون قبائل الجيرو هي جماعة العبرانيين عندما كانوا بدواً في شمال الجزيرة العربية قبل دخولهم فلسطين.

كان الهكسوس في جميع البلاد التي أخضعوها لسلطانهم أسياداً إقطاعيين ولكنه كان نظاماً إقطاعياً غير محكم التنظيم. فقد كانت هنالك طبقة أرستقراطية تتألف في معظمها من فرسان أقوياء يملكون أدوات الحرب - المركبات والجياد - استأثرت بالقوة والسيطرة. إن النظام كان عسكرياً بحتاً. ومعنى هذا أن نظاماً عسكرياً أجنبياً حل محل النظام الأرستقراطي الكنعاني كان يقوم على التجارة. وقد دامت سيطرة الهكسوس السياسية والثقافية على هذه المنطقة قرابة قرن ونصف، كانت نهايتها نحو ١٥٧٠ق.م. وفي مصر اعتبر الهكسوس إلهم السامي البعل على إنه واحد مع الإله المصري «ست» أي أنهم دمجوا العبارتين في عبارة واحدة وأورثوها الفراعنة المصريين الذين خلفوهم بعد جلائهم عن مصر.

ويرجح أن إقامة اليهود العبرانيين في مصر كانت أثناء هذا الاحتلال الهكسوس لمصر. وبعد أن كان قد مر على السيادة الهكسوسية البغيضة في مصر قرابة ٣٠ سنة (١٦٠٠-١٥٧٠) بدأت الحرب لتحرير البلاد من نير حكمهم بقيادة أحمُس الأول (١٥٧٠-١٥٤٥) الذي كان أميراً من أمراء الجنوب في مدينة طيبة. وقد كان هذا الأمير مؤسس الأسرة الثامنة عشرة التي كانت بدء عهد جديد: المملكة الجديدة أو الإمبراطورية المصرية. وقد كان لطرد الهكسوس من وادي النيل ردة فعل عنيفة تجاوبت أصداؤها بين شعوب غربي آسيا تفوق في أثرها ردة الفعل التي أحدثتها سيطرة الهكسوس على هذه المنطقة. إذ إن طردهم من مصر كان فاتحة عهد جديد لها. فقد شرع المصريون المسالمون بعزم وجرأة في سيرهم التوسعي الاستعماري. ذلك أنهم لم يكتفوا بطرد الأجنبي من بلادهم إلى خارج الحدود، بل صمموا على متابعة الجيش المنهزم إلى عقر دارهم. وهذا ما دفع بالمصريين إلى دخول فلسطين ولبنان. فإن أحد فراعنتهم، تحوتمس الأول، سار عبر المنطقة كلها، نحو ١٥٢٠، حتى وصل الفرات، البلاد التي سماها «بلاد ما بين النهرين». وهكذا كانت الحملات العسكرية التي قادها أحمُس الأول ومن بعده خلفاؤه في حوض البحر المتوسط الشرقي بداية سياسية مصرية خارجية جديدة في هذه المنطقة أما الضربة القاصمة النهائية التي قضت على دولة الهكسوس في سوريا، فقد قام بها تحوتمس الثالث (نحو ١٤٩٠-١٤٣٦) وبذلك أحل السيادة المصرية على هذه المنطقة محل الإقطاع الهكسوسي[1].

١- المرجع السابق، ص ٩٠- ٩٢.

ضم لبنان إلى الإمبراطورية المصرية:

هذا الفاتح المصري العظيم تحوتمس الثالث، ضم إلى إمبراطوريته الناشئة لبنان وسوريا بأكملها. ولكن لم يتم له ذلك إلا بعد أن قام بأكثر من ست عشرة حملة عسكرية. وقد توطدت أركان السيادة المصرية على هذه البلاد طوال قرن من الزمن. وكان سقوط مجدو، المدينة الكنعانية، نحو ١٤٦٨ نذيراً بسقوط فلسطين جميعها وضمها إلى الإمبراطورية المصرية. وقد كانت معركة مجدو فاصلة إذ فيها استطاع الجيش المصري أن يسحق تحالفاً عسكرياً بين ٣٣٠ أمير سوري على رأسهم أمير قادش على العاصي، ومن جملتهم نخبة من أرستقراطي الهكسوس. وتابع تحوتمس انتصاراته فلحق بالجيش المنهزم شمالاً مسافة ٧٥ ميلاً إلى أن وصل لبنان الجنوبي ففتح عنوة ثلاث مدن وبنى هناك قلعة مصرية. «في بلاد الأمراء اللبنانيين» ويبدو أن هذه المدن كانت تؤلف وحدة سياسية متحدة يرأسها أمير واحد لم يذكر لنا المصريون اسمه بل كانوا يشيرون إليه بقولهم: «ذلك العدو». وفي قائمة الغنائم والأسلاب التي غنمها المصريون يذكر لنا كاتب النقوش المواعين والآنية والمدى والقدور المذهبة والأساور الذهبية والفضية والتماثيل الصغيرة التي تركها المقاتلون في ساحة الحرب. وكانت هذه الحملة حملة تحوتمس الأولى. وفي الحملة الخامسة استولى على أرواد في أقصى شمال فينيقيا. وقد أصبحت هذه الجزيرة الصغيرة خليفة جبيل كميناء تجاري. وفي حملات عسكرية تالية استولى المصريون على مدينة سميرا Simyra جارة أرواد على الشاطئ إلى الشمال قليلاً. وكانت هذه المدينة تابعة أحياناً لأرواد[1].

الميتانيون والحثيون:

نعم، إن النفوذ المصري لم يزدد في منطقة حوض المتوسط الشرقية ولكن سكانها ظلوا يشعرون بالسيطرة المصرية وبالمركز الممتاز الذي كانت تتمتع به مصر إلى أن بدأ ظل المملكة الجديدة يتقلص وذلك عند نهاية القرن الرابع عشر. ولم ينجُ من الوقوع تحت هذه السيطرة سوى مملكة ميتاني في سوريا التي كانت عاصمتها على الخابور عند منحنى الفرات الكبير. أما الحوريون الذين كانوا يؤلفون جزءاً كبيراً من

١- المرجع السابق، ص ٩٤- ٩٥.

مجموعة الشعوب التي سميناها (الهكسوس) فقد كانوا أكثرية سكان البلاد. غير أن أمراءهم وارستقراطييهم كانوا من الشعوب الهندوأوروبية كما يبدو واضحاً من دراسة أسمائهم وأسماء آلهتهم. وقد أزداد انتشار الحوريين في البلاد في هذه الحقبة التاريخية حتى أن المصريين أخذوا يسمون كنعان «خورو» (أو حورو).

وعلى الرغم من الحملات العسكرية المتتالية ضد بلاد ما بين النهرين (نهرين) التي بدأ فيها أحمس الأول وتكررت على يد تحوتمس الثالث وغيره من الفراعنة الذين خلفوه فقد ظلت مملكة ميتاني مستقلة خارج الفلك المصري. وعندما كان تحوتمس الثالث يستعد لإحدى غزواته عبر الفرات بنى لنفسه مراكب من خشب غابات الأرز في الجبال وراء جبيل ونقلها على مركبات تجرها الثيران إلى الفرات ليعبره إلى الشاطئ الثاني. وقد تمتنت عرى الصداقة بين العائلتين المالكتين، المصرية والميتانية، بالمصاهرة. فإن أم امنحوتب الثالث (نحو ١٤١٣-١٣٧٧) كانت أميرة ميتانية، وكذلك كانت إحدى زوجاته، واتخذ ابنه امنحوتب الرابع (نحو ١٣٧٧-١٣٥٨) زوجة لنفسه ميتانية هي ابنة الملك توشرتا. غير أن الميتانيين الذين كانوا ينظرون إلى الأمام إلى جيرانهم المصريين في سوريا نظرة مودة وإخاء فإن وراء ظهورهم كان يكمن عدو جديد من الشمال: الحثيون. فكأن جبال طوروس العالية لم تكن بحاجز يمنع هذا الشعب الناشئ من التطلع جنوباً إلى شمالي العراق وسوريا.

إن مجموعة الشعوب المختلطة التي نطلق عليها اسم الشعب الحثي ترجع نسبها إلى قبيلة مغمورة من قبائل الأناضول تعرف بقبيلة ختيّ. وكانت تقطن منطقة نهر هاليس واسمه الحالي (قزل أرمق). وقد أنشأت هذه القبيلة في أوائل القرن التاسع عشر مملكة كانت تشمل الأناضول وجزءاً لا يستهان به من شمالي العراق وسوريا.

ولا يختلف الحثي عن الحوري شكلاً وملامح. فإنه، كما يبدو من التماثيل، ذو رأس عريض وأنف أقنى وجبهة متراجعة وملامح وجه تشبه ملامح الرجل الألبي، وهو الشكل الذي لا يزال معروفاً في شرقي الأناضول وأرمينيا. وقد امتزج الحثيون في الأزمنة القديمة بالشعب الهندوأوروبي وقد عرفهم العبرانيون بالحثيين.

كان عصر الحثيين الذهبي أيام ملك الملك شبلو ليوما (نحو ١٣٨٠-١٣٥٥) الذي كان محارباً من الطراز الأول في الأزمنة القديمة. فقد هاجم هذا الملك توشرتا الميتاني

وتابع غزواته ضد ابنه (ابن توشرتا). وبذلك استطاع أن يقوض أركان المملكة الميتانية، وبتقويضه ملك الميتانين أنشأ لنفسه مرتكزاً في شمالي سوريا اتخذه فيما بعد نقطة انطلاق. وهكذا وجد نفسه وجهاً لوجه أمام فراعنة مصر. ولم يعتم أن ضم إلى ملكه القسم الشمالي من فينيقية حتى جبيل جنوباً، وبذلك استولى على مدينة أوغاريت التي كانت في تلك الحقبة المدينة المستقلة الأولى في المنطقة. فأسرع أميرها نقمد وعرض عليه الجزية. وقد خلف الملك شبلو ليوما بعد موته مملكة متسعة الأرجاء عاصمتها كركميش (جرابلس الحالية) على الفرات جنوبي جبال طوروس، وأصبحت تعتبر أقوى دولة في غربي آسيا. وهكذا وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام دولة جديدة تتحدى سلطتها في المنطقة[1].

غير أنه طرأ في هذه الأثناء تغيير جذري في الخريطة السياسية لهذه المنطقة. فقد ظهر شعب سامي جديد: الآراميون. وهؤلاء كانوا شعباً من الشعوب السامية التي كانت تتوطن الصحراء، ولكنهم اتخذوا في هذه الحقبة سوريا الداخلية موطناً جديداً لهم. وكانت دمشق عاصمتهم ومركز الثقل. كما ظهر شعب سامي جديد آخر، وهم العبرانيون، الذين اجتاحوا جنوبي سوريا الذي عرف فيما بعد بفلسطين. أما من جهة البحر، فقد ظهر شعب غريب، لا ينتمي إلى العرق السامي، بل إلى مجموعة الشعوب التي تعرف بالشعوب الهندوأوروبية (شعوب البحر) هؤلاء هم الفلسطينيون الوارد ذكرهم كثيراً في التاريخ العبري، كما هو مدون في أسفار العهد القديم. وقد كانوا شعباً بحرياً اجتاح الشاطئ الفلسطيني وخربه واحتل الجزء الجنوبي منه إلى رفح. وبظهور هذه الشعوب الثلاثة الجديدة فقد المصريون في الجنوب والحثيون في الشمال الدور الذي قاموا به من قبل، ولم يعد لهم تأثير في الشؤون اللبنانية[2].

في هذه الأثناء كانت الممتلكات المصرية والحثية على تأخر مستمر، ولم يعد قد أشرق بعد نجم الدولة الآشورية. فأتاحت الأحوال فرصة ذهبية للفينيقيين لتوطيد استقلالهم. ففي القرون الثلاثة الواقعة بين ١٢٠٠-٩٠٠ق.م. شهدت فينيقيا فترة سلام واستقرار وتمتعت بحكم مستقل ولم تعترف بسيادة دولة غريبة على أراضيها[3].

١- المرجع السابق، ص ٩٦- ٩٧.

٢- نفس المرجع، ص ١٠٨- ١٠٩.

٣- نفس المرجع، ص ١١٤.

عصر الاستقلال:

كان لغزو «شعوب البحر» في نحو ١٢٠٠ق.م. أثر مباشر في بعض مدن الساحل: دمار أرواد وكذلك صيدا على ما ذكره جوستين، وقد أثبتت ذلك الاكتشافات الأثرية. غير أن الوضع السياسي والعسكري تميز ببداية عهد من الاستقلال. فقد ظلت الدول العظمى غير فاعلة في المنطقة السورية - الفلسطينية بعضاً من الوقت: أشور قابعة وراء حدودها ومصر منهزمة، الدولة الآرامية والعبرية مزدهرة والمدائن الفينيقية محصورة في الساحل بين الجبل والبحر.

كانت كبريات المدن الفينيقية في هذه المرحلة أرواد وجبيل وصيدا وعكا (بيروت لم يرد لها ذكر إلا في الحقبة الفارسية). ثمة دلائل مختلفة تشير إلى سيطرة صيدا على المدائن الأخرى في مبدأ الأمر. ولنبدأ بهذه الأخيرة: استعمل اسم الصيدونيين كل من العهد القديم وهوميروس للدلالة على الشعب الفينيقي كله، ثم اقتصر على مدينة بعينها، وهي مدينة صيدا. ينطوي هذا الاستعمال إما على سيادة صيدا على سائر المدن الفينيقية، وإما - وهذا وارد على وجه الخصوص - للدلالة على وحدة نسبية فيما بين هذه المدن، حتى ولو كانت ناتجة تحت تأثير قوى خارجية أكثر منها داخلية.

الدليل الآخر على سيادة مدينة صيدا الرواية التي نقلها يوسفوس عن تيماوس - قبل أربعين سنة ومائتين من تشيد هيكل أورشليم، أي بعد قليل من عام ١٢٠٠ق.م. وقد جاء فيها: «إن أهالي صيدا، بعد أن هزمهم ملك العسقلانيين (وربما شعوب البحر)، لاذوا بالفرار في سفنهم وأسسوا مدينة صور. الرواية غير دقيقة، لأن مدينة صور كانت موجودة قبل ذلك بكثير. لكن قد يكون لهذه الرواية أساس تاريخي كأن يكون جماعة من أهالي صيدا انتقلت إلى منطقة صور تحت وطأة «شعوب البحر»، ثم عادت إلى صيدا بعد أن قام بنهبها الغزاة. على كل حال، تتفق مختلف المصادر على أن العهد الصوري قد بدأ في نحو ١٢٠٠ق.م، على حين دامت سيادة صيدا على سائر المدن الفينيقية ربما حتى نحو ١٠٠٠ق.م. وبعد هذا التاريخ زادت أهمية صور وسادت.

تدل مختلف الوقائع على أن انهيار الحكم المصري، الذي دامت سيطرته على المنطقة قروناً، قد حصل في نحو ١١٠٠ق.م. في هذه الحقبة قاد الملك الآشوري تغلات فلاصر الأول (١١١٢-١٠٧٤) حملة على سوريا العليا وجبى الجزية من أرواد وجبيل وصيدا:

«إلى جبل لبنان ذهبت. جذوع الأرز لمعبد آنو».

«وحدو، الإلهين العظيمين، ربي،».

«قطعت ونقلت. إلى عمورو عدت عمورو».

«بكاملها غزوت. الجزية من جبيل وصيدا و».

«أرواد استلمت.؟ عبرت بسفن أرواد».

«من أرواد القائمة عند شاطئ البحر إلى».

«حيث سيميرا في بلاد عمورو... قتلت».

«نهير والذي يسمونه فرس البحر في عباب اليم».

واضح من هذه الرواية أن الغرض من بعثة تغلات فلاصر الأول هو الحصول على خشب الأرز، إذ لا يرد ذكر لمعركة. أما «الغزو» و «الجزية» فاصطلاحان قد يستعملان للدلالة على رابطة تجارية. وأما قتل الدلفين فيشعرنا برحلة صيد سمك نظمتها المدن الفينيقية تكريماً لضيفهم العظيم.

ثم أن الوضع السياسي في ذلك الزمان ما كان ليسمح لتغلات فلاصر الأول بأن يحتفظ بسيطرته على سوريا مدة طويلة، بينما تثبت حروبه مع ولايات الدجلة العليا والقبائل الآرامية الآتية من الحدود الغربية أنه لم يكن يومئذ يسيطر على الطرق المؤدية إلى سوريا.

لدينا دليل آخر، وهو دليل مهم، على استقلال الدويلات الفينيقية (ولا سيما عن مصر)، وهو حكاية «وينامون». تروي لنا هذه الحكاية الاستقبال المهين الذي استقبل به أمير جبيل موفد حاكم مصر الذي أرسله هذا الأخير للحصول على خشب الأرز يصنعون منه القارب المقدس للإله آمون. يقول الأمير الفينيقي مشيراً إلى حاكم مصر: «ولا أنا خادم لمن أرسلك».

كذلك نجد في جبيل، في القرن العاشر، نقوشاً وجيزة تشتمل على أسماء الحكام الذين تعاقبوا على حكم المدينة وهم: أحيرام، إتوبعل، بيبعل، يحميليك، شيفتبعل. والنقش الخاص بأحيرام محفور على تابوته، أما النقوش الأخرى فعبارات تدشين نجدها على مبان أو تماثيل أضيفت إلى تعاويذ تلتمس الحماية الإلهية.

فالحروف المستعملة في هذه النقوش، وكذا اللغة، وصلة القرابة فيما بين الحكام التي توحي بها النقوش، لا جدال في أنها تجعل منها مجموعة متجانسة

يمكننا تعيين أزمنتها بالاستدلال من أن أثنين منها، أحدهما لشنوق الأول (٩٥٠-٩٢٩) والثاني لأوسركون الأول (٩٢٩-٨٩٣)، ترتيباً. أما تابوت أحيرام الذي يحمل أقدم النقوش فيجب أن يكون أقدم بقرنين، وربما كان النقش نتيجة لمزيد من الاستعمال. على هذا يمكن ترميم تعاقب هؤلاء الحكام وأزمنتهم على النحو التالي:

نحو ١٠٠٠ق.م	أحيرام
٩٨٠	إتوبعل
٩٤٠	أبيبعل
٩٢٠	يحميليك
٩٠٠	إيليبعل
٨٨٠	شيفيتبعل

الجديد بالملاحظة أن يحيميليك، من دون سائر الحكام، لا يذكر اسم أبيه، مما يحملنا على الظن أنه مؤسس لأسرة ملكية جديدة. وكان هؤلاء الحكام يلقبون بـ «ملك جبيل»، وهو ما يشعرنا باستقلالهم. ولقد ثبت (أثبت ذلك هيرمان) أن النقوش صيغت على نحو يوحي باستقلال تام عن مصر. فاستخدام أبيبعل وإيليبعل لتماثيل الفراعنة لكي يحفروا عليها نقوشهم، وتخصيصها لإلهة جُبيْل ربما كان دليلاً على علاقة طيبة مع جيرانهم الأقوياء. لكن ما لم يستطع هيرمان إثباته نظريته المتعلقة بتوسع حكام جبيل إلى الأقاليم المحيطة وسيطرتهم على المنطقة الفينيقية التي آلت فيما بعد إلى مدينة صور.

كان الفلسطينيون والعبرانيون الأعداء المباشرين لتوسع المدن الفينيقية في المنطقة. عن علاقتهم مع الأولين لا نملك شيئاً سوى تدمير مدينة صيدا على أيدي العسقلانيين. وعن علاقتهم مع العبران يمدنا كتاب «العهد القديم» بمعلومات وافية أثبتت صحتها حوليات صور.

ومن الممكن أن يكون داود (نحو ١٠٠٠-٩٦١) قد ضم جزءاً كبيراً من الساحل الفينيقي عندما وسع دولته: على الأقل الرواية الكتابية[1] عن الإحصاء السكاني الذي أمر به الملك، تحكي أن مبعوثيه أتوا إلى جلعاد وإلى أرض تحتيم ثم أتوا إلى دان يعن

١- نسبة إلى الكتاب المقدس.

واستداروا إلى صيدون. ثم أتوا حصن صور وجميع مدن الحويين والكنعانيين ثم خرجوا إلى جنوبي يهوذا إلى بئر سبع (صموئيل الثاني ٢٤ : ٦-٧). واضح أن هذه المقطع قد يفسر على أوجه مختلفة والنص غير يقيني، لكنه مع ذلك يعطينا فكرة عن امتداد دولة داود. أما صور، وكانت أكبر المدن الفينيقية، فقد ظلت مستقلة، كما تشعرنا بذلك رواية الملك حيرام الذي أرسل إلى داود الصناع وخشب الأرز لكي يبنوا له قصره[1].

في أيام الملك سليمان (٩٦١-٩٢٢) توفر لدينا مزيد من المعلومات. في تلك الأيام ربما كان حيرام أو أحيرام مازال يحكم مدينة صور ما بين ٩٦٩ و ٩٣٦ق.م. وتنبئنا الحوليات أنه وسع المدينة، ونصب عموداً من ذهب في هيكل زيوس أولمبوس (الإله بعل شميم)، ووصل الجزيرة التي يقوم عليها هيكل ملكارت بجزيرة صور الكبرى، وشيد هياكل جديدة لهرقل (ملكارت) وأستارت[2].

والحرب الوحيدة التي جاءت الحوليات على ذكرها هي الحملة التي جهزها أحيرام لتأديب أهالي كتيون، وهي المتعمرة الفينيقية في جزيرة قبرص، لأنهم امتنعوا عن دفع الجزية. (اسم أهالي المستعمرة غير أكيد، لكن هذا التفسير يبدو لنا أكثر احتمالاً من النظرية التي تذهب إلى أنهم أهالي أوطيقا البعيدة).

وكانت علاقته مع سليمان طيبة، وقد أقنعه هذا الأخير بتزويده بالمواد اللازمة والصناع لبناء هيكله وقصره. وقد تدلنا هداياه السخية على استقلال كل من الملكين عن الآخر.

لقد أصبح لدينا الآن، ولأول مرة، روايات تاريخية عديدة تستحق منا أن نفحصها بالتفصيل. وفقاً للحوليات:

«أتم سليمان هذه الأعمال في عشرين سنة، وبما أن حيرام ملك صور قد ساهم في تشييدها بكثير من الذهب والفضة، كما ساهم بخشب الأرز وشجر الصنوبر، فهو أيضاً قدم إلى حيرام هدايا ثمينة، فقد كان يرسل إليه في كل سنة حباً وخمراً وزيتاً كان دائماً بحاجة إليها، لأنه كما سبق وقلنا كان يسكن في جزيرة».

١- يجب أن ننتبه إلى أنه لم يكن حتى الآن التثبيت من رواية التوراة حول الملك داود وابنه سليمان، وحول مملكتهما الواسعة الأرجاء.

٢- سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية، مرجع سابق، ص ٣١- ٣٣.

وها هي ذي الرواية الكتابية، التي لم تزل أشمل، وتبين مقدار رسوخ العلاقة بين الملكين:

«وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكاً مكان أبيه لأن حيرام كان محباً لداود كل الأيام. فأرسل سليمان إلى حيرام يقول أنت تعلم داود أبي أنه لم يستطع أن يبني بيتاً لأسم الرب إلهه بسبب الحروب التي أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه. والآن فقد أراحني الرب إلهي من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر. وها أنذا قائل على بناء بيت لأسم الرب إلهي كما كلم الرب داود أبي قائلاً إن ابنك الذي أجعله مكانك على كرسيّك هو يبني البيت لأسمي. والآن فأمر أن يقطعوا لي أرزاً من لبنان ويكون عبيدي مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين.

فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جداً وقال مبارك اليوم الرب الذي أعطى داود ابناً حكيماً على هذا الشعب الكثير. وأرسل حيرام إلى سليمان قائلاً: سمعت ما أرسلت به إلي. أنا أفعل كل مسرتك في خشب الأرز وخشب السرو. عبيدي ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله إرماثاً في البحر إلى الموضع الذي تعرفني عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله وأنت تعمل مرضاتي بإعطائك طعاماً لبيتي. فكان حيرام يعطي سليمان خشب الأرز وخشب حسب كل مسرته. وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف كُرّ حفظه طعاماً لبيته وعشرين كرّ زيت رضّ. هكذا كان سليمان يعطي حيرام سنة فسنة» (الملوك الأول ٥: ١-١١).

إن استقلال المملكتين، إحداهما عن الأخرى، واعتماد كل منهما على الأخرى، الذي يظهر في هذا المقطع من سفر الملوك، يؤكده مقطع آخر جاء في سفر الأخبار، كما تؤكده وقائع أخرى كحادثة رفض حيرام عدداً من المدن أهداها إليه سليمان. تقول الحوليات: «بالإضافة إلى ذلك، أهدى إليه بعض مدن الجليل، وكانت عدتها عشرين مدينة، لا تبعد عن صور كثيراً. لكن حيرام عندما ذهب ونظر إليها لم تعجبه وابلغ سليمان أنه لا يجد مصلحة له في المدن»[1]

١- حوليات صور كما اختصرها وقدمها «يوسيفوس» المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الأول بعد الميلاد لا يمكن الركون إليها كمصدر تاريخي لأن أصولها مفقودة أو غير موجودة أصلاً.

الرواية ذاتها نجدها في «الكتاب المقدس»: «وبعد نهاية عشرين سنة بعدما بنى سليمان البيتين بيت الرب وبيت الملك. وكان حيرام ملك صور قد ساعد سليمان بخشب أرز وخشب سرو وذهب كل حسب مسرته. أعطى حينئذ الملك سليمان حيرام عشرين مدينة في أرض الجليل. فخرج حيرام من صور ليرى المدن التي أعطاها إياها سليمان فلم تحسن في عينيه. فقال ما هذه المدن التي أعطيتني يا أخي ودعاها أرض كابول إلى هذا اليوم. أرسل حيرام مئة وعشرين وزنة ذهب». (الملوك الأول ٩: ١٠-١٤).

هذا، وإننا لنجد في حوليات صور حادثة ممتعة، تروى على الطريقة الشرقية المعتمدة في الحكايات، يجدر بنا ملاحظتها: مبارزات الحكمة بين حيرام وسليمان. على الرغم من أن «الكتاب» لا يذكر هذه الحكاية، إلا أنه يلقي توكيده طبعاً على حكمة الملك سليمان. تقول الحوليات إن حيرام أرسل إلى سليمان مسائل وألغازاً، طالباً إليه أن يحلّها. نجح سليمان في حلها جميعاً بما عرف عنه من حكمة بالغة. لكن هذه الحكاية يرويها المؤرخ «ديو» Dio، وقد جاء ذكرها في:

Contra Apionem مع اختلاف: أرسل سليمان ألغازاً إلى حيرام وطلب إليه أن يرسل ألغازاً أخرى في المقابل: وعلى من لا يوفق في حلها أن يدفع مبلغاً من المال. قبل حيرام بالشرط. لكنه في بادئ الأمر لم يستطع أن يحل شيئاً من ألغاز سليمان، فاضطر إلى إنفاق معظم ثروته في تسديد الغرامات التي ترتبت عليه من جراء ذلك. إلا أنه استطاع في آخر الأمر أن يجيب عن المسائل وان يطرح على سليمان مسائل من عنده. فلما عجز سليمان عن حلها أعاد إلى حيرام كل ما كان أخذ منه وزاده مبلغاً آخر[1].

ثم هناك البعثة البحرية إلى بلاد «أوفير» Opgir، التي أعد لها وقام بها الملكان، على حد رواية «الكتاب المقدس»: «وعمل الملك سليمان سفناً في عصيون جابر التي بجانب أيله على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم. فأرسل حيرام في السفن عبيده النواتي العارفين بالبحر مع عبيد سليمان فأتوا إلى أوفير وأخذوا من هناك ذهباً أربع مئة وزنة وعشرين وزنة وأتوا بها إلى الملك سليمان». (الملوك الأول ٩: ٢٦-٢٨).

١- المرجع السابق، ص ٣٤- ٣٦.

ويروي مقطع آخر مزيداً من التفاصيل:

«وكذا سفن حيرام التي حملت ذهباً من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيراً جداً وبحجارة كريمة» (الملوك الأول ١٠: ١١). «لأنه كان للملك في البحر سفن ترشيش مع سفن ترشيش مع سفن حيرام. فكانت سفن ترشيش تأتي مرة في كل ثلاث سنوات أتت سفن ترشيش حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس» (الملوك الأول ١٠: ٢٢).

تعطينا هذه المقاطع فكرة عن النفوذ البحري الذي كان يتمتع به الفينيقيون: فقد كانوا في القرن العاشر يقومون برحلات طويلة، وكان لهذا أهمية كبيرة في توزعهم البحري في القرون التالية. وأوفير تقع في اليمن، أو في الصومال، وقد ظهر تعبير «ذهب أوفير» على اوستراكا، أو استراكون[1] عبري وجد في تل قصيل. لكن مشكلة ترشيش أكثر تعقيداً، لأنها قد تكون Tarttesus المعروفة في المصادر الكلاسيكية، والواقعة في جنوبي أسبانيا، مما يعطي بعداً مهماً للتوسع الفينيقي، حتى وإن كان لاصطلاح «أسطول ترشيش» معنى عام (أسطول يقطع المحيط).

تنبئنا حوليات صور بالملوك الذين خلفوا حيرام: بعليازر الذي عاش ثلاثاً وأربعين سنة وحكم سبع عشرة سنة (٩٣٥-٩١٩)، وعبد استراتوس الذي عاش تسعاً وعشرين سنة، وحكم تسع سنوات (٩١٨-٩١٠)، وقتل على أيدي أولاد مربيته. وكان أول من حكم من هؤلاء ماثيو استراتوس الذي عاش أربعاً وخمسين سنة وحكم اثنتي عشرة سنة (٩٠٩-٨٩٨)، ثم خلفه استماريموس الذي عاش ثماني وخمسين سنة وحكم تسع سنوات (٨٩٧-٨٨٩). ثم جاء فيليس، الذي قتل أخاه، وعاش خمسين سنة وحكم ثمانية أشهر فقط (٨٨٨). وقد ثار على فيليس أحد كهنة عشتارت، واسمه إيتو بعل الذي عاش ثماني وستين سنة وحكم اثنتين وثلاثين سنة (٨٨٧-٨٥٦)، مبتدئاً بذلك عهد أسرة جديدة قدّر لها أن تدوم قرناً على الأقل[2]. وقد صاحب هذه الحقبة التي تميزت بالفتن والحروب الأهلية وانتهت بصعود إيتو بعل، الذي عاش حقبة مظلمة أيضاً في فلسطين حيث انقسمت المملكة ودبّ الشقاق في البلاط. كذلك رافق صعود إيتو بعل في صور

١- الاستراكون Ostrakon قطعة من فخار منقوش عليها كتابة.

٢- نفس المرجع ص ٣٦- ٣٨.

صعود «عمري» في فلسطين، وتأسيس أسرة مالكة جديدة دامت بضعة عقود من السنين، واستئناف لعلاقات المودة بين الدولتين. هنا نعود ثانية إلى روايات «العهد القديم» الذي يحكي لنا زواج أخاب بن عمري من إيزابل ابنة ايتو بعل. ولعل هذا الزواج قد مدّ من النفوذ السياسي حتى بلغ الساحل الفينيقي، وفي الوقت نفسه زاد من تأثير الديانة الفينيقية في نفوس اليهود، كما نرى ذلك في شجب الكتاب المقدس. «وعمل أخاب بن عمري الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله. وكأن كان أمراً زهيداً سلوكه في خطايا يربعام بن نباط حتى اتخذ إيزابل ابنة أبتعل ملك الصيدونيين امرأة وسار وعبد البعل وسجد له. وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة (الملوك الأول ١٦: ٣٠-٣٢). فإذا علمنا أيضاً أن عتليا ابنة إيزابيا تزوجت من يورام ملك اليهودية، أتضح لنا مدى انتشار العقائد والنحل الفينيقية في أوساط الشعب اليهودي. القوة التي بلغتها صور في عهد ايتو بعل تؤكدها دلائل عديدة. ففي الكتاب المقدس يشار إليه على أنه «ملك الصيدونيين» (الملوك الأول ١٦: ٣١)، بينما يدعى حيرام «ملك صور». إن هذا ليس من قبيل المصادفة، فيوسفوس يشير إلى أيتو بعل على أنه «ملك صور وصيدا» الأمر الذي يؤكد مدى ما بلغه سلطانه على المنطقة الفينيقية. كذلك يروي لنا يوسفوس عن قيام هذا الملك بتأسيس مدينة «بوتريس» إلى الشمال من جبيل، ومستعمرة «أوزا» في ليبيا. ولما كانت بوتريس تعرف باسم «بترونا» (البترون) في رسائل تل العمارنة، كان لا بد لها من أن تكون قد أعيد بناؤها ثانية، أو قد جرى تحصينها من قبل ايتو بعل، تماماً مثلما قام الصيدونيون بتحصين مدينة صور من قبل، مما يعطينا فكرة عن المدى الذي بلغه سلطان هذا الملك. أما «أوزا» فلم يمكن تعيين موقعها على الخارطة الليبية حتى الآن، لكن هذا لا يقلل من القوة التي بلغتها مدينة صور في ذلك الزمان[1].

التوسع الآشوري:

تعد عودة أشور إلى القوة وتوسعها المطرد في الشرق الأدنى القديم علامة على انتقاص استقلال المدائن الفينيقية. فإذا كانت آيات الولاء ودفع الجزية المذكورة تكراراً تنطبق على غارات عارضة، وكان تكرار الحملات الآشورية لم يكن إلا

١- نفس المرجع، ص ٣٨- ٣٩.

لتحقيق أهداف مؤقتة، فإن هذه الحملات قد بدلت جذرياً من توازن القوى الذي قوى استقلال المدائن الفينيقية في ظله. إلى هذا يجب أن نضيف الانهيار التدريجي الذي تعرضت له الدويلات الآرامية والعبرية التي كانت تشكل حداً داخلياً للمدائن نفسها وشريطاً وقائياً بين فينيقيا والدول الكبرى.

كانت حملة تغلات فلاصر الأول، ويرجع أول ذكر لها إلى العام ١١٠٠، نذيراً بالتوسع الآشوري الذي ما أنفك يزداد باطراد بعد آشور بانيبال الثاني (٨٨٣-٨٥٩) تقول حوليات هذا الأخير: «سرت يومئذ محاذياً جبل لبنان، وطلعت إلى البحر الكبير في بلاد العموريين. في البحر العظيم غسلت أسلحتي، وقربت القرابين للآلهة. جبيت الجزية من ملوك الساحل، من أهالي صور وصيدا وجبيل ومخلاطا ومايزا وكايزا وعمورو وأرواد، التي تقع في وسط البحر. ذهباً وفضة ورصاصاً ونحاساً وآنية من برونز، وثياباً مصنوعة من صوف ملون، وثياباً من كتان، وحماراً كبيراً، وقرداً صغيراً، وخشب قيقب، وخشب بقس، وعاجاً، ونهيرو وهو من مخلوقات البحر، كل هذا أخذته جزية منهم، ثم عانقوا قدمي».

لعل تاريخ هذه الحملة يرجع إلى نحو ٨٧٥ ق.م، ويظهر أن المدن الفينيقية لم تبد مقاومة مسلحة، إذ لا يرد في الحوليات ذكر لقتال، ولعل هذا كان طابع السياسة التقليدية التي كانت تنتهجها الدول الصغيرة تجاه جاراتها من الدول القوية، إذ كانت تؤثر أن ترضي هذه الأخيرة عن طريق تقديم آيات الولاء ودفع الجزية. غير أن هذه الحملة تختلف عن حملة تغلات فلاصر الأول من حيث أن هذه الأخيرة كانت ترمي إلى إخضاع الملوك المحليين. أما المدن المذكورة فبعضها معروف مثل صور وصيدا وجبيل وأرواد، بينما المدن الأخرى مثل مخلاطا ومايز وكايزا غير معروفة. وكل محاولة تبغي إلى التعرف عليها تبقى مسألة نظرية (مخلاطا - طرابلس). أما عمورو فلا بد أنها كانت إقليماً ولا محل لها في هذه القائمة من المدن، ومن الممكن أن تكون اسماً آخر لمدينة: سيميرا.

ولعل من الممتع أن نتفحص الثروات التي قدمتها المدن الفينيقية جزية لملوك آشور. فالثياب المصنوعة من الصوف الملون تشعرنا بالصناعة المحلية الشهيرة التي تقوم على صبغ الملابس باللون الأرجواني، والصناعة الأخرى التي لا بد وإن كانت صناعة محلية

أيضاً هي صناعة الخشب والبرونز والعاج. أما الثياب الكتانية والذهب والقردة فمن مصر. وأما المعادن الأخرى كالنحاس فمن قبرص. ثم، إن القائمة التي اشتملت عليها الجزية دليل مهم على النمو التجاري في المدن الفينيقية على ما كان يصب فيها من منتجات الأقاليم المجاورة.

أن يكون استخدام الآشوريين لأخشاب فينيقيا في أغراض البناء، لأمر أكدته نقوش «بلاوات» Balawat التي توحي لنا أيضاً بأن الحملة كانت تجارية أكثر منها عسكرية: «سرت إلى جبيل لبنان وقطعت من غاباته عوارض الأرز والسرو والعرعر، بعوارض الأرز سقف هذا الهيكل، باباً من أوراق الأرز صنعت، وبأشرطة من نحاس حزمتها، وعلقتها في مداخله.

ثم، حتى في ظل أشور ناصر بال الثاني، تظهرنا مسلة وجدت في بلاد نمرود أن الصناع الفينيقيين القادمين من صور وصيدا كانوا من بين الذين استخدموا في تشييد القصر نفسه. وكما فعل سليمان من قبل، كذلك كان الآشوريون يستخدمون عمال فينيقيا المهرة في نطاق الاتفاقيات السلمية. على أن المعلومات تصبح أكثر وفرة في ظل شليمانصّر الثالث (٨٥٨-٨٢٤). فقد زحف هذا الملك الآشوري في مناسبات مختلفة على الدول الغربية (حماة ولا سيما دمشق)، ثم تابع زحفه إلى أبعد من ذلك حتى فرض الجزية على المدائن الفينيقية. وكانت الحملة التي ثبت اتصاله فيها مع الفينيقيين هي حملة السنة السادسة (٨٥٢) فالنقش المحفور على حجر كرخ Kurkh يبين قوام الجيش السوري مما كان يتألف: ١٠ مركبات و ١٠.٠٠٠ جندي من الإركاتيين، و ٢٠٠ جندي من الأرواديين يقودهم ما يتنو بعل، و ٢٠٠ جندي من الأسناتيين، و ٣٠ مركبة وعدد غير محدد (أو غير مقروء) من الشيانيين يقودهم أدونو بعيل. ولعل من الطريف أن نلاحظ التفاوت العددي بيت الإركاتيين والشيانيين، وكانوا بأعداد ضخمة، من جهة، وبين الفصائل الضئيلة التي كان يتألف منها الأرواديون والأسناتيون من جهة ثانية. فهذه الدول لم تكن على وفاق فيما بينها، كان بعضها يعتزم قتال الملك الآشوري، وبعضها الآخر كان يمانع في ذلك. كذلك إن ما يثير الاهتمام أن يذكر اسماً الملكين الفينيقيين في هذا النقش، أو لهما قريب من ماتن - بعل، والثاني من أدوني - بعل. لقد حصلت المواجهة عند قرقر. وعلى الرغم من أن الآشوريين اعتبروها

نصراً لشلمانصر الذي زعم أنه قتل ١٤.٠٠٠ من العدو، إلا أن الجيش السوري استطاع أن يوقف زحفه، ولذلك لا يمكن اعتبار المعركة حاسمة[1].

في حملات السنوات العاشرة والحادية عشرة والرابعة عشرة التي سيرها الملك الآشوري على دمشق وحماة نجد إلى جانب ذكر هذه الحملات إشارة إلى اثني عشر ملكاً من الساحل في جملة أعداد الملك، لكن أشهر هذه المعارك لم تقع إلا في السنة الثامنة عشرة (٤٨٠). نقرأ في الحوليات: «تقدمت حتى بلغت جبل حوران. مدناً لا حصر لها دمرّت وخربت وأحرقت بالنار، استوليت على أسلابها التي لا حصر لها. إلى جبل بعل - رعسي، وهو رأس في البحر، زحفت. تمثالي الملكي نصبته هناك. جبيت الجزية من أهالي صور وصيدا ومن يا هو بن عمري».

في نسخة أخرى من الحوليات يرد ذكر ملك صور باسم «بعلي - منزر»، كما يرد ذكر لقيام الملك الآشوري بنصب تمثال ملكي لنفسه في لبنان. ثم تذكر حملة أخرى على فينيقيا في السنة الحادية والعشرين (٨٣٧) يشار فيها إلى أن الملك قد جبى الجزية من صور وصيدا وجبيل. كما يشار إلى ملك اسمه «بعلي»، وهو اسم فينيقي كما هو ظاهر، لكن اسم دولته ساقط، أما اسم عاصمته، وقد جاء هكذا: la-ru (؟) -ba، فلم يمكن التعرف عليه.

عند هذه النقطة يجب العودة إلى حوليات صور التي تورد أسماء خلفاء إيتو بعل ومدة حكم كل منهم: بعلز وروس عاش خمساً وأربعين سنة وحكم ست سنوات (٨٥٥-٨٥٠)، متينوس عاش ستاً وخمسين سنة وحكم سبعاً وأربعين (٨٢٠-٧٧٤). وتضيف الحوليات أنه في السنة السابعة من حكم بجماليون فرّت أخته وأسست مدينة قرطاجة في ليبيا. هنا تصطدم المعلومات الواردة في هذه الحوليات مع معطيات النقوش الآشورية التي جاء فيها أن بعلي - منزر حكم مدينة صور في العام ٨٤٠، وأكثر الأسماء شبهاً باسم بعلي - منزر هو اسم بعلز وروس. لكن ثمة تعقيدات كرونولوجية (علم تعيين التواريخ أو ترتيب الحوادث وفق تاريخ حدوثها) ذهب العلماء في شرحها مذاهب شتى، وفي كل منها تنشأ حاجة لتغيير كرونولوجية حوليات صور.

١- نفس المرجع، ص ٣٩- ٤٢.

أعقب موت شلمانصر الثالث (٨٢٤) بضعة عقود من السنين نعمت سوريا وفينيقيا خلالها بهدوء نسبي. ففي غضون هذه الحقبة، وقد دامت حتى اعتلاء تغلات فلاصر الثالث العرش عام ٧٤٥، لم تشن من الحملات الجديرة بالذكر سوى حملة واحة قام بها حدد نيراري (٨٠٩-٧٨٢)، في السنة الخامسة من حكمه (٨٠٥). يعلن هذا الملك بصراحة أن الجزية حجبت عن أبيه، شمسي - حدد الخامس، ويزعم أنه تقدم حتى بلغ إقليم الفلسطينيين والأدوميين، وفرض الضرائب على صور وصيدا.

حتى الآن لم يكن التوسع الآشوري قد اتخذ شكل الفتح الدائم في فينيقيا بقدر ما كان نوعاً من الرقابة من مكان بعيد وفرضاً للجزية وجباية لها.

لا نجد في الحوليات الآشورية وعياً توحيدياً (وحدوياً) في العالم الفينيقي: قوائم بأسماء المدن تذكر كيفما اتفق، ولا واحدة منها تصنف في مجموعة، لا تمييز بين مدن الداخل ومدن الساحل، ولا بين المدن الواقعة على الساحل الفينيقي والواقعة على الساحل غير الفينيقي. كذلك لا نجد عند الفينيقيين قاسماً مشتركاً توحيدياً، ولا تحديداً أو مفهوماً عضوياً.

الغزو الآشوري:

اشتد الضغط الآشوري في أيام تغلات فلاصر الثالث (٧٥٤-٧٢٧)، وبدأت سياسة ضم الأقاليم إلى مملكة أشور. وقد جاء في الحوليات إشارات معينة إلى المدن الغربية تعتبر ذات أهمية بالغة: «جعلتها ضمن حدود آشور»، «عمالي عينتهم حكاماً عليها»، «...هجرت ناساً من مدنهم وأسكنتهم مقاطعة... الـ...».

ففي فينيقيا أحرز الآشوريون نصراً مؤزراً على الأوراتيين والسوريين في السنة الثالثة من حكمه (٧٤٣). وبهذه المناسبة شكل الآشوريون ولاية ضمت المدن الفينيقية التالية وهي: اوسنو، سيانو، سيميرا، كاشبونا. وهذه الأخيرة لم يمكن التعرف عليها، لكن دائماً على ساحل البحر».

وفي الحوليات مقطع آخر لعله يشير إلى نفس الحادثة: ذكر أسماء المدن وهي جبيل وعرقا وأوسنو وسيانو، بالإضافة إلى مدن أخرى غير معروفة هي زيمارا وريع - سايا وريع - سيسو. وربما كان بعض هذه المدن مركزاً يقيم فيه الحكام الآشوريون.

كان جبيل في وضع خاص، أحياناً كانت تذكر في جملة المدن المنضمة، وأحياناً يشار إليها كدولة مستقلة تدين لآشور بالولاء وتدفع لها الجزية. ويذكر معها اسم ملكاتها سيبيتي - بعلي. والحق أنها ربما احتفظت بهذا الشكل من الاستقلال الجزئي الذي ظل عدداً من السنين صفة ملازمة للمدة المحلية، مثلما كانت الحال في مدينة أرواد التي يذكر اسم ملكها متّان - بعلي ولم تندرج في قائمة المدن الملحقة بآشور. ثم لعلنا نستطيع القول أن الضم الآشوري قد امتد حتى بلغ إلى الشمال من فينيقيا وبلغ جبيل، إلا أنه ترك هذه المدينة كما ترك أرواد تنعم بشيء من الاستقلال النسبي. وإلى الجنوب من جبيل لا يرد ذكر لضم أيّ مدينة أخرى. وأما مدينة صور فقد كانت تدفع الجزية في ظل مليكها حيرام الثاني الذي ما يلبث حتى يعود اسمه إلى الظهور ثانية في نقش فينيقي عثر عليه في قبرص، حيث نجد حاكماً محلياً يسمي نفسه «خادم حيرام ملك الصيدونيين». هذه الواقعة جديرة بالملاحظة إذ قد تنطوي على احتفاظ مدينة صور بقسط كبير من الاستقلال وعلى حكمها لإقليم مجاور. وأما مدينة صيدا فلا يرد لها ذكر في نقوش تغلات - فلاصر. بعد حيرام جاء ميتينا، الذي دفع الجزية هو أيضاً.

ثم إلى الربع الأخير من القرن الثامن يقوم شلمانصّر الخامس (٧٢٦-٧٢٢) بغزو السامرة في آخر سنة من سني حكمه، ويستولي سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥) على جزيرة قبرص. فقد ذكر الجزية التي كان يدفعها له القيارصة في مناسبات عدة، وكان له مسلة تحمل اسمه مقامة في كيتون. والتطور الكبير الذي نجم عن مغامرات سرجون في البحر المتوسط، وهي المغامرات التي ترويها لنا الحوليات، هو تغير موقف المدن القبرصية والتغير الأساسي الذي طرأ على السياسة الاقتصادية في شرقي المتوسط. إذ لم يعد الفينيقيون بقادرين على الاحتفاظ بسيطرتهم على طرق التجارة ووقعوا تحت حماية الدول الكبرى[1].

على الرغم من كل هذا، ظلت قوة المدن الفينيقية عظيمة: فقد حاولت ولاية سيميرا التمرد في بداية حكم الملك سرجون الثاني، إذ اشتركت في ثورة قادتها مدينة

١- المرجع السابق، ص ٤٥- ٤٦.

حماه شملت ولايات أرفاد ودمشق والسامرة. لقد كانت هذه الثورة التي نشبت في سوريا الشمالية والوسطى بقيادة الولايات التي أنشأها تغلات فلاصر وقيادة السامرة التي كانت قد غزيت لتوها، وظلت تتفاعل دون أن يخمد أوارها. ولعل سببها كان ما نزل من تقهقر سريع بجيش شلمناصر الخامس مما حمل سرجون الثاني على التدخل، وكان في السنة الثانية من حكمه، فقضى عليها في مدة وجيزة.

لا يعرف إن كانت حصلت أحداث أخرى في ظل هذا الملك على الساحل الفينيقي. لكن الحوليات تشير إلى أنه في السنة السابعة من حكمه دفع الجزية بضعة ملوك، بما فيهم «ملوك الساحل». أما النقش المحفور على أسطوانة الأساس في قصر خرساباد، الذي يعرف بسرجون بأنه «من أخضع كيليكيا وصور»، فيدل على الأغلب على أحد الأفعال العادية من الولاء الشكلي (الرسمي). إجمالاً ليس لدينا انطباع بأن سرجون كان معادياً لفينيقيا على وجه الخصوص، بل لعله استخدمها في مغامرته الواسعة التي خاض غمارها في البحر المتوسط.

في ظل سنحريب (٧٠٥-٦٨١) عقدت المدن السورية، ومنها المدن الفينيقية، أسلافاً أو حلفاً فيما بينها في وجه آشور: «في حملتي الثالثة توجهت إلى بلاد الحثيين (سوريا) ولولي ملك صيدا استولى عليه الرعب من عظمة سلطاني فانطلق هارباً في البحر، ومات هناك. صيدا الكبرى، وصيدا الصغرى، بيت ذطي، شريفتا، محليبا، اوشو، عكزيب، عكا، مدنه المنيعة الحصون حيث معالف ومشارب حامياته - الخوف من أسلحة ربي آشور قهرها وجعلها تركع خاضعة عند قدمي. أجلست تو بعلو على العرش ملكاً عليها، وفرضت عليه تقديم الهدايا لجلالتي، وفرضت عليه الجزية إلى الأبد، بلا توقف. مناجم الشمسيوروني، وتو بعلو الصيدوني، وعبدي - بعتي الاروادي، وأورو - ملكي الجبلاوي، وميتيني الأشدوتي، وبودو - أيلو البيتعموني، وكمو سنادبي الموآبي، ومليك - رمو الأدومي - ملوك العموريين كلهم، هدايا باذخة في ثقل جزيتهم جاؤوا بها إلي للمرة الرابعة وقبلوا قدمي».

ويذكر مصدر آخر أن لولي هرب من صور إلى قبرص حيث مات فيها. والمعروف أن الحملة المشار إليها قد حدثت في عام ٧٠١ أو ٧٠٠ق.م. ولولي هذا هو نفسه أيلو لاوس المذكور في حوليات صور ويقال أنه حكم ستة وثلاثين عاماً. واصطلاح «ملك صيدا»

الوارد في الحوليات الآشورية لا يمكن أن يعني غير امتداد سلطانه إلى هذه المدينة. فقد كان ملكاً على صور، كما يقول يوسفوس، وهذا أمر لا شك فيه، والدليل على ذلك أيضاً أن الحوليات الآشورية تذكر أنه هرب من صور إلى قبرص، كما مر معنا قبل قليل. على أن يوسفوس يمدنا برواية تثير الاهتمام عن المدائن الفينيقية الأخرى التي انفصلت عن صور ووضعت تحت تصرف الملك الآشوري ستين سفينة لمحاصرة الجزيرة. ولعلنا نتساءل عن السبب الذي حدا بهذه المدن كي تناصب العداء مدينة صور التي كانت أكبر المدن الفينيقية: هل كان ذلك بضغط من الآشوريين أم أن هذا الضغط قد أضيف إلى مشاعر المنافسة والعداء التي تكنها المدن الأخرى لمدينة صور؟ يذهب يوسفوس إلى أن صور قاومت الحصار خمس سنوات وهزمت الأسطول الذي أرسل لغزوها. لكن على الرغم من هذا، لقد كان هرب إيلاوس وتنصيب ملك جديد على صيدا من قبل الآشوريين (وهو تو بعلو أو ايتو بعل الثاني) ضربة قاصمة توجه إلى أقوى مدينة فينيقية.

ليس هناك مراجع أخرى عن الحملات التي أرسلها سنحريب إلى المنطقة الفينيقية. وقوله «إن البحارة الصوريين والصيدونيين والقبارصة أسرى في يدي»، هذا القول الذي ورد في مغامرات لاحقة لا بد وأنه يشير إلى الذين وقعوا في أسره في أثناء الحملة التي شنها في العام ٧٠١ أو ٧٠٠ق.م.

في ظل حكم اسرحدون (٦٨١-٦٦٨) خلف إيتو بعل على عرش صور عبدي - ملكوتي الذي تحالف مع ساندواري ملك كيليكيا ضد العاهل الآشوري: «عبدي - ملكوتي، ملك صيدا، الذي لم يرهب جلالتي، لم يكترث لكلمة شفتي، وثق بالبحر المخيف وخلع عنه نيري - صيدا، مدينة حاميته، التي تقع في وسط البحر، سويتها مع الأرض، أسوارها وبيوتها دمرتها في البحر، الموقع محوته.

مستعيناً بربي آشور، قبضت على عبدي - ملكوتي الذي كان أفلت من ذراعي، كسمكة خارجة من البحر وقطعت رأسه. زوجته، أولاده، حاشية بلاطه، أملاكه ومتاعه، أحجاره الثمينة، ملابس من صوف ملون وكتان، جلود الفيل والأنياب، خشب القبقب والبقس، جميع أنواع الكنوز بكميات هائلة نقلتها من قصره.

رعيته المشتتة التي لا يحصرها العد، ماشية وغنماً وحمياً بأعداد كبيرة نقلتها إلى بلاد آشور.

وجمعت ملوك خاطي (سوريا) والساحل كلهم، وفي مكان آخر أمرت بتشييد مدينة دعوتها باسم كار - أسرحدون. سكان المدينة... والمدائن المحيطة بصيدا، التي وقعت في قبضتي بعون الرب آشور. الناس الذين سباهم قوسي، وهم سكان الجبل والبحر الذي تغرب فيه الشمس، حيث استقر بي المقام مدة، ثم قفلت عائداً إلى بلاد آشور. تلك الولاية أعدت تنظيمها وعينت لها موظفاً من عندي يحكمها، إذ فرضت عليها جزية أكبر من جزية الأيام السالفة، أما مدنه الأخرى - معروبو وشرفتا - فوكلت أمرها إلى بعلي، ملك صور».

يتضمن هذا المقطع الذي نقلناه عن الحوليات وقائع معينة على جانب كبير من الأهمية: أولها أن صيدا التي كانت موالية للآشوريين أصبحت معادية لهم. بينما قامت صور، وكانت معادية لهم من قبل، بمديد العون لهم في ظل مليكها الجديد، بعل[1].

زد على ذلك أن إقليم صيدا كان يشتمل على شرفتا، التي انتقلت بعدئذٍ إلى صور، التي كان من الواضح أيضاً أنها سيطرت على منطقة في الجنوب. أعقب غزو المدن هذه المرة تدميرها وتهجير أهلها وإسكانهم في مكان آخر. ومع أن هذا المكان الجديد لم يرد له ذكر آخر بعد ذلك، بينما قد أشير إلى المدينة القديمة في تاريخ لاحق، لا شك أن هذا الإجراء أشد قسوة من الإخضاع العادي وفرض الجزية. ثم هناك واقعة مهمة أخرى هي تعيين حاكم آشوري[2].

وفقاً لتاريخ أسرحدون وتاريخ بابل، تم الاستيلاء على صيدا في عام ٦٧٧، وأعدم عبدي - ملكوتي في عام ٦٧٦. ومن عام ٦٧٦ إلى ٦٧١، وهو العام الذي تمردت فيه صور، نعمت فينيقيا بهدوء نسبي بعد ذلك، فكان لدينا منها قائمة بملوك تابعين حكموا خلال هذه الحقبة وزودوا الملك الآشوري بالمواد اللازمة لبناء قصره الجديد في نينوى. وقد اشتملت هذه القائمة على بعلو ملك صور، وملكيا شافا ملك جبيل، ومتان

١- هكذا في الأصل، بينما أسمته الحوليات «بعلي» كما مر قبل قليل.

٢- المرجع السابق، ص ٤٨- ٤٩.

بعل ملك أرواد. وفي هذه الحقبة أيضاً أبرمت معاهدة بين أسرحدون وبعل ملك صور - وجدت منقصفة - تعطينا فكرة واضحة عن السياسة الآشورية والفينيقية. في القسم الأول منها بيان بالالتزامات التي يلتزم القيام بها بعل تجاه أسرحدون وذكر للمعايير التي تسوّى بموجبها الخلافات التي قد تنشب بين الدولتين. وفي القسم الثاني توجه إلى الآلهة بالدعاء بما هي الضامنة للمعاهدة واستنزال لغتها على من يخرقها. وفي هذه المعاهدة نص صريح على مركز الحاكم الآشوري على صور، وهو الحاكم المكلف بجميع الشؤون الآشورية. وفيها نص أيضاً على مجلس قدماء (= شيوخ) يساعد الملك على القيام بمهماته. كذلك أعارت المعاهدة انتباهاً لمشكلات الملاحة التي توليها صور اهتماماً خاصاً، إذ عينت فيها المرافئ السورية التي يحق لسفائن صور أن ترسو فيها بعد السماح لها بالتجارة من قبل سلطات الإقليم الذي يحكمه الآشوريون.

لقد كانت هذه المعاهدة مرهقة لصور. في السنة العاشرة من حكم أسرحدون (٦٧١) تحالفت صور مع «تحرقا» ملك مصر وأعلنت تمردها على آشور. وفي نقش آشوري يعلن أسرحدون: «استوليت على صور التي تقع في وسط البحر. ملكها، بعلو، الذي وثق بتحرقا ملك إثيوبيا، جميع مدنه وأمواله جردته منها، غزوت مصر ومصر العليا وإثيوبيا».

غير أن عدداً من شذرات هذه الحوليات يوحي لنا، في هذه المناسبة أيضاً، بأن إخضاع المدينة اقتصر على فرض الجزية عليها بعد أن انقطعت عنها الإمدادات التي كانت تأتيها من جزيرة صور، فضلاً عن أن صور حتى بعد اعتلاء آشور بانيبال العرش خلفاً لأسرحدون تمتع بحكم ذاتي ويحكمها مليكها بعل.

في كل الأحوال، اتسم حكم أسرحدون بمزيد من انتقاص استقلال فينيقيا، إذ قسّمت إلى ولايات آشورية: سيميرا في الشمال، ومنطقة صيدا (كار - اسرحدون) في الوسط، ومنطقة صور (اوشو) في الجنوب. ولم يحتفظ باستقلاله غير بضع دويلات المدن المتفرقة: أرواد وجبيل وجزيرة صور.

في ظل آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦) تمرد بعل الصوري ثانية: «في حملتي الثالثة زحفت على بعل ملك صور الذي يسكن في وسط البحر، عندما لم يتمثل لأمري الملكي ولم يطع كلمة شفتي. دمرت حصونه واستوليت على طرقاته بحراً وبراً.

حاصرتهم حصاراً شديداً وجعلت حياتهم بائسة. أخضعتهم إلى نيري. جاءني بابنته الناتجة من صلبه وبنات أخوته ليكن محظيات عندي. وابنه ياحي - ملكي، الذي لم يسبق له أن قطع البحر، أرسله إليّ، لأول مرة، لكي يقوم على خدمتي. ابنته وبنات أخوته تسلمتهن منه ومعهن بائنات ضخمة. أشفقت عليه وأعدت إليه ابنه الآتي من صلبه».

طبعاً لجميع الأدلة المتوفرة، كان تمرد صور ذا صلة بمحاولة المصريين القضاء على سيادة آشور على فينيقيا. لكن الآشوريين تمكنوا من إخماد الثورتين، على الرغم من أن صور لم تكن تحت الاحتلال ولم يكن عليها غير أن تقدم آيات الولاء وتدفع الجزية. مباشرة بعد إخضاع صور تذكر النقوش الآشورية إخضاع جزيرة أرواد: «ياكينلو، ملك أرواد، الذي يسكن في وسط البحر، أبى الخضوع للملوك آبائي، فوضعت النير في عنقه. ابنته جاء بها إلى نينوى، ومعها بائنة ضخمة، لكي تخدمني كإحدى محظياتي، وقبل قدمي». ويذكر نقش آخر: «فرضت عليه جزية سنوية ذهباً وصوفاً أحمر عميقاً وصوفاً أسود وسمكاً وطيراً».

وكبادرة على تمرد أرواد يجدد بنا أن نستشهد برسالة من حاكم آشوري اسمه إيتي - شمش - بلاتو إلى ملك آشور: «إيكي - لو (ولعله ياكين - لو) لا يسمح للسفن بمغادرة مرفأ الملك مولاي. جميع السفن يسوقها إلى مرفئه. كل من يأتي إليه يوافق على سفره، لكن كل من يذهب إلى مرفأ من بلاد آشور يأتي ويدمر سفنه».

وفي مقطع آخر يقوم إيكي - لو بعرقلة التجارة البحرية الآشورية إلى درجة خطيرة. لكن بعد وفاته يذهب أبناؤه ومعهم هدايا ثمينة ليقدموا ولاءهم إلى آشور بانيبال الذي اختار عازي - بعل خلفاً لأبيه على العرش ومنح الأبناء الآخرين هبات وهدايا. يستفاد من هذا أن الملك الآشوري ربما كان مرتبطاً بمعاهدة يقوم بموجبها بتعيين من يخلف الملك المتوفى من أبنائه، أو أن ياكينلو لم يسمّ خليفته على العرش فآثر أبناؤه الاعتماد على نصيحة آشور بانيبال. ولكن بعد أن يرجع آشور بانيبال من حملته التاسعة على القبائل العربية يجد نفسه أمام تمرد آخر يقع في فينيقيا: «لدى عودتي استوليت على مدينة آشو الواقعة على شاطئ البحر. أهالي أوشو، الذين ما كانوا ليرتعدوا فرقاً من حكامهم، ولا يدفعوا الجزية، ولا يقدموا الهبات السنوية،

ذبحتهم. والعاصين أخذتهم بالعصا. الآلهة والناس نقلتهم إلى بلاد آشور. عصاة عكا ذبحتهم علقت جثثهم على الخوازيق، وطوقت المدينة بجثثهم. ومن بقي أخذته إلى بلاد آشور، وجعلتهم في تنظيمي العسكري، وأضفتهم إلى جيوشي الجرارة التي أنعم بها عليّ إلهي آشور».

بعد آشور بانيبال لا نجد ذكراً لفينيقيا في الحوليات الآشورية. لذلك يبدو أن المنطقة ظلت بعد سقوط الإمبراطورية الآشورية (٦١٢) على نفس الوضع الذي كانت عليه في أيام أسرحدون: الولايات الثلاث المؤلفة من سيميرا وصيدا وأوشو، بالإضافة إلى أرواد وجبيل وصور، كانت مستقلة ذاتياً، لكنها كانت تدفع الجزية إلى سوريا[1].

العصر البابلي والفارسي:

انتهى عهد السيادة الآشورية على غربي آسيا لما ظهرت في العراق القديم قوة عسكرية جديدة: البابليون المحدثون أو الكلدانيون بقيادة نابو فلاصر (٦٢٥-٦٠٥) الذي خرب عاصمتهم العظيمة نينوى عام ٦١٢. وقد اعتبر هؤلاء أنفسهم ورثاء آشور فادعوا السيادة على سوريا وفينيقيا، على ما كان عليه الآشوريون من قبل. وفي هذه الفترة التي تم فيها انتقال السيادة العسكرية من أيدي الآشوريين إلى الكلدانيين استطاعت مصر أن تنفض عن كاهلها النير الآشوري وتتحدى الكلدانيين في أمر السيادة والسيطرة في هذه المنطقة.

وقد وجهت مصر الضربة الأولى. إذ قاد نيخاو فرعون مصر جيشاً كبيراً وسار على رأسه منتقلاً من نصر إلى نصر حتى بلغ مدينة كركميش على الفرات (جرابلس الحالية)، حيث وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الجيش الكلداني بقيادة نبوخذنصر ابن نابو فلاصر ووريث عرشه العتيد. وأسفرت المعركة عام ٦٠٥ ق. م عن انكسار الجيش المصري وانهزامه. فتابعت جيوش نبوخذنصر المنتصرة زحفها جنوباً متعقبة آثار الجيش المصري وانهزامه واحتلت مدينة أورشليم عام ٥٩٧ ق. م.

١- المرجع السابق، ص ٥١- ٥٣.

أما المدن الفينيقية فقد عادت إلى اتباع سياستها التقليدية: الاعتراف بالأمر الواقع. ولكنها احتفظت باستقلالها الداخلي فكانت شبه مستقلة على أن تدفع الجزية إلى الأسياد الكلدانيين الجدد. كان اللبنانيون القدماء كسنابل الحقل تنحني عند مرور العاصفة ولكنها لا تتكسر. وهكذا أخلدوا إلى السكينة في ظل الحاكم الجديد كما أخلدوا إلى الحاكم القديم.

غير أن بعض المدن الفينيقية مثل صور وصيدا وبعض البلدان المجاورة مثل أدوم وموآب وعمون (وهذه تقع شرقي نهر الأردن) واليهودية عقدوا تحالفاً عسكرياً ضد الكلدانيين معتمدين في تحالفهم هذا على عون عسكري تقدمه لهم مصر. ولكن بعضهم كان يتوجس خيفة من هذا التحالف.

أقام نبوخذنصر مركزاً في ربلة وهي مدينة سورية جنوبي حمص على نهر العاصي، ومن هناك أرسل جيشاً لإخضاع المدن الفينيقية ولإتمام الاستيلاء على اليهودية

أما الجيش المصري بقيادة خفرع أو «Apries» عند هيروت، وهو خليفة نيخاو، فقد حاول أن يقاوم الزحف الكلداني غير أنه اضطر إلى التراجع سريعاً. وأما أورشليم التي كانت ترأس هذا التحالف، فقد سقطت في يد الكلدانيين سنة ٥٨٦، وبذلك زالت مملكة يهوذا من الوجود. ثم أن نبوخذنصر وجه جيشه بعد ذلك نحو صور زعيمة التحالف الفينيقي. وكان ملك، أتو بعل الثاني، عازماً على المقاومة، فأخذ يقيم الحصون وينشئ القلاع لمجابهة الجيش الكلداني. إلا أن صور البرية قد سقطت. أما صور البحرية، فقد نجت من الوقوع في قبضة الكلدانيين. فقد لجأ إليها أهالي صور البرية وأنشؤوا فيها وسائل للدفاع، وقاوموا الحصار مدة ١٣ سنة (٥٨٥-٥٧٢ق.م) مما لا نجد له مثيلاً في تاريخ الحروب. ومع هذه الحصار الطويل الأمد، فإن الكلدانيين لم يهاجموا المدينة لأنها عرضت عليهم استسلاماً جزئياً قبل به الكلدانيون، فرفعوا عنهم الحصار وأخذوا من أهالي المدينة عدداً قليلاً من وجهائها وأعيانها وحملوهم إلى بلادهم كرهائن. وقد ترك لنا الكلدانيون سجلاً بهذه الأعمال العسكرية بشكل نقشين كتبا على صخرتين عند مصب نهر الكلب.

دامت السيطرة الكلدانية ٥٨ سنة. واستطاع أحد الأعيان من الرهائن الذين احتجزهم الكلدانيون - ولعله كان ابن اتو بعل - عاد وتسنم العرش الصوري تحت اسم بعل الثاني. ثم خلفه على العرش اثنان آخران من هؤلاء الأعيان الذين لا نعرف شيئاً ثابتاً عن نسبهم. وآخر ملوك صور أحيرام الثاني. كان في عامه الرابع عشر عندما استولى كورش الفارسي، مؤسس الإمبراطورية الفارسية، على بابل عام ٥٣٩-٥٣٨ وقبض على ملكها نابونيدس. وبسقوط بابل في أيدي الفرس انتقلت فينيقيا وجاراتها من البلاد الأخرى إلى أيدي الفرس وكان انتقالاً سهلاً لم يصحبه شيء من العنف أو الخراب. ويخبرنا نابونيدس في سجلاته أنه كان يعدن الحديد في لبنان، وكان يقطع أخشاب الأرز لصنع الأثاث الفاخر كما فعل فراعنة مصر وملوك كنعان من قبل[1].

كان اندفاع الفرس غرباً - وهم شعب (هندوأوروبي) - نحو شواطئ المتوسط نذيراً بزوال سيادة الشعوب السامية، تلك السيادة التي لم يستطيعوا استردادها إلى أن قام العرب المسلمون، بعد مرور ألف عام، بفرض سيادتهم على المنطقة. كانت الإمبراطورية الفارسية التي أسسها كورش (٥٥٠-٥٣٠ق.م) والتي وسع حدودها ابنه قمبيز و داريوس، مترامية الأطراف شاسعة المساحة. كانت تمتد شرقاً من نهر كوش الهندي ونهر الأندس وما وراءه إلى البحر الإيجي غرباً، ومن القوقاز شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً. وقد كانت هذه المرة الأولى التي ضمت بلدان هذه المناطق تحت حكم قوي مركزي واحد. وكانت أطراف هذه المملكة المترامية متصلة ببعضها بعضاً بنظام من الطرق الحسنة المجهزة بالمحطات التي كان يستريح فيها رسل الملك ومرازبته. وقد سك الفرس النقود المعدنية الموحدة وأدخلوها كعامل جديد في عالم التجارة، وانتشرت اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً جعل منها لغة عالمية في كل المنطقة. وقد أفسح التاريخ المجال لأول مرة للحضارتين السامية والهندو - إيرانية أن تتفاعلا وأن تندمجا.

قسّم داريوس الأول (٥٢١-٤٨٥) مملكته إلى ٢٠ إيالة كانت الإيالة الخامسة منها تشمل لبنان وسوريا وفلسطين بالإضافة إلى جزيرة قبرص. وقد اختيرت مدينة

١- د. فيليب حتي: تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ١٨٢- ١٨٣.

صيدا لتكون عاصمة الإيالة. وقد جهزها الفرس بقصر فخم ليكون مقراً لحاكم الإيالة وقصراً لاستضافة الملك في حال قيامه بزيارة الإيالة. كما أنشؤوا فيها حديقة ملوكية للنزهة والترفيه[1].

وكان غزو الإسكندر لفينيقيا نهاية لسيطرة فارس. فبعد معركة أسّس Issus ٣٣٣ق.م فتحت كبريات المدن الفينيقية أبوابها (أرواد، جبيل، صيدا) أمام الفاتح الجديد.

١- المرجع السابق، ص ١٨٥.

النشاط البحري والتوسع الاستعماري

كان الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ. وبما أن جبال لبنان كانت تعيق التجارة مع الداخل وتزود السكان بالخشب الممتاز لصنع السفن فإن البحر المتوسط اجتذب هؤلاء الساميين المقيمين على سواحله الشرقية فاستجابوا إليه وحولوا حياة تنقلهم في أرجاء البادية إلى حياة تنقل في البحر. وكان البحر لا يخيفهم والعالم المجهول يفتنهم بدلاً من أن يلقي الرعب في قلوبهم. وبعد أن بدؤوا في الملاحة قرب السواحل ليبيعوا أسماكهم وزجاجهم وآنيتهم الخزفية وغيرها من المنتجات المحلية أخذوا فيما بعد يجوبون عرض البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغرب وقد ظلوا يحتكرونها مدة طويلة. وتحول الباعة المتجولون إلى أمراء تجار. وكانوا مستعمرين نموذجيين فنشروا عناصر حضارتهم وحضارة جيرانهم وجعلوها مقبولة لدى الأجانب. وركز الكنعانيون نشاطهم باتجاه البحر خاصة بعد القرنين الثالث عشر والثاني عشر حين أخرجهم الآراميون من سوريا الوسطى واضطرهم الإسرائيليون والفلسطينيون لمغادرة سوريا الجنوبية فأصبحوا نسبياً أعظم الملاحين والتجار في التاريخ.

الطرق البحرية:

كان الفينيقيون يتبعون طرقاً مرسومة بدؤوا أولاً في استكشافها ثم استخدموها واحتكروها تقريباً. وكانت أقدم طرقهم الدولية تصل بيبلوس وسائر الموانئ بمصر. ثم أصبحت الطرق الرئيسية تبدأ في صيدا وصور فتصل مصر أو تتجه شمالاً إلى قبرص وغرباً إلى ليكيا تحت جبال طوروس ثم إلى جنوبي رودس فكريت

وجزيرة كورسيرا حتى صقلية ومنها بطريق جزيرة كوسيرا[1] إلى مستعمراتهم في شمالي أفريقية وأخيراً غرباً على الساحل حتى مستعمراتهم في أسبانيا. وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت طرق عرضية تعبر البحر من الشمال إلى الجنوب وبالعكس. وكان الفينيقيون أول من قدم أربع مواد مهمة مفقودة في كثير من بلاد البحر المتوسط وهي الأخشاب والقمح والزيت والخمر. وبالنسبة لليونان كان أرز لبنان أرزاً فينيقياً. وحمل الفينيقيون بعد ذلك منتجات صناعتيهما الرئيستين وهما صنع الأقمشة والصناعة المعدنية. وكانت مصر وبلاد الرافدين ذات التربة اللحقية بحاجة ماسة إلى الأخشاب الصلبة لبناء المعابد والقصور ولصنع زوارق الصيد والسفن التجارية والحربية. وكانت غابات لبنان ذات الثمار المخروطية الشكل والغنية بالمواد الصمغية بما فيها من أشجار الصنوبر والشوح والأرز والتربنتين لا تقدم الأخشاب فحسب وإنما تقدم أيضاً الزفت والصموغ التي كانت ترافق تجارة الأخشاب. وكانت تستخدم هذه المواد لطلاء السفن والمحافظة عليها. وكان الزيت يستعمل كعطور كما يستهلك للغذاء. وكان الفينيقيون عندما وسعوا أسواق البضائع المستهلكة يوسعون أسواق المنتجات حتى أصبحوا العملاء في توزيع بضائع الشرق في الغرب والبضائع القليلة الآتية من الغرب ومعظمها من المعادن والآنية الخزفية في الشرق. وأصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية قبل أن يكون بحيرة يونانية أو رومانية بوقت كثير[2].

الملاحة:

وعندما سعى الفينيقيون لترقية المبادلات التجارية بطريق البحر على مقياس دولي أخذوا يدرسون الملاحة درساً أصولياً. وقد كان لهم الفضل في اكتشاف فائدة النجمة القطبية وأصبحوا بعد ذلك أول من أتقن فن الملاحة ليلاً والمسير حسب النجوم. وأطلق اليونان على هذه النجمة اسم الفينيقيين. وكانت تعوم أخشاب الأرز التي لا مثيل لها في

١- وهي جزيرة بنتلاريا الحديثة والمعروفة عند الجغرافيين العرب باسم قرصرة.

٢- د. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، ص ١٠٤- ١٠٥.

المتانة في الجداول المنحدرة أيام الفيضان إلى اقرب مرفأ لأجل بناء السفن أو للتصدير. وكانت صيدا وصور تتلقى أخشابها من حرمون. وظهرت السفن الفينيقية من نحو ١٤٠٠ق.م مرسومة على المباني الأثرية المصرية وهي بشكل هلال ولها مؤخرة ومقدمة مرتفعتان ومجذافان يستعملان كدفة للسفينة وفي أعلى الصاري شراع واحد مربع على امتداد يردتين.

وكانت تسيّر أقدم السفن، التي لدينا رسوم عنها، بواسطة الشراع والمجاذيف. والسفن كانت عريضة في وسطها بحيث كانت حمولتها كبيرة من دون أن تكون طويلة. وتظهر السفن الفينيقية التجارية والحربية من العصور الأخيرة على الآثار الآشورية بمؤخرة مرتفعة ومدك مروس في المقدمة يمكن استخدامه في القتال وطابقين. وبناة السفن الفينيقيون هم الذين بدؤوا عادة وضع مجذافين أو أكثر، الواحد فوق الآخر. وكان الطابق الأسفل من السفينة عادة يضم صفين كل منهما بأربعة أو خمسة مجاذيف بحيث كان عدد المجذفين كلهم بين ستة عشر وعشرين. وفي العصور المتأخرة بلغ عدد المجذفين خمسين مجذفاً. وكان الركاب يقيمون في الطابق الأعلى. وكانوا يستعملون عوداً واحداً للشراع وكان الشراع ينشر عندما ترسو السفن أو حين يكون الطقس رديئاً. وهذا النوع من السفن هو الذي اقتبسه اليونان الأقدمون كما يتضح من الرسوم على الأواني. ويعتقد أن نفس النموذج بناه للملك سليمان أولئك «النواتي العارفون بالبحر» الذين أرسلهم صديقه حيرام ملك صور.

وكانت سفن سليمان ترسو في عصيون جابر وهي ميناء مملكة إسرائيل على خليج العقبة. وكانت السفن تصدر بواسطة هذه الطريق القصيرة الأخشاب والنحاس وتأتي بدلاً عنها. بالذهب من أوفير والعطور والتوابل من سائر جهات شبه الجزيرة العربية وبذلك تتجنب المرور في برزخ السويس على أطراف مصر. وكانت ترسل محاصيل برية أخرى كالرقيق والخيول إلى مصر بدلاً من المنتجات المحلية. وكان التجار الفينيقيون في مدن الدلتا في عهد السلالة العشرين (١٢٠٠-١٠٩٠ ق.م) بارزين بشكل خاص. ويبدو أنهم كانوا يتمتعون في ممفيس في القرن الثالث عشر بحقوق خاصة تتصل بوضعهم كأجانب وهذا من سوابق الأمتيازات الأجنبية.

لم يكن الفينيقيون أول أمة بحرية فحسب بل كانوا أول أمة في التاريخ تاجرت في البر والبحر.

وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضم أديسا وربما نصيبين بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج العربي. والفينيقيون حسب مروياتهم المتأخرة أتوا إلى ساحل سوريا بالأصل من منطقة الخليج العربي حيث كانت لهم مدن تحمل الأسماء نفسها مثل أرواد وصيدا وصور. ويعطينا حزقيال في الإصحاح السابع والعشرين وصفاً مفصلاً لتجارة الفينيقيين البرية والبحرية في مظاهرها المختلفة. وهو يذكر بين وارداتهم الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا والرقيق وأواني النحاس الأصفر من أيونيا والكتان من مصر والغنم والماعز من شبه جزيرة العرب[1].

الدوران بحرا حول إفريقيا:

وأعظم عمل بحري حققه الفينيقيون هو الدوران بحراً حول أفريقيا قبل البرتغاليين بأكثر من ألفي عام، وينسب إلى الملاحين البرتغاليين عادة أنهم أول من فعل ذلك. وقد قام الفينيقيون بهذا العمل بإشارة من الفرعون نيخاو (٦٠٩-٥٩٣ق.م) من السلالة السادسة والعشرين الذي أعاد حفر الترعة القديمة التي كانت تربط الفرع الشرقي للنيل بطرف البحر الأحمر الشمالي.

بدأ الفينيقيون رحلتهم من هذا البحر واتجهوا جنوباً نحو المحيط الجنوبي وعند اقتراب فصل الخريف كان ينزل الملاحون أينما وجدوا ويزرعون القمح وينتظرون نهاية الموسم ثم يرحلون من جديد. وبعد أن قضوا سنتين على هذه الحال عبروا في السنة الثالثة أعمدة هيركوليس (مضيق جبل طارق) وعادوا إلى مصر. قال هيرودوتس: «وهناك قالوا (ما يصدقه البعض ولكنني لا أصدقه) أنهم بدورانهم حول ليبيا (إفريقيا) كانت الشمس على يمينهم». وهذه العبارة الأخيرة التي لم يصدقها «أبو التاريخ» اليوناني) تثبت صحة القصة. ذلك أنه عندما تتجه السفن إلى

١- د. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، ص ١٠٧- ١٠٨.

الغـرب حـول رأس الرجـاء الـصالح فـإن شمـس نـصف الكـرة الجنـوبي تكـون عـن يمينها.

المستعمرات:

كان الفينيقيون يبنون ويؤسسون أينما ذهبوا. وبما أنهم يمثلون أمة صغيرة فإنهم كـانوا يتسربون إلى المنـاطق الجديـدة مـن دون أن يثيروا الـشكوك حـولهم كمـا كـان يمكنهم أن يتكيفوا من دون صعوبة حسب أي وضع جديد طالما أنه لم تكن لهم حياة سياسية مشتركة - ويشبه ذلك إلى حد كبير ما يفعله أحفادهم المهاجرون اللبنانيون في العصر الحديث.

وقد سيطروا بالتدريج كمستعمرين ومنظمين وادخلوا النشاط في عالم كان يبدو فيه الجمود ووسعوا آفاقه. وتطورت المراكز التجارية الواحد بعد الآخر إلى مراكز للسكن وتطورت هذه إلى مستعمرات. واتصلت هذه المستعمرات بعضها ببعض وبالمدن الأصلية الأم بطرق الملاحة وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية إلى سواحل كيليكية واليونان وغيرها من بلاد البحر المتوسطة فجعلته بحراً متوسطاً حقيقياً. ويمكن الاعتقاد بأن مستعمراتهم في شرقي البحر المتوسط ومنها قبرص أسست قبل مستعمرات صقلية وسردينا في وسط البحر المتوسط وأن هذه الأخيرة أسسها الفينيقيون قبل مستعمراتهم في إفريقيا الشمالية الغربية وأسبانيا. ويرجع نزولهم في جزر أواسط البحر المتوسط إلى منتصف القرن الحادي عشر لم يكن قبل ذلك. وأسست قادس Gades (اليوم Cadis) في أسبانيا وأوتيكا Utica في المنطقة المسماة اليوم تونس نحو عام ١٠٠٠ق.م وتعتبران من أقدم المؤسسات في تلك المناطق. وقد اشتق اسم قادس Cafes من كلمة فينيقية معناها «جدار» أو مكان مسور. ولم تكتشف حتى الآن كتابات فينيقية أثرية في سردينيا وقبرص أقدم من القرن التاسع. والكتابة المشهورة المكرسة لبعل لبنان والتي اكتشفت في قبرص وكانت سابقاً تعتبر أقدم مثال للكتابة الفينيقية ترجع إلى منتصف القرن الثامن. وأما قرطاجة سليلة صور الشهيرة وأعظم المستعمرات الفينيقية فإنها تعود إلى نحو ٨١٤ق.م. وهي أحدث من زميلتها في الغرب هيبو Gippo التي كانت مقراً ملكياً (ولذلك أعطيت

لقب regius) وفيما بعد أصبحت أسقفية القديس أوغسطين. وكلمة هيبو كلمة ليبية. وتفيد الأساطير اليونانية أن ليبيا Libya وهي الاسم اليوناني لشمالي أفريقيا ثم للقارة للإفريقية كلها كانت بالأصل اسم زوجة الإله بوسيدون (إله البحر) ووالدة آجينور Agenor ملك فينيقية[1].

وبلغ هذا النشاط التأسيس في غربي البحر المتوسط ذروته كما يبدو بين منتصف القرنين العاشر والثامن. ويشير نجاحه العظيم إلى وجود طبقة أقدم من المستوطنين الساميين في شمالي إفريقيا وربما في جنوبي شبه جزيرة إيبريا. وقد تكون الهجرة التي حملت الساميين في الألف الرابع إلى مصر قد استمرت إلى أبعد من ذلك. وهنالك ذكريات غامضة لمرويات تجعل الساميين القدماء في مناطق غربي البحر المتوسط واحتفظت بها الكتابات الكلاسيكية والعربية.

أدى تأسيس قادس وراء أعمدة هيركوليس (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) إلى دخول الفينيقيين إلى المحيط الأطلسي وأسفر ذلك عن اكتشاف الأوقيانوس بالنسبة للعالم القديم. ويعتبر هذا الاكتشاف من أعظم ما قدمته الحضارة السورية للتقدم العالمي. وقد عرف هوميروس وهيسيود عن وجود المحيط الأطلسي لأول مرة من الفينيقيين. ومن الصعب معرفة مدى توغل الفينيقيين في هذا الأوقيانوس الذي سماه العرب فيما بعد «بحر الظلمات». وأما وصولهم إلى كورنوال في إنكلترا في بحثهم عن القصدير فقد أكده بعض الثقات ولكن لا توجد إشارة قديمة إلى ذلك. ويقول هيرودوتس إنه ليست لديه معرفة خاصة بجزر كاسيتريدس Cassilerides (جزر القصدير) «التي يجلب منها قصديرنا». وهذه الجزر هي جزر سيلي Scilly الواقعة قرب طرف كورنوال.

ويؤكد سترابو الذي كتب نحو عام ٧ق.م بأن الكاسيتريدس تحوي القصدير والرصاص وأن السكان يبادلونها بالخزف والملح والأواني النحاسية. وكان الفينيقيون

١ـ د. فيليب حتي: تاريخ سوري ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، ص ١٠٩ـ ١١٠.

وحدهم في العصور الأولى يقومون بهذه التجارة من قادس ويكتمون الطريق عن الناس. ويضيف سترابون بأن السفن الرومانية تعقبت مرة سفينة فينيقية لكي تجد هي أيضاً تلك الأسواق ولكن قائد السفينة قذف بسفينته عمداً إلى اليابسة وقبض من دولته ثمن المحمول الذي فقده، وهذا يشير إلى احتكار حقيقي لتجارة القصدير وإلى نوع الضمان من قبل الدولة. ويتكلم ديودورس الصقلي الذي كتب بعد سترابون بنحو ثلاثة أرباع القرن عن القصدير الذي كان يحمل من بريطانيا إلى ساحل الغال (الساحل الفرنسي) المقابل ثم عن طريق الداخل إلى ماسيليا (مرسيليا اليوم) وهي مستعمرة يونانية ربما قامت على موقع مستعمرة فينيقية أقدم منها. والكتابة الفينيقية الوحيدة المكتشفة في بريطانيا حتى الآن تركها على الغالب أحد عمال إحدى الفرق الرومانية من أصل قرطاجي على ما يبدو وترجع إلى أول قرن من الاحتلال الروماني. واكتشف العالم بيتري petrie في غزة القديمة أقراطاً ملتوية من ذهب اعتقد أنها من أصل إيرلندي وتاريخها ١٤٥٠ق.م.

في أسبانيا:

كانت معظم المستعمرات الفينيقية في أسبانيا تقع في ترشيش (Tartessus) وبخاصة في المنطقة بين قرطجينة وقادس. وهذه الأسماء السامية للأماكن شائعة جداً ونراها على نقود بقيت حتى الآن. واسم ترشيش الذي نصادفه في كتابات التوراة وآشور هو اسم فينيقي على الغالب بمعنى المنجم أو مكان الصهر. وكانت مدينة طرسوس في كيليكية التي ولد فيها القديس بولس تحمل نفس الاسم كما أنها مستعمرة فينيقية. وطقوس عبادة بعلها كانت تشبه تقريباً الطقوس المتبعة في صور وقرطاجة. وسميت قرطجينة Carthagena باسم المدينة الأم قرطاجة في شمالي إفريقية. ومدينة ملقه Malaga معنى اسمها دكان أو معمل صغير. ويذكر سترابو مكاناً لتمليح الأسماك في هذه المدينة وهو أمر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك. ومدينة قادس كانت أيضاً معروفة بإنتاج الملح. وكانت قرطبة Cardoba بالأصل مدينة ايبرية استولى عليها الفينيقيون: وأقدم نقودها تحمل حروفاً فينيقية استبدلت فيما بعد بالبونية. وقد جمع منها هميلقار برقة والد هنيبال كما جمع من سائر المدن

الأسبانية جيوشاً. لأجل حملته ضد روما. وربما كان اسم برسلونة الواقعة في الشمال متصلاً بكلمة «براق» الفينيقية (برق) التي نراها كلقب بجانب اسم والد هانيبال. وهكذا تأسس بواسطة هذه المستعمرات موطن ثان للحضارة السورية في الحوض الغربي للبحر المتوسط[1].

في اليونان:

وعاصمة جزيرة مينورقة الحالية واسمها ماهون Nahon تبدو في أول الأمر بأنها ماجو Mago وهو بالأصل اسم قائد قرطاجي. وكان للفينيقيين مراكز في جزر الباليار ولكن سلطتهم على الجزر التي سكنها من عرق ايبري لم تكن قوية. وكانت لهم أيضاً مراكز في كورسيكا وسردينيا. ومدينة باليرمو في صقلية مبنية على موقع فينيقي قديم وفي بلاد اليونان يشهد وجود أسماء سامية للمواقع والآلهة إلى جانب وجود الأساطير والخرافات الكثيرة بنشاط فينيقي. وتتصل كورنثوس وهي مؤسسة فينيقية على الغالب بإله من أصل فينيقي اسمه مليكرتس (ملقارت) كما تذكر الأساطير. ومن الجزر اليونانية التي لها صلة بالاستعمار الفينيقي ساموس وكريت وكانت لها مكانة بارزة في هذه الناحية.

وتروي الأساطير أن الإله زفس بعد أن تحول إلى ثور اختطف اوربا Europa الجميلة ابنة الملك الفينيقي آجينور Agenor من مرج على الساحل السوري بعد أن وقع في حبها وهرب إلى كريت التي كانت مركز للحضارة قبل أن تكون هنالك حضارة في البر الأوربي. وفي كريت تزوجها بعد أن استعاد شكله الأصلي. وقد ولد من هذا الزواج الملك والمشرع الكريتي مينوس Minos بينما اتخذت القارة (أوربا) اسم زوجة زفس ووالدة مينوس.

وقد زعم ديودورس أن سكان مالطة - واسمها سامي من دون شك - كانوا فينيقيين. وكان لهذه الجزيرة مرفأ من أحسن مرافئ البحر المتوسط ولا عجب إذا سميت «ملجأ» وكان يوجد في تراقيا مناجم للذهب وتروي الأسطورة أن أول من

١- د. فيليب حتي: تاريخ سوري ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، ص ١١٢- ١١٣.

استثمرها هو قدموس Cadmus الصوري شقيق اوربا الذي أرسله والده للبحث عن شقيقته. وقد اشتغل عمال المناجم الفينيقيون في هذه المنطقة بحثاً عن الذهب حتى القرن السابع ق.م ومن الأمور التي تنسب إلى قدموس بناء مدينة طيبة (وتل الأكروبول فيها واسمه قدميا قد سمي بالنسبة إليه) كذلك ينسب إليه أنه أنجب ولداً اسمه الليريوس تسمت باسمه الليريا (وهي بلاد البانيا اليوم تقريباً). والواقع هو أن هذه العاصمة الأيولية القديمة كانت من أصل سوري كما أن فن العمارة اليوناني القديم الذي منه أتت أشكال كلاسيكية مدين لسوريا باستخدام الأعمدة وتيجانها.

وفي العصر الهوميري كان محمول السفن الفينيقية يضم نباتات ومحاصيل مثل الورد والنخيل والتين والرمان والمر والخوخ واللوز نشروها في بلاد البحر المتوسط كلها. وقد تكون السفن نفسها هي التي أدخلت من اليونان إلى سوريا نبات الغار والدفل والسوسن والنعنع والنرجس وقد بقيت الأسماء اليونانية لبعضها في اللغات السامية. وتجارة التوابل كانت بكاملها بيد الفينيقيين الذين حرصاً على الاحتفاظ لأنفسهم بالطرق التجارية كانوا ينشرون الأخبار عن أخطار بلاد التوابل وطرقها. وكان يعتقد لمدة طويلة في العصر الكلاسيكي القديم أن سوريا تنتج البلسم والمر. ولم يصبح الأصل العربي للمر مؤكداً إلا في زمن فتوحات الإسكندر وكانت تجارته في أيدي السبئيين قبل الفينيقيين. وكان الغار بشكل تيجان يكلل الشعراء وقد تحولت الحورية دفنة Daphne مرة إلى شجرة غار عندما لاحقها عشيقها ابولون وذلك في مكان قرب أنطاكية لا يزال يحتفظ باسمها. وقد جذب بلسم أريحا الملكة كليوباترا واستأجر جنائن في ذلك المكان.

قرطاجة:

كانت مدينة قرطجنة، وهي أحدث المستعمرات عهداً في شمالي إفريقية، أنشط المدن الفينيقية وأكثرها ازدهاراً وعمراناً. تقول لنا الأساطير إن زمن تأسيسها يعود إلى سنة ٨١٤ ق.م، وأن مؤسستها كانت ديدو (اواليسا) أخت بيغمليون ملك صور والتي أصبحت فيما بعد إلهة المدينة الحارسة أو الشفيعة.

وكانت قرطجنة مركزاً فينيقياً تنبعث منه مختلف التيارات الحضارية في غربي حوض المتوسط.

وقد نمت تجارتها واتسعت في القرن الثامن بحيث إنها أصبحت المنافسة القوية لمدن البلاد الأم التي كانت في هذه الحقبة من التاريخ قد شارفت على الأفول. إن ازدهار صيدا وصور وغيرهما من فينيقيا وعظمتها ووفرة غناها كانت تعتمد إلى حد كبير على مستعمراتها المنتشرة حول البحر المتوسط. وقد ظلت هذه المستعمرات، من حيث المبدأ تابعة للمدن الأم، فكانت ترسل إليها نوعاً من الجباية أو الجزية. ومن هنا كانت العلاقة بين المدن الفينيقية الأم ومستعمراتها تختلف عن علاقة بلاد اليونان بمستعمراتها. ومما عجل في زوال سيادة صور وعظمتها في القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد قيام المستعمرات اليونانية المنافسة لها. وفي الوقت ذاته ظهرت آشور في الشرق كدولة قوية اجتاحت سوريا ولبنان وأخضعتهما لسيادتها. فانتقل مركز الثقل إلى قرطجنة التي كان عليها الآن أن تحافظ على المستعمرات وتحميها من الأعداء. فإنها كانت بفضل موقعها الجغرافي في مركز ممتاز للقيام بدور القيادة الرشيدة والتنظيم الفعال. ولكن على الرغم من هذا فإن صور لم تتخل كلياً عن سيادتها ومركزها. فإن النقود التي كانت تسلكها صور، حتى في القرن الثاني قبل الميلاد آن كانت قد فقدت مركزها السياسي والتجاري، تحمل عليها كتابة تقول «صور أم قرطجنة».

وقد برهن أبناء قرطجنة على أنهم جديرون بأن يفخروا بنسبهم إلى الصورانيين وبأنهم كانوا خير سلف لخير خلف. يدلك على ذلك ما ذكره هيرودوتس عن دهائهم في التجارة وابتكارهم بمختلف الوسائل للمقايضة. يقول هيرودوتس إن الملاحين الفينيقيين كانوا يبحرون إلى شاطئ أفريقية الغربي، وعند الشاطئ كانوا ينزلون البضائع والسلع ويشعلون النار إشعاراً بوصولهم ثم ينسحبون إلى مراكبهم. فكان العبيد الإفريقيون عند رؤيتهم النار على الشاطئ يتقدمون وبأيدهم الذهب فيتركونه على الشاطئ كثمن ثم يتراجعون قليلاً ليروا إذا كان الثمن مرضياً عند التجار الفينيقيين. فينزل الملاحون إلى الشاطئ ثانية، وإذا وجدوا أن كمية الذهب ترضيهم حملوها وقفلوا راجعين، وإذا كانت الكمية أقل مما كانوا ينتظرونه فإنهم يعودون ثانية إلى

مراكبهم ويترقبون عودة العبيد ليزيدوا من كمية الذهب. بهذه الطريقة من المساومة الصامتة يقول لنا هيرودوتس، كان الفريقان يتفقان على البيع والشراء - كما أخبرني الرواة «دون أن يغش الواحد الآخر». وهكذا اتسعت تجارة قرطجنة وقويت سيادتها السياسية حتى أنها أصبحت في القرن السادس قبل الميلاد على رأس إمبراطورية ضخمة متسعة الأرجاء تمتد شرقاً من حدود قيريني (ليبيا الآن) إلى أعمدة هرقل (جبل طارق) وتشمل فيما تشمل جزر الباليار ومالطة وسردينية ومستعمرات أخرى منتشرة على شواطئ أسبانيا وفرنسة. المدن الأم مثل صيدا وصور، فإنها لم تستطع أن تنشئ لنفسها إمبراطوريات مماثلة لإمبراطورية قرطجنة. وأنّى لها ذلك وسيوف مصر وآشور مصلّته فوقها، وشبح الاجتياح يهددها مرة بعد مرة؟ ولكن اتساع الرقعة الجغرافية التي كانت تسودها قرطجنة، كان ولا بد أن يضعها وجهاً لوجه أمام قوة جديدة ناشئة في أواسط حوض المتوسط: روما. وكان لا بد لهاتين القوتين من أن تصطدما حول قضية رئيسية، هي السيادة البحرية. ذلك لأن أساطيل قرطجنة كانت تعتبر المتوسط بحيرة خاصة بها. فكانت تقول للرومان إنه لا يحق لهم أن يغسلوا أيديهم بمياهه دون الحصول على إذن من قرطجنة!! وقد بلغ بين هاتين القوتين للسيطرة على المتوسط ذروته عندما أقدم هانيبعل (ومعنى اسمه نعمة أو بركة من البعل «من الحنان» عام ٢١٨ق.م على مهاجمة الرومان في عقر دارهم. كان هذا حلماً يدغدغ خياله ردحاً من الزمن، وقد وقف حياته لتحقيقه. فسير جيشه نحو إيطالية بطريق أسبانيا فجبال الألب، لينقض على روما من الشمال. وقد ظل على الأرض الإيطالية مدة ١٥ سنة يشن على الرومان حرباً شعواء لم تسلم منها روما ذاتها. غير أن نهاية هانيبعل كانت قد قربت. فإن قرطجنة استدعته ليذود عنها غائلة الحرب. فعاد لمقابلة جيوش الرومان. ولكنه غلب على أمره في موقعة زاما المشهورة، جنوبي غربي قرطجنة. وفي عام ١٩٦ هرب إلى صور، ومن هناك التحق بأنطيوخس السلوقي ملك سوريا ليكون له عوناً في حربه ضد روما عدوة قرطجنة اللدود. ولكن النجاح لم يكن حليفه. وعندما سدت في وجهه منافذ الهرب فضل الانتحار. كان ذلك عام ١٨٣ في آسيا الصغرى. وآخر كلمات تفوه بها هذا العسكري الشهيد كانت «إن موتي سيوفر على الرومان مؤونة انتظار ميتة رجل طاعن في السن كانوا يكرهونه».

ولم يكن نصيب مدينة قرطجنة بأوفر حظاً من نصيبه في الحياة. نعم، إنها استعادت فوراً قوتها بعد الهزيمة ونعمت بشيء من الوفر والازدهار. ولكن هذه الحيوية ذاتها التي أبدتها قرطجنة تركت في نفس القائد الروماني كاتو، وفي نفوس غيره من قادة الرومان، انطباعاً شديداً، جعل شعارهم: «يجب أن تزول قرطجنة من الوجود». وقد أزالها الرومان من الوجود فعلاً. ففي سنة ١٤٦ق.م احرقها الرومان وظلت النيران مشتعلة فيها مدة ١٧ يوماً حتى أن معالم موقعها الجغرافي طمر بركام من الرماد والخرائب، وأعمل المحراث فيه كأنه حقل يفلح، ولعنوا الأرض التي كانت تقوم عليها المدينة. ونحن إذا حاولنا إصدار حكم على الرومان، حتى وإن كان حكماً يقوم على عرف تلك العصور ومقاييسها، فإننا لا نتمالك عن القول بأن قسوة الرومان تلك لم تكن لتشرف اسمهم[1].

١- د. فيليب حتي: تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ١٤٥- ١٤٨.

دويلات المدن الفينيقية

تقديم:

تعد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم، وهي تشغل من الناحية الجغرافية شريطاً ساحلياً ضيقاً كان يمتد من جبل الأقرع (كاسيوس) شمالاً، إلى جبل الكرمل جنوباً ولا يزيد طوله على ٣٢٠ كم، كما لا يزيد عرضه على ٥٦ كم، وهو غني بالخلجان، وبه عدد من الثغور، وترتفع إلى جانبه من ناحية الشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من أشجار الأرز والصنوبر والسرو، وتفصل الخلجان الرؤوس البارزة في البحر عن بعضها بعضاً. وتظهر بالقرب من الشاطئ بعض الجزر التي كان لها كذلك شأن في تاريخ هذه البقعة، ذلك لأنها كانت عامرة بالقرى والمدائن، شأنها في ذلك شأن الساحل نفسه، بل إن أهميتها تفوق الساحل في أحايين كثيرة.

وعلى أيّ حال، فلقد كان الفينيقيون محصورين في شريط من الأرض على شيء كثير من الضيق، ذلك لأن جبال لبنان لا تبعد عن البحر أكثر من ٥٠ كم، بل يقترب الجبل من البحر في بعض المواضع فيصير على بعد ما بين ١٩، ٢٤ كم، وفي بعض المواضع يلاصق الجبل البحر.

وكان البحر أسهل طريق للمواصلات بين كل بلد وآخر، وهذا الانقسام إنما كان أحد الأسباب التي جعلت فينيقيا لا تصلح أن تكون دولة حقيقية، فصارت عبارة عن دويلات صغيرة، يسود بعضها البعض الآخر، طبقاً للزمان والظروف السياسية والاقتصادية.

هذا وتعتبر فينيقيا بمثابة ممر ضيق بين إفريقيا وآسيا، لأن صحراء سوريا الكبرى الواقعة وراء جبال لبنان إقليم لا يمكن اجتيازه عملياً، وعكس ذلك من

ناحية فلسطين في الجنوب، إذ تتصل فينيقيا بشبه جزيرة سيناء ثم إلى داخل مصر نفسها ، أما في الشمال فالاتصال ممكن بأعالي وادي دجلة والفرات.

وهكذا تأثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا فيها ، واستجابوا لها استجابة كاملة ، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ذلك لأن الوطن الفينيقي الممتد على سواحل الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب ، والصحراء من الشرق ، أصبح بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة الآسيويون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادي النيل ، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادي تتعقب الغزاة ، وهم في طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر.

وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار ، تحاصر مدنهم وتدك قلاعهم ، وتحملهم أسرى إلى مصر يسخرهم فرعون في الأعمال التي يريد ، وقد سجلت الآثار المصرية والوثائق المصرية هذه الصلة الوثيقة بين فينيقيا ومصر ، وما كادت الشعوب السامية النازلة في وادي دجلة والفرات تفيق وتتطلع إلى السيادة على الشرق الأدنى حتى اتجهت صوب فلسطين ، وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه القنطرة الساحلية ، وتفعل بها مثل ما فعله المصريون من قبل.

وهكذا أصبح الوطن الكنعاني الفينيقي في مهب التيارات العالمية ، بين قوى عالمية كبرى ، قامت في وادي النيل ، وفي وادي الدجلة والفرات ، وفي آسيا الصغرى ، وترتب على هذا الوضع نتائج بعيدة الأثر ، إذ لم يستطع الكنعانيون أن يقيموا دولة موحدة ، تصد هذه التيارات وتضع حداً لهذا النفوذ الأجنبي.

وانطلاقاً من كل هذا ، لم يستطع الفينيقيون أن يشكلوا وحدة سياسية واحدة ، كمصر ، وإنما وحدات صغيرة تعيش في مدن محصنة ذات أسوار عالية ، وأبراج كبيرة ، يلجأ إليها السكان وقت الخطر ، ويحتمون بأسوارها ، ويتخذونها وقت السلم أسواقاً لتجارتهم.

هذا ونظراً لأن الفينيقيين لا يميلون بطبيعتهم إلى النواحي السياسية والحربية ، بقدر اهتمامهم بالشؤون الاقتصادية ، فإنهم كانوا يفضلون الأمان والاستقرار ، حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح في المجالات التجارية بصفة عامة.

وقد أدت هذه الأوضاع مجتمعة إلى ظهور ما يسمى بدويلات المدن حيث كان لكل مدينة حكومتها الخاصة بها، وعلى رأسها حاكم بالوراثة، قد ينتقل الملك منه إلى أسرة أخرى، أو تنتزع الإمارة وتسلب، نتيجة ثورة من عناصر تصبح لها الغلبة، ولم يكن سلطان الأمير أو الحاكم أو الملك استبدادياً مطلقاً، ذلك لأن التجارة تتطلب مغامرة وألواناً من النشاط لا يتفق وهذا اللون من الحكم.

وكانت تقوم، إلى جانب الحاكم، هيئة من المشرعين، كما كانت تعقد أحياناً مؤتمرات من المدن الكبرى للتداول في الشؤون العامة المشتركة، وكانت طرابلس مقر الاجتماع العام للمدن الثلاث الرئيسية. وكان للدين نصيبه في الإدارة، فهو يحدد سلطة الحاكم، وللكهنة نفوذ يلي نفوذ الحاكم، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة، وإن كنا لا ندري على وجه التحقيق، أكان بيت المال يعتمد على المكوس أو على الاحتكار أو على الأمرين معاً.

وهكذا انتظم الفينيقيون في جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك، ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها، وكانت هذه المدن هي العواصم التي يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر.

على أن النزاع كثيراً ما كان يحدث بين هذه المدن، وكانت أكثرها تفوقاً تلك التي كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، هذا إلى أن بعضاً من تلك المدن كان يشغل موقعين: واحد على الساحل، والآخر يمثل جزراً صغيرة في مواجهته يلجأ إليها القوم عند اشتداد الخطر. وقد أدى هذا الوضع إلى أن يهيأ لكل مدينة مرفأين، أحدهما شمالي، والآخر جنوبي، فتلجأ السفن لهذا المرفأ أو ذاك بحسب الفصول واتجاه الريح، ومثال ذلك صيدا وصور، فكانت المسافة بينهما ملاحة يوم واحد.

حاولت المدن الفينيقية إيجاد نوع من الترابط يؤلف بينها، ويجمع كلمتها، وبخاصة في وقت الأخطار الخارجية، ومن ثم فقد عمدت إلى إنشاء تحالف قوي من عدة مدن، بزعامة أوفرها قوة، تحالف كان دائماً يمليه الخطر المشترك وأحياناً المصالح المشتركة.

وكانت مدينة «أوغاريت» في القرن السادس عشر قبل الميلاد، و «جبيل» في القرن الرابع عشر، و «صيدا» بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر، و «صور» بعد هذا القرن الأخير، ثم «طرابلس» في القرن الخامس قبل الميلاد، تتزعم هذه الأحلاف. ولعل من أشهر هذه التحالفات، ذلك الحلف المشهور الذي قضى عليه فرعون مصر تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) في «مجدو» في عام ١٤٦٨ق.م، وقد تجمع هذا الحلف الذي كان يتزعمه أمير قادش (مكان تل النبي مند، على الشاطئ الأيسر لنهر العاصي على مبعدة ٧ كم جنوبي حمص)، عند مدينة «مجدو» (غربي بحرية طبرية على مبعدة ٣٢ كم جنوب شرقي حيفا) حيث جمع هذا الأمير حوله «ثلاثمائة وثلاثين أميراً، كل منهم معه جيشه الخاص»، لكي يوقفوا تقدم فرعون عند مجدو، وبدهي أن عدد الأمراء (٣٣٠ أميراً) إنما يشير بوضوح إلى أن سوريا وفلسطين وفينيقيا، إنما كانت مجزأة بصورة غريبة، فهؤلاء الأمراء لم يكونوا في الواقع إلا زعماء لدويلات صغيرة جداً كما كانوا على درجة من الاستقلال، تحول دون تكوين جيش موحد، بحال من الأحوال.

هذا ويبدو واضحاً من رسائل العمارنة، من عصر الملك أمنحوتب الثالث (١٤٠٥-١٣٧٦ق.م) وأمنحوتب الرابع (اخناتون ١٣٦٧-١٣٥٠ق.م) أن القوم لم يفقدوا العمل المشترك بينهم فحسب، وإنما حاول الملوك الفينيقيون جميعاً الحصول على الفوائد من سيدهم المصري، بعضهم على حساب بعض، وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم بصفة شخصية، ولعل السبب في ذلك طغيان إحدى المدن، أو حتى إحدى الوحدات على جاراتها التي تتزعمهن، الأمر الذي كان يؤدي أحياناً بخروجهن عليها، والانضمام إلى أعدائها، كما حدث حين ثارت صيدا وباليتروس وعكا ضد صور، وأعلنت خضوعها لآشور، بل ووجهت جميعاً أسطولاً يستهدف تدميرها فباء بالهزيمة.

وانطلاقاً من كل هذا نستطيع أن نقرر أن لوناً من الاتحاد قام بين الولايات الفينيقية أحياناً، تزعمته صور، وفينيقيا في أوج مجدها، وأما حين دانت بالسيادة لآشور وفارس انحلت عرى الرابطة التي ألفت بين الولايات.

وأما أهم المدن الفينيقية من الناحيتين السياسية والدينية فكانت مدن: جبيل وكانت مركزاً مقدساً للعبادة، ثم صيدا وقد لقبت بالمدينة الأم في كنعان، ثم صور، وكان لها إلى جانب ازدهارها التجاري دور عظيم في تأسيس العقائد في الدين الفينيقي، ثم أوغاريت، وكانت مع انضمامها في بعض الأوقات إلى بيروت تعيش بسبب بعدها عيشة أكثر استقلالاً من مدن فينيقيا الوسطى.

وكانت تتوسط هذه الثغور والمدن الكبيرة، قرى أقل شأناً، تنتشر بينها ولها شهرتها الخاصة في بعض نواحي الصناعة والفنون. ولنشر الآن إلى بعض هذه المدن[1]:

١- أوغاريت:

ذكرنا في الفصل الأول في فقرة (حفائر رأس شمرة) قصة اكتشاف مدينة أوغاريت ومكتبتها وأبجديتها ولغتها التي تعتبر أقدم لغة كتبت بالأبجدية في تاريخ الإنسانية.

وإذا كان العلماء قد فهموا النصوص المصرية والمسمارية فإن النصوص المكتوبة بلغة أوغاريت الخاصة أوجدت أول الأمر مشكلة لحل رموز هذه اللغة ولكن التنبه إلى بعض الأمور أدى إلى تسهيل حلها فقد لوحظت قلة عدد الرموز المسمارية مما وضع في الاعتبار احتمال كونها كتابة أبجدية لا مقطعية، كما أن وضع فواصل بين الكلمات سهّل القراءة عندما تم التعرف على قيم الحروف. ثم لوحظ أن أكثر الكلمات تتألف من ثلاثة أحرف أو أربعة مما أوحى بأن اللغة قد تكون قريبة من إحدى اللغات القديمة المعروفة في سوريا كالعبرية والآرامية والعربية. وكان حرف اللام هو أول الأحرف التي تم التعرف عليها لأنه يستعمل كحرف جر وأول اسم قرئ هو اسم المعبود بعل:

𐎁𐎓𐎍 وكلمة ملك 𐎎𐎍𐎋 وهـي ككلمة ملك في العربية ولكن تقرأ من اليسار إلى اليمين.

تطورت الكتابة لتكون عملية ومبسطة على أيدي الكتاب في مدن الساحل السوري الكنعاني وبخاصة أوغاريت وجبيل. ففي أوغاريت حيث اعتاد الكتاب على

١- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩٤، ص ١٢٩- ١٣٦.

التعامل بالمسمارية الأكادية أو الحورية بحكم علاقاتهم التجارية مع بلاد الرافدين وشمالي سوريا وآسيا الصغرى، واعتمدوا لذلك علامات مبسطة من المسمارية لكتابة لغتهم. ولكن هذه الأبجدية التي شاعت في أوغاريت في القرن الرابع عشر واتسع نطاق استخدامها في القرن الثالث عشر بقيت أبجدية محلية في مملكة أوغاريت ولم يتهيأ لها الانتشار واندثرت مع انهيار أوغاريت ودمارها في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ولكن يظن بأن فكرة الأبجدية الأوغاريتية ربما انتقلت إلى مدن كنعانية أخرى حيث استخدمت في الكتابة ومنها انتقلت إلى أنحاء العالم المعروف. ومهما يكن فإن مصدر الأبجدية الأولى في التاريخ هي هاتان المدينتان الكنعانيتان: أوغاريت وجبيل[1].

وقد كشفت في رأس شمرا عدة مئات من الألواح والكسر، أحدثت ثورة في معلوماتنا عن الأدب الكنعاني، والمجموعة الأساسية فيها هي مجموعة الملاحم وشعر الأساطير، وفي عام ١٩٥٣م كشفت وثائق ملوك أوغاريت وهي تشتمل على رسائلهم إلى ملوك الحثيين وغيرهم من الدول، ولا بد أن هذه الوثائق كتبت كلها قبل تخريب المدينة نحو عام ١٣٥٠ق.م (وإن كان الرأي السائد أن المدينة خربت نحو عام ١٢٠٠ق.م، على يد شعوب البحر الذين جاؤوا من سواحل الأناضول وجزر بحر إيجة، وأغاروا على الشرق الأدنى القديم) وترجع هذه الوثائق إلى ما بين عامي ١٥٠٠، ١٤٠٠ق.م، على وجه التقريب.

وعلى أيّ حال، ففي منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد حدث زلزال في المنطقة عقبه طغيان البحر، فخربت أوغاريت، ولكنها مع ذاك نهضت من جديد، ثم ما لبثت أن وقعت سريعاً في قبضة الحثيين «شوبيلو ليوما» (١٣٧٥-١٣٣٥ق.م)، وعند قيام رعمسيس الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) ثاني ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، بمحاولة استرداد الإمبراطورية المصرية في غربي آسيا، وحدثت بينه وبين ملك الحثيين «مواتيلا» وحلفائه من ملوك وأمراء سوريا وفينيقيا «معركة قادش» انضمت أوغاريت لهذا الحلف، بحكم تبعيتها للحثيين. وانتهت معركة قادش نحو

١- د. محمد حرب فرزات: موجز في تاريخ سوريا القديم، مرجع سابق، ص ١٠٠- ١٠١.

عام ١٢٨٥ق.م بنصر شبه مؤزر للفرعون. ثم وقعت مصر معاهدة مع الحثيين فساد السلام في المنطقة وظل سكان أوغاريت كما كانوا من قبل وزادت عليهم عناصر من أهل ميكيني (ببلاد اليونان) وأهل قبرص لعبت دوراً كبيراً فيما بعد، وانتعشت أوغاريت للمرة الأخيرة حيث إنها خربت نحو سنة ١١٨٠ق.م أثناء إغارة شعوب البحر التي أسقطت الدولة الحثية وحاولت غزو مصر ولكنها لم تنجح في ذلك حيث استطاع رعمسيس الثالث أن يبعد خطرها عن مصر، ولم تقم لأوغاريت قائمة بعد ذلك.

ويمكن القول بأن أوغاريت بحكم موقعها كانت أكثر تأثراً بقبرص والحثين والحوريين من تأثرها بمصر[1].

ويسيطر الملك على المجتمع الأوغاريتي وعلى جزء كبير من اقتصاده، ويبقى الملك هو المرجع الإداري الأعلى وهو الذي يرفع الموظفين عنده، إلى درجة ماريانو Mariannu حتى الصناع الملكيون خاصة.

أما موارد الدولة فتأتي من ضرائب مختلفة وغنائم وضرائب جمارك وغرامات وموارد العقود. وحقوق الرعي بخاصة والتقدمات العادية وغير العادية مثل مناسبات الزواج الملكي. وكان الملك يشجع الذين يقومون بالتجارة الخارجية وبخاصة بين كريت وأوغاريت وذلك بالعطاءات والتحرير من الضرائب وذلك مقابل ما يقدم العميل التجاري للملك من فوائد.

وكانت الزراعة مزدهرة وبخاصة الأشجار المثمرة، الزيتون واللوز والعنب والحمضيات وكانت البلاد ملأى بالمزارع والحصون المحاطة بالمراعي والحقول التي يرتادها الفلاحون والرعاة.

أما تربية المواشي فكانت مهنة مربحة جداً وكان الملك يختص برعاية الخيول ووجدت حظائر للمواشي والخيول لا سيما بجانب القصور الملكية وكان يعتبر منصب سائس خيول الملك منصباً مهماً. وكان ثمن الحصان المستورد نحو ٢٠٠ شاقل مقابل ٣٠-٥٠ شاقل للعبد، لكن الأرض كانت مرتفعة الثمن.

١- د. محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ ص ٢٧.

لقد كانت مدينة أوغاريت مدينة عامرة ومتحضرة وكان العبيد يحررون بمناسبات عديدة ويعاملون معاملة مقبولة وكان العبد عندما يتحرر يصبح إنساناً حراً تماماً. وكذلك المرأة كانت تتمتع بحقوق شبيهة بحقوق الرجل[1].

٢ـ أرواد (أرادوس):

قامت أرواد في شمال فينيقيا على إحدى الجزر، وتقابلها على الشاطئ أرواد الداخلية، وقد وصف «استرابون» هذه الجزيرة التي قامت عليها أرواد بأنها كانت (في العصر اليوناني الروماني) مغطاة بالمباني بارتفاعات شاهقة ذات طوابق متعددة.

هذا وكان أهل أرواد يتجمعون في جزيرتهم الصخرية - كما يفعل الناس الآن في جزيرة منهاتن في نيويورك - في ناطحات سحاب مصغرة، وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه لأجل جزيرتهم، وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج وتضاف إليها مياه ينبوع تحت البحر، يحصلون عليها بوضع قمع ضخم مقلوب على الينبوع، بحيث يتصل القمع بأنبوب جلدي، وربما كان هذا أقدم ما سجله التاريخ من إمكانية الاستفادة من المياه العذبة الموجودة تحت مياه البحر.

هذا وعلى الرغم من صغر مساحة أرواد فقد سجل التاريخ أنها كانت تسيطر على كثير من المدن المجاورة، مثل «سيميرا» و «مارثوس»، على أننا لا نعرف الكثير عن تفاصيل تخطيطها، وربما كانت حاناتها، وكذا ضواحيها، تمتد إلى الأرض الرئيسية وقد اشتهر أهل أرواد بأنهم ملاحون مهرة، وكانت لهم فرق كبيرة في الأسطول الفينيقي، وقد رسم على ظهر عملتهم الأولى «سفينة» هي شعار المدينة.

هذا وقد تعرضت أرواد، شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الفينيقية الرئيسية لكثير من أطماع الشعوب المجاورة، وانتهى أمرها بأن دمرها أقوام البحر، كما تشير إلى ذلك مظاهر التخريب التي ترجع إلى القرن الثاني عشر، وإن عادت مرة أخرى إلى الحياة، حيث قاست الكثير من غزوات الآشوريين المتكررة.

١- د. محمد حرب فرزات: موجز في تاريخ سوريا القديم، مرجع سابق، ص ١٠٤ـ ١٠٥.

هـذا ولم يـستولِ المـصريون علـى أرواد إلا في أيـام «تحـوتمس الثالـث» (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) وفي حملته الخامسة (نحو عـام ١٤٥٨ق.م)، وفي نقوش الكرنك ما يشير إلى أن الفرعون قد هدم أرواد.

وقـد ورد اسـم أرواد في الإليـاذة، كمـا نقـرأ في التـوراة أن الأرواديـين مـن نـسل كنعان، وفي سفر حزقيال أن أرواد أرسلت ملاحين ومحاربين للدفاع عن صور، كما تشير السجلات الآشورية أن أرواد، اشتركت مع دمشق وإسرائيل في موقعة قرقر عام ٨٥٣ قبل الميلاد، ضد الآشوريين.

وعندما استولى الفرس على فينيقيا قسموها إلى أربع مقاطعات (أرواد - صور - صيدا - جبيل) وعندما انتصر الإسكندر المقدوني على الفرس في موقعه ايسوس في عـام ٣٣٣ق.م، زحـف بجيوشـه نحـو الجنوب، وأخـذت فينيقيـا تفـتح أبوابهـا للغـازي الجديد، أرسل ملك أرواد ابنه على رأس وفد للترحيب بالإسكندر[1].

٣ـ جبيل:

تـدعى جبيـل باللغـة الفينيقيـة «بعلت جبـال» - أي صـاحبة الحـدود - لأنهـا - فيمـا يبدو - أنها كانت النقطة التي ينتهي فيها النفوذ الكنعاني الشمالي المتأثر بالحضارة البابليـة والآشـورية والحثيـة، ويبـدأ الـشطر الجنـوبي - الفينيقـي، الـذي يتميـز بتـأثره بالحضارة المصرية الفرعونية.

وتقـع جبيـل علـى مبعـدة ٤٠ كـم شمـالي بـيروت، ويرجـع تخطيطهـا إلى عـصر البرونز، وتقـع المدينـة علـى صـقع جبـل، ولهـا طريـق يتـصل بالمينـاء، وأهـل جبيـل يعتـبرون مدينتهم أقدم مدن العالم، بناها الإله «إيل» فيما تـزعم أسـاطيرهم، هـذا وقـد كـشفت الحفـائر في جبيـل عـن آثـار إلى عـصر Chalcolitgic (الحجـري النحاسـي) وربمـا كانـت هناك مخلفات ترجع إلى عصور أقدم، كما أن جبيل ربما كانت كذلك مـن المراكـز المهمة والقديمة لعبادة الإلهة (عشتار).

وعلى أي حال، فلقد ظلت هـذه المدينـة إلى آخـر أيامهـا القـصبة الدينيـة لفينيقيـا، وكـان الـبردي مـن أهـم سـلعها التجاريـة، ومـن ثـم فقـد اشـتق اليونـان، فيمـا يـرى ول

١ـ د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩٤، ص ١٤١ـ ١٤٢.

ديورانت، من اسمها اسم الكتاب في لغتهم: ببلوس (Biblo) ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة (Bible) اسماً للكتاب المقدس (التوراة والإنجيل).

وكان اسم المدينة عند قدامى المصريين يكتب حتى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م) «كبن»، ولعله تحريف للاسم الفينيقي «جبل»، ثم أصبح بعد ذلك يكتب «كبين» (Kepen) بالباء الثقيلة، ثم أطلق اليونان عليها اسم «بيبلوس»، ثم أصبحت في العربية «جبيل».

هذا وقد أقام المصريون علاقات مع جبيل منذ عصور ما قبل التاريخ، وتشير دراسة الخشب الموجود في مقابر الأسرة إلى أنه وارد من سوريا ولبنان، وأنهم عملوا على إحضار خشب الأرز من هنا، كما يشير إلى ذلك «حجر بالرمو»، منذ عهد «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة.

وعلى أيّ حال، فهناك ما يشير إلى أن «جبيل» كانت آهلة بالسكان منذ أقدم العصور، وكانت بحكم موقعها مركز تجاري مهم، فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة، ويذهب كثير من الباحثين إلى أن جبيل قد خضعت للنفوذ المصري في أغلب عهودها[1].

٤ـ صيدا:

ذكرت صيدا في العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) كثيراً، وكانت صيدا شقيقة صور، بل لعل صيدا إنما كانت في فترة ما ملكة المدائن الفينيقية. وتقع صيدا على مبعدة ٤٥ كم إلى الجنوب من بيروت، ٤٠ كم شمالي صور (أي في مكان وسط تقريباً بين بيروت وصور) في سهل ساحلي شديد الخصوبة، وافر المياه ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبيت البحر، يصل اتساعه إلى ما يقرب من ميلين.

هذا وقد أنشئت المدينة في بادئ أمرها على رأس جبلي اختاره القوم، في أكبر الظن، بسبب المرفأ الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها بالبعض الآخر بأرصفة صناعية، وكان هذا المرفأ يقع إلى جهة الشمال، وكان

١ـ د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩٤، ص ١٤٢ـ ١٤٣.

هناك، من ناحية الجنوب، مرفأ آخر يسمى «المرفأ المصري» وهو أكبر من الشمالي، كما كان هناك من ناحية البرسور لحماية المدينة، وأما قلعة صيدا الحالية وتسمى «قلعة البحر» فترجع إلى أيام الحروب الصليبية، وتقع على أكبر الجزر التي قامت عليها المدينة.

هذا وقد اشتق اسم «صيدا» من الصيد، أي صيد السمك، وإليها ينتسب الإله الفينيقي الوثني «صيدون»، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها كانت محلة صغيرة لصائدي الأسماك.

ويعتقد الدكتور عبد العزيز سالم أن اسم صيدا مشتق من الجذر السامي صيد، ويقصد به صيد السمك، وهو الحرفة الرئيسية لسكان هذه المدينة منذ نشأتها، ولا نستبعد تمجيد الأهلي لهذه الحرفة فأطلقوا على مدينتهم اسمها، بحيث أصبح اسم صيدون يعني مدينة صيد الأسماك.

ويقول «جاك نانتي» - في كتابه تاريخ لبنان: إن أول مدينة أسسها الفينيقيون هي صيدا نحو عام ٢٨٠٠ق.م، ثم بنيت جبيل فـ أرواد فـ طرابلس، وقد بنى الصيدونيون مدناً أخرى على طول الساحل، أشهرها صور، وقد بنيت نحو عام ٧٥٠ق.م.

وحكومة صيدا - شأنها شأن غيرها من المدن الفينيقية - إنما تتكون من جماعة الأعيان الذين كانوا يعضدون السيادة الأرستقراطية، يجتمعون في دار الندوة كلما دعت الحاجة إلى ذلك برئاسة زعيم المدينة الذي كانوا يسمونه ملكاً.

هذا وقد نمت صيدا نمواً هائلاً، وازدادت مواردها، فأضحت كعبة التجار والمغامرين، وتضاعف عدد سكانها.

وكانت ديانة صيدا، هي الديانة الفينيقية الوثنية بوجه عام، وكان لكل مدينة فينيقية معبودها الخاص بها، تقدم له الأضاحي والقرابين، فمثلاً الإله «شمون» هو إله خاص بمدينة صيدا، والإله «ملقارت» خاص بصور، والمعبودة «عشتروت» خاصة ببيروت، و «أدونيس» بجبيل. هذا فضلاً عن الإلهين الرئيسيين «إيل» و «بعل» حيث كان أتباع كل منهما ينتصر لآلهته، فيحاول ويناقش خصمه بالحجج والبراهين، على تفوق آلهته وعظمتها.

وكانت الشمس تعبد، على إنها الإله الأكبر، باعتبار أنها مصدر النور والحرارة والحياة ولأنها مقياس الزمن، هذا فضلاً عن عقيدة القوم أن مرجع جميع الآلهة إلى الشمس، وهكذا تطرق القوم إلى عبادة الأسر الفلكية.

وكانت «الحية» عند القوم مثالاً لهذه الكواكب، فكانت الحيات في هياكل أشمون تلحس جراح المؤمنين بها، فيبرأون، لأن أشمون - فيما يعتقدون - إنما هو الذي أوجد عقاقير الطب.

هذا وقد اشتهرت صيدا بصناعة الصباغ الأرجواني والزجاج وبناء السفن والتعدين، فأما صناعة «الأرجوان» المنسوب إلى صور، فليس هناك من دليل على أنها سبقت صيدا إلى اكتشافه، اللهم إلا تلك الرواية المتداولة عن: أن كلب ابنة ملك صور، قد تلوث فمه وعن سبب تلوثه بهذا اللون الجميل، اكتشفت - ومن معها - أن ذلك إنما كان بسبب صدف «الموريكس» الموجود بكثرة على الشواطئ.

غير أن وجود جبل كامل في صيدا - عند أباروح - من هذه الأصداف، والتي يعود تاريخها إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، يدل بوضوح على أن صيدا كانت هي السابقة إلى اكتشافه، هذا فضلاً عن آثار مصانع الأرجوان حول مدينة صور إنما تعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ومن ثم فصيدا هي الأسبق في اكتشاف الصباغ الأرجواني.

وعلى أيّ حال، فلقد اكتشفت مادة «صباغ الأرجوان» في حيوانات بحرية، ذات أصداف تسمى «الموريكس»، وكان لونها أحمر بنفسجياً، وعمد أهل صور وصيدا إلى استعماله في صباغة الحرير والقطن والصوف الناعم، ثم تفنن الصوريون بعد ذلك في استعماله، فكان لهم قصب التفوق في صناعته.

وكان أهل صيدا أول من صنع الزجاج ولاسيما الشفاف منه وأنشؤوا لصناعته معامل مهمة، وكانت مصانعهم في صيدون والصرفند أشهر معامل من نوعها في العالم المعروف وقت ذاك، وفي متاحف أوربا الآن الكثير من مصنوعات صيدا الزجاجية الملونة الجميلة.

وبرع أهل صيدا كذلك في صنع الأواني الخزفية، فكانت من أخص أصناف تجارتهم وهم أول من نقل هذه الصناعة إلى بلاد اليونان، كما تفوقوا في صناعة الحضر والنقش وصب الذهب والفضة، ومختلف المصنوعات المعدنية، كما امتازوا بالمصنوعات النحاسية، وصنع الأسلحة، وحلي العاج، وزراعة الكروم واستخراج الخمور منها، وكان للخمر الصيدوني شهرة، لا سيما في بلاد اليونان. كذلك مهروا في هندسة البناء، وهم أول من عنوا بتبليط الشوارع، واحرزوا في صناعة السفن نصيباً وافراً من المجد والشهرة، وكانوا أسبق الأمم إلى ركوب البحر والتوغل فيه[1].

هذا وقد كانت صيدا في معظم تاريخها القديم تتبع مصر، منذ عهد تحوتمس الثالث ١٤٩٠-١٤٦٣ق.م.

ومما جعل مدينة صيدا ميناءً بحرياً ممتازاً ومركزاً تجارياً مزدهراً موقعها الطبيعي على الشاطئ. فإنها كانت تقوم وراء رأس داخل في البحر تحيط بجهته الشمالية مجموعة جزر صغيرة طولها نصف ميل وكأنها حائط يصد أمواج البحر فتقي المراكب شرها. وقد دلت الصور المأخوذة من الجو أنه كان لصيدا ميناءان: داخلي وخارجي. فهي تختلف من هذه الناحية عن أرواد وصور[2].

٥- صور:

كانت صور، (ومعنى اسمها «صخر») مثل صيدا، قائمة على رأس داخل في البحر تحميه صخرة طولها قرابة ميل وعرضها ثلاثة أرباع الميل. وهذه الجزيرة كانت ميناء أميناً للمراكب في العاصفة وملجأ للسكان زمن الحرب وكان للمدينة ميناءان مستقلان الواحد مدخله إلى الجهة الشمالية وكانوا يسمونه الميناء الصيداوي، ومدخل الثاني في الجهة الجنوبية، وكان يعرف بالميناء المصري. يقول عنها حزقيال النبي «... الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة»[3]. وكانت

١- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩٤، ص ١٥٢- ١٥٤.

٢- د. فليب حتي: تاريخ لبنان، ص ١١٨- ١١٩.

٣- حزقيال ٢٧ : ٣.

صور البرية قوية الحصون، وكان يأتيها الماء من نبع يعرف الآن برأس العين. وازدياد ثروتها واحتمال غزوها حمل أهلها على الاعتماد على صور البحرية لا كمخزن للبضائع أو كملجأ أمني فحسب، بل على أنها المدينة الأصلية. فصارت صور مثل أرواد مدينة على جزيرة. وعندما زارها هيرودوتس في منتصف القرن الخامس قبل المسيح أكد له كهنة ملقارت إله المدينة أنه كان مضى على تأسيس مدينتهم إذ ذاك ٢٣٠٠ سنة. غير أن يوسيفوس لا يرجع زمن تأسيسها هذا إلى التاريخ البعيد بل يقول إنها بنيت قبل بناء هيكل سليمان بـ ٢٤٠ سنة. وقد أعجب هيرودوتس بهيكل ملقارت الذي كان يسميه هرقل أيما إعجاب. فقد كان في هذا الهيكل، فضلاً عن الهدايا والتقدمات العديدة «عمودان، الواحد من الذهب الصافي، والثاني من الزمرد الذي كان يلمع في الظلام».

وما أن استهل القرن العاشر حتى أصبحت صور دولة قوية كسفت عظمتها مدينة صيدا التي أصبحت مدينة ثانوية. ذلك أن صيدا كانت نحو ١١٧٠ق.م. قد أصيبت بكارثة ساحقة. فإن الفلسطينيين دمروا أسطولها واحرقوا المدينة. وأشهر ملوك صور حيرام الأول (احيرام ٩٦٩-٩٢٥٦) ابن أبي بعل صديق الملك سليمان العبراني وحليفه. فقد بلغت المدينة أيام ملكه شأواً عظيماً. ويرجح أنه هو الذي بنى أسوارها العظيمة الحصينة جاعلاً منها أحصن ميناء في شرقي المتوسط. وقد كان القسم الرئيسي من المدينة في أيامه في الجزيرة حيث كان يقوم هيكل ملقارت والقصر الملكي والأسواق التجارية. وقد امتدت سلطة صور أبعد من الشاطئ الفينيقي. فإن يوتيكا التي ثارت أعيد إخضاعها. وكان الصورانيون أشد مغامرة من الصيدانيين، يدلك على ذلك إيغالهم بأساطيلهم غرباً. وقد خلف حيرام ابنه بعل اتصر، ومن بعده عبد عشترت ٩١٨-٩٠٩ الذي خلع. وبعد مضي فترة اضطراب وقلاقل عادت صور إلى الاستقرار إذ تولى اتو بعل (٨٨٧-٨٥٦) العرش.

واتو بعل هذا هو الذي زوج ابنته إيزابل من ملك إسرائيل آخاب (٨٧٥-٨٥٣). وقد امتد ملك اتو بعل شمالاً إلى بيروت، وكان يشمل جزءاً من قبرص. وذكره وارد في سفر الملوك الأول (١٦ : ٣١): «ملك الصيدانيين» ذلك لأن الفينيقيين آنذاك كان

يعرفون بالصيدانيين. والفينيقيون كان يسمون أنفسهم أحياناً صورانيين وأحياناً أخرى صيدانيين. وقد تزوجت ابنة إيزابل، واسمها، واسمها اثليا، يهورام ملك يهوذا، ولكنها استولت على العرش وجلست عليه ملكة على يهوذا فترة مدتها ست سنوات. وقد كانت ايزابل هي التي ساعدت على إدخال عبادة ملقارت إلى شمال مملكة إسرائيل.

ولما أخضع الآشوريون الشاطئ الفينيقي في أواخر القرن الثامن، كان ذالك إيذاناً بأن نجم صور قد أفل وعظمتها قد زالت[1].

٦ـ طرابلس:

تقع طرابلس على مبعدة ٩٠ كم شمالي بيروت، ويخترقها نهر «قاديشا» من الجنوب إلى الشمال، بحيث يقسمها إلى مركزين عمرانيين متميزين، يتدرجان في الارتفاع، أحدهما على الضفة اليسرى من النهر ويعرف اليوم باسم «تل أبي سحرة». وأما القسم العمراني الثاني فيقع على ضفة نهر أبو علي اليمني، ويطلق عليه «تل القبة». وتصل مياه نهر أبو علي إلى الطبقات العليا من دور طرابلس المرتفعة التي يرقى إليها بدرج.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مدينة طرابلس الحالية هي من عمل السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون ١٢٢٣-١٢٩٠م، الذي فتح طرابلس في عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، في الموضع الذي كان يقوم فيه الريض الصليبي بأذى قلعة صنجيل.

وأما طرابلس التي كانت على أيام الصليبيين، فقد خربتها جيوش قلاوون.

وأما طرابلس القديمة - وكانت تعرف بالميناء - فهي شبه جزيرة، يحيط بها البحر من ثلاث جهات، وتبعد عن طرابلس المحدثة بنحو ٣ كيلومتر، وما زالت حتى اليوم مركزاً عمرانياً قائماً بذاته.

ولفظة طرابلس إغريقية، بمعنى «ثلاث مدن» وهو تفسير شاع بين المؤرخين الذين يرجعون هذا الاسم إلى الإغريق، اعتماداً على أن طرابلس كانت تتكون من أحياء ثلاثة (حي الصوريين، وحي الصيداويين، وحي الأرواديين).

١ـ المرجع السابق، ص ١٢٠

غير أن طرابلس مدينة فينيقية، أسست ربما في القرن السابع قبل الميلاد، ومن ثم فإن لها أسماً فينيقياً أقدم من اسمها السامي، وهو «أثر»، وقد عرفت منذ العصر الفارسي (السادس قبل الميلاد)، بعد أن أصبحت تمثل اتحاد المدن الفينيقية، في السنة الأولى من عهد الملك الفارسي «ارتكز راكسيس» (٣٥٨-٣٣٨ق.م) والمعروف باسم «أخوس» - وتطالع هذا الاسم على العملات التي يرجع تاريخها إلى عام ١٨٩/١٨٨٠ق.م، هذا وقد أطلق الإغريق على المدينة اسم «تريبوليس» (طرابلس - بمعنى ثلاث مدن) - بجوار اسمها الفينيقي السامي «أثر».

وكانت المدن الفينيقية تتمتع بالاستقلال في العهد الفارسي وقد حاولت هذه المدن إنشاء اتحاد بينها، ترأسه مدينة طرابلس، والتي كانت تتألف من ثلاث جاليات (صيداوية وصورية وأروادية) وكانت المدن الفينيقية الأربع (صيدا وصور وأرواد وطرابلس) تعقد مؤتمراً سنوياً في مدينة طرابلس يحضره نحو ٣٠٠ معتمد، يبحثون فيه كل المشكلات والشؤون التي لها علاقة بمصالح البلاد عامة.

ومع ذلك فإن اسم طرابلس الفينيقي غير معروف، ويرجح «أنيس فريحة» أن يكون «تربيل» Tur-bil أي جبل الإله بيل - هو الاسم الفينيقي للمدينة وقد عرفت به منذ تأسيسها، ثم أضيفت إليه اللاحقة الإغريقية (S). ويعتمد الدكتور فريحة في ذلك على حقيقة جغرافية مهمة، وهي أنه - على مقربة من طرابلس - يوجد جبل يدعى «تربل» - أي جبل الإله أو الله.

ولعل اسم «تربل» - أو حتى طوربيل - قد حرف فيما بعد على أيدي الإغريق، بعد أن أضيفت اللاحقة الإغريقية إلى تربيل فأصبح «تريبوليس»، تأكيداً لوجود ثلاثة أحياء في المدينة، تمثل المدن الفينيقية الثلاث - صور وصيدا وأرواد - فأصبحت لفظة تريبوليس Tripolis اليونانية التي تتشابه في نطقها مع تربيل، وتعني المدينة ذات الأحياء الثلاثة، ثم عربت اللفظة الإغريقية إلى «طرابلس»، على نحو ما حدث في تسمية «طرابلس الغرب» في ليبيا.

ولما نجح الإسكندر المقدوني في سحق الفرس في موقعه إيسوس عام ٣٣٣ق.م. سرعان ما زحف إلى المدن الفينيقية واستقبله القوم هناك بلهفة وفرح على أنه المخلص

لهم من حكم الفرس واستبدادهم، وما لبثت طرابلس أن استسلمت لقواته في عام ٣٣٢ق.م. وبموت الإسكندر في بابل أصبحت طرابلس من ممتلكات «أنتيجونوس». وقد أقيمت في طرابلس - كما أقيمت في جبيل وصيدا - دور لصناعة السفن، وظلت فينيقيا كلها ممزقة بين القوتين الجديدتين: قوة البطالمة في مصر، وقوة السلوقيين في سوريا.

وعلى الرغم من الطابع الهيليني، الذي أخذ يشمل كل مناحي الحياة الفينيقية - مادية وأدبية - فإن الجوهر الفينيقي بقي سليماً، واحتفظ الساميون بعاداتهم الموروثة، وكانت حركة التأغرق حركة ظاهرية أكثر منها واقعية، فسرعان ما أخذت المدن السورية القديمة التي تأغرقت، تسترد شخصيتها السامية من جديد، وإن احتفظت مدينة «تريبوليس» باسمها الإغريقي، وهو الاسم «تريبوليس» الذي عربه الفاتحون العرب إلى طرابلس[1].

٧ـ بيروت:

بيروت Berouth (وهي بئرونا في رسائل العمارنة بمعنى الآبار) مدينة فينيقية قديمة، على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط. واسمها القديم «بيروتا»، وهي لفظة سامية بمعنى الآبار والينابيع، وفي الأكادية «بورتو»، من نفس جذر لفظة «بير» العربية.

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن مدينتي «بيروت» و «جبيل» هما أقدم مدن الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ومما يشير إلى ذلك العثور على أحجار صوانية مشغولة، ترجع إلى أزمنة مترامية في القدم.

هذا وقد عثر في بيروت على تمثال صغير لأبي الهول، هذا فضلاً عن قلادة الملك «أمنحات الرابع» ١٩٩١-١٧٨٦ق.م. مما يشير إلى أن بيروت - شأنها في ذلك شأن جبيل - إنما كانت على علاقات تجارية متطورة، منذ القرن الثامن عشر ق.م.

هذا وقد تردد اسم «بيروت» كثيراً في رسائل العمارنة على أنها خاضعة للحكم المصري. وكانت بيروت المدينة الوحيدة من مدن الساحل التي كان لها مقام ثقافي فضلاً عن كونها قاعدة الأسطول الروماني في الجزء الجنوبي الشرقي من البحر

١ـ د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، مرجع سابق، ص ١٧٨ـ ١٧٩.

المتوسط، كما كان أهلها - باعتبارها مستعمرة رومانية - يتمتعون بامتيازات الحكم الذاتي، والإعفاء من ضريبتي الرؤوس والخراج، ثم ألغيت هذه الامتيازات عندما أصدر «كركلا» ٢١١-٢١٧م قانوناً بمنح حق المواطنة لجميع المواطنين الأحرار في إمبراطوريته، ومع ذلك فقد أصبحت بيروت وبعلبك مركزاً للحياة الرومانية في بلاد هلينية الحضارة[1].

١- المرجع السابق، ص ١٨١- ١٨٢.

النظم السياسية والعسكرية

النظم السياسية:

من المعروف أن المدن الفينيقية الشرقية بقيت من الناحية السياسية مستقلة عن بعضها بعضاً وكل واحدة منها تهتم بمصالحها الذاتية المباشرة، وحول كل منها مساحة من الأرض تكوّن «إمارتها أو مملكتها». وهذه كانت عادة صغيرة الحجم، لا تزيد عن الأرض اللازمة لإنتاج الغذاء لحاجة السكان. ولا بد أن المدن الكبرى، ولا سيما صور وصيدا، مارست نوعاً من السيادة على مدن أخرى في بعض الأوقات على الأقل.

ومما لا شك فيه أن المدن الفينيقية لم تتحد فيما بينها كما أن الفينيقيين لم يتطوروا إلى مرحلة تكوين دولة فينيقية موحدة تضم العناصر الفينيقية كما يتضح ذلك مما ذكره هيرودوتس من أنه وجد ثلاثة رؤساء للأسطول الفينيقي في أسطول أجزركسيس الفارسي أثناء حملته على اليونان سنة ٤٨٠ق.م. وهم «تيترا منيستوس الصيدوني وماربالوس الأروادي وماتان الصوري. فلو أنه كان هناك اتحاد فينيقي لكانت مجموعة السفن الفينيقية تحت قيادة موحدة.

ولم تكن مدينة قرطاجة دولة إمبراطورية بمعنى الكلمة مع أنها أخضعت لسلطانها أكثر المدن الفينيقية الأخرى في الغرب نظراً لتفوقها التجاري والعسكري، فهي لم تنظر إلى هذه المدن على اعتبار أنها ممتلكات لها، ولم تعتبر مواطني هذه المدن مواطنين قرطاجيين - ومن جهة أخرى فإن هذه المدن أصدرت عملتها المستقلة عن عملة قرطاجة كما هو الحال في مدن «صقلية» وفي «قادس» في أسبانيا و «ايبيزا» بالبليار حتى في أوج سلطان قرطاجة. ولدينا نقش من جزيرة

مالطة يدل على أن هذه الجزيرة كان لها كيان سياسي مستقل، يحكمها حاكمان Suffetes ومجلس شيوخ ومجلس شعبي كما كان لقرطاجة تماماً، كما وردت إشارات من مصادر أخرى عن وجود «سوفيتيس» في مدن أخرى مثل «ثاروس» و «قادس»، ومن ناحية أخرى كان لهذه المدن أسوارها وحصونها للدفاع عنها ولكن لم يكن لها إلا في حالات نادرة جيش وأسطول، ويبدو أنها اعتمدت أساساً على قرطاجة لتسرع إليها في وقت الضرورة إذا ما اعتدى عليها معتد، وتتضح هذه الحقيقة مما ذكره المؤرخ توكيديدز فيما يختص بعلاقة المستعمرات الفينيقية في صقلية حيث أشار إلى أنها تركزت بالقرب من قرطاجة التي كانت تقوم بدور الحامية والزعيم لها. أما عن مدينة قرطاجة ذاتها، فكانت مثل غيرها، تسيطر على مساحة من الأرض الزراعية التي تحيط بها ويسميها الرومان Territovium (أي إقليم أو ولاية)، وفي القرن الخامس امتدت مساحة هذه الأرض حتى شملت مساحة كبيرة من شمال شرق تونس بما فيها بعض المدن الصغيرة الأخرى التي كانت مستقلة من قبل[1].

وفي بعض المراحل كانت هذه المساحة من الأرض محاطة بخندق، ويهمنا أن نعرف حدود هذا الخندق لأنه يمثل الحدود السياسية لدولة قرطاجة في أعقاب الحرب البونية الثانية. أي سنة ٢٠١ق.م، على أن امتلاك قرطاجة لمثل هذه المساحة من الأرض لم يحولها من مدينة إلى دولة ولكنه هيأ لها مساحة كبيرة من الأرض الزراعية كافية لإعاشة جميع سكانها على نحو يحميهم من المجاعة في حالة انقطاعهم عن العالم الخارجي بسبب ظروف الحروب المختلفة - ومع ذلك يبدو أن قرطاجة مارست الحكم المباشر خارج حدود أرضها في جزيرة سردينيا وفي أسبانيا فقط، فنحن نعرف أنها ضمت إليها سهول المناطق الجنوبية والغربية في سردينيا في شكل ولاية وأنها نقلت إليها أهالي من أفريقيا لزراعة الأرض هناك وأنها أبعدت التجار الأجانب من منطقة نفوذها، وقد أصرت قرطاجة على أن تزرع الأرض الخصبة بالغلال كما أنها أحسنت استغلال المناجم فيها استغلالاً مجزياً من الناحية الاقتصادية وبخاصة مناجم الرصاص والفضة.

١- د. محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، مرجع سابق، ص ١٠٧- ١٠٨.

وبعد الحرب البونية الأولى حدث شيء شبيه بذلك في أسبانيا نتيجة لغزوات هاميلكار وهسدر وبعل وهانيبعل - ومن العسير علينا أن نحدد مساحة المنطقة القرطاجية في أسبانيا، ولكن لا بد وأنها كانت مترامية جداً ونعرف أنها بناء على اتفاقية بين هسدر وبعل ورما سنة ٢٢٨ق.م بسطت نفوذها فيها إلى نهر «ايبرو» وأن هذه المساحة الشاسعة كانت تحكم وتدار من قرطاجة وأنها كانت تدفع الجزية لها، وتمدها في وقت الحرب بالإمدادات العسكرية والمعونة والمؤن شأنها في ذلك شأن الأراضي التابعة لقرطاجة في أفريقيا - ويمكننا أن نتصور أن سلطان قرطاجة في غير هاتين المنطقتين في الغرب كان ينتشر بطريق غير مباشر، ومع ذلك فلا بد أنها تمتعت بسلطان أدبي كبير في جميع المدن الفينيقية في غرب المتوسط طوال فترة قوتها وسيادتها التجارية والعسكرية، أي قبل أن تتحطم قوتها أمام روما، ولم تجرؤ مدينة واحدة منها على معارضة سياسة أو أعمال قرطاجة، ولكن بما أن هذا النفوذ وهذا السلطان كان ذا طابع أدبي بحت ولا تسنده حامية عسكرية ولا وسائل التحكم السياسية المختلفة فإن الإمبراطورية القرطاجية لم تكتسب صفة الارتباط والاندماج الوثيق، وسرعان ما تفككت وانفرط عقدها حينما حلت بها أيام الضعف والهزيمة.

هذا من حيث شكل الدولة في المدن الفينيقية سواء في الشرق أو في الغرب ومدى توسعها ونفوذها - أما عن نظام الحكم فيجب أن نذكر أن سكان هذه المدن باعتبارهم كنعانيين أصلاً، فهم من العنصر السامي، الذي كان البداوة من صفاته وكان يخضع لنظام القبيلة في أول الأمر. ونحن نعرف أن النظام الأساسي للقبيلة السامية يتلخص في وجود رئيس أو شيخ للقبيلة يختار من بين الأسر العريقة القوية التي تنقسم إليها القبيلة، وكثيراً ما تنحصر الرياسة في أسرة معينة بعض الوقت حين يعظم شأنها، وإلى جانب رئيس القبيلة هناك عادة مجلس من شيوخها ورؤساء عشائرها الذين هم أصحاب الرأي في القبيلة، ثم هناك كذلك مجلس عام لرجال القبيلة - هذا النظام القبلي المعروف بين القبائل السامية عرفه كذلك الكنعانيون، ولا بد أن سكان المدن الساحلية مروا أيضاً بهذه المرحلة في فترة تاريخهم الأولى، ولكنهم بعد أن استقروا في المدن اتخذوا نظاماً سياسياً متطوراً عن النظام القبلي

حيث أصبح منصب ملك المدينة بديلاً عن منصب رئيس القبيلة، ويبدأ هذا النظام الملكي بالظهور في الوثائق التاريخية ابتداءً من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كما هو واضح من رسائل تل العمارنة التي تشير بصورة دائمة إلى وجود ملوك أو أمراء على رأس هذه المدن، أما قبل ذلك فإن قصة سنوحي الذي عاش في القرن العشرين قبل الميلاد تدلنا على أن المنطقة التي اتصل بها كانت لا تزال في مرحلة أقرب إلى البداوة ويسودها النظام القبلي[1].

ويتضح من قراءة الوثائق المصرية والآشورية أن النظام الملكي الذي ساد في مدن الساحل الفينيقي ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد كان وراثياً من حيث المبدأ ولو أنه لم يكن كذلك دائماً في الواقع بسبب التطورات والأحداث الطارئة سواء بفعل ظروف داخلية أو خارجية، وباستطاعتنا أن نصوغ قوائم بأسماء بعض الملوك لعدد من المدن وإن كانت لا تخلو من فجوات، ومن هؤلاء الملوك «حيرام» ملك صور، و «لولي Luli» ملك صيدا وصور وغيرهما - ولا تنحصر معرفتنا عنهم في مجرد أسمائهم بل لدينا معلومات تاريخية وافرة عنهم بفضل ما خلفوه من نقوش وعن طريق مصادر أخرى، فقد ورد ذكرهم في التوراة وفي السجلات الآشورية وفي كتابات مؤرخي الإغريق والرومان المتأخرين - ومن جهة أخرى نجد ما يشير إلى تأسيس أسر مالكة في بعض المدن ولكن لا نعرف شيئاً يذكر عن ملوكها - فلا شك في أن «اليسا» Elissa (والتي تسمى أيضاً لدى اللاتين ديدو Dido) قد أنشأت عند هجرتها إلى قرطاجة أسرة ملكية، ولكن ليس لدينا سجل بحكم هذه الأسرة - أما الأسرة الملكية التي وجدت بقرطاجة بعد ذلك بأعوام كثيرة فإننا نعرف أن من بين ملوكها «هاميلكار» الذي غزا صقلية سنة ٤٨٠ق.م وكذلك المكتشف حنون فكل منهما أطلق عليه لقب ملك.

ولكن ينبغي أن نذكر دائماً أن سلطان الملك في المدن الفينيقية كان يحد منه مجلس الشيوخ وهو في واقع الأمر تطور لمجلس شيوخ القبيلة. ولكنه في المدن الفينيقية كان يؤلف من أكثر التجار ثراء في المدينة. وهذا النظام ذاته أي سيادة

١- المرجع السابق، ص ١٠٩- ١١٠.

طبقة من الأغنياء وجد أيضاً في قرطاجة ولعله ظاهرة طبيعية في دولة تعتمد في مواردها الرئيسية على التجارة، فالطابع التجاري غالب على جميع مظاهر الحياة في المدن الفينيقية سواء في الشرق أو في الغرب - ولقد ألقت نصوص رأس شمرا ضوءاً جديداً على هذه الناحية حيث أشارت إلى وجود وكالات للأقمشة المصبوغة باللون القرمزي وذكرت أصناف الحرف المختلفة الموجودة بالمدينة، ولكل من هذه رؤساء يديرون أمورها ويشرفون عليها ويسمى الواحد منهم «رب الحرفة» أو رئيس محترفيها - وعلى هذا الأساس نفسه كان رؤساء القوافل من أعظم الشخصيات عند أهل تدمر الذين كانوا شعباً تجارياً كالفينيقين ولكنهم تخصصوا في الطرق البرية - وبمرور الزمن ونشاط التجارة وانتشار حركة الاستعمار الفينيقي ازدادت الأسر التجارية الكبرى ثراء من ناحية وقوة وسلطاناً من ناحية أخرى وانعكس ذلك كله في مجلس الشيوخ حيث وصل الكثيرون منهم إلى عضويته فإذا به يصبح هيئة لها خطورتها في توجيه السياسة ويكاد يساوي سلطة الملك نفسه، فكان في مقدور أعضاء مجلس الشيوخ في مدينة صور مثلاً أن يتخذوا قراراً في غيبة الملك، وفي مدينة صيدا كان في استطاعتهم متى شؤوا أن يتخذوا قرارات ضد قرارات الملك - وكان عدد أعضاء مجلس الشيوخ في مدينة جبيل أيضاً ولكنه لم يذكر عدد أعضائه.

هذا التطور الذي طرأ على مجلس الشيوخ في مطلع الألف الأول قبل الميلاد بلغ مداه بعد ذلك، وحدث تطور سياسي على نحو ما حدث في المدن اليونانية أيضاً إذا استطاع رؤساء الأسر الثرية ممن يمثلون الأرستقراطية في المدن الفينيقية من أن يستولوا على الحكم وأن يتخلصوا من النظام الملكي.

وهكذا قامت في المدن الفينيقية حكومات الأقلية أو الأوليجاركية وكما حدث في المدن اليونانية وفي روما بعد خلع الملوك، أصبح مجلس الشيوخ هو الهيئة الرئيسية في البناء السياسي للدولة، ولكننا لا نعرف على وجه التحديد متى حدث هذا التحول من الملكية إلى الجمهورية الأوليجاركية وإن كان من المرجح أنه حدث بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد - ومن المرجح أيضاً أن هذا التحول حدث في مدينة قرطاجة في القرن الخامس قبل الميلاد.، وأصبح النظام العام للحكومة يقوم على

ثلاثة أركان هي: حاكم أو أكثر ينتخب لمدة سنة وإلى جانبه مجلس للشيوخ ثم مجلس للعامة[1].

النظم العسكرية:

عاش الفينيقيون في ظروف وبيئة جعلت منهم بحارة أكثر منهم جنوداً، وربما يبدو ذلك غريباً لما تمتعت به الجيوش القرطاجية من مميزات تحت قيادة «هانيبعل»، ولكن واقع الأمر يؤيد ما ذهبنا إليه حيث أن جيوش «هانيبعل» لم تكن بأكملها مؤلفة من الفينيقيين بل كانت تضم ايبيريين وليبيين وغاليين وإيطاليين.

ولما كانت بلاد الفينيقيين في المشرق تقع على الطريق البري بين مصر وبين أعظم أقطار غرب آسيا فإنها كانت دائماً في طريق الغزاة، وفي أغلب الأحيان كان عليها إما أن تقاوم ما يفرض عليها من حصار أو أن تفتح أبوابها للغزاة دون مقاومة، فهذه البلاد حتمت عليها الضرورة أن تكون جيدة التحصين، ومما يؤيد ذلك ما يظهر في النقوش الآشورية على بوابات «بالاوات» البرونزية التي من عهد شلمناصر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ق.م) حيث نتبين فيها منظر سور مدينة صور ذي الأبراج والشرفات فوق جزيرتها الصخرية، كما نتبين أسوار هذه المدينة في نقوش سنحريب (٧٠٥-٦٨١ق.م) في «كيو نجك» وتمثل «لولى» ملك صور وصيدا وعائلة عند هروبهم من المدينة، وتظهر صورة المدينة الفينيقية المحصنة على بعض عملات صيدا التي ترجع إلى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد. - ويمكننا أن نتصور ما يؤدي إليه حصار مدينة فينيقية محصنة مثل صور على ضوء ما ورد في نبوءة حزقيال. حيث جاء فيها: «... هكذا، قال السيد الرب: ها أنذا أجلب على صور «نبوخذنصر» ملك بابل... فيقتل بناتك في الصحراء بالسيف: ويجعل عليك مترسة ويركم عليكم تلاً ويرفع عليك المجنب ويلقي على أسوارك صدمات منجنيقه ويهدم بروجك بأدوات حربه... وحوافر خيله تطأ جميع شوارعك ويقتل شعبك بالسيف وأنصاب عزتك تهبط إلى الأرض ويسلبون ثروتك

١- المرجع السابق ص ١١١- ١١٢.

وينهبون تجارتك وينقضون أسوارك ويهدمون بيوتك الشهية ويلقون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه»[1].

ولا نعرف إلا القليل عن أي عملية عسكرية برية اشترك فيها الفينيقيون الشرقيون أو منظماتهم، ولو أن مثل هذه العمليات قد حدثت بالفعل حيث إننا نعرف مثلاً أن «شلمناصر الثالث» هزم ملك أرواد هزيمة ساحقة كما يبدو ذلك في نقوش بوابات «بالاوات» سالفة الذكر - أما معلوماتنا عن أساطيل هؤلاء الفينيقيين فهي أكثر من ذلك كثيراً، فمن المعروف أن القوى العظمى التي كان على الفينيقيين أن تتعامل معها كانت قوى برية (غير بحرية) فإذا ما احتاجت هذه القوى إلى أساطيل بحرية فإنها كانت تلجأ إلى الفينيقيين ليمدوهم بها ويزودونها بالرجال والعتاد، وقد استخدمهم «سرجون الثاني» حينما هاجم قبرص، كما ساعدت أساطيل الفينيقيين الفرس في حروبهم، حيث استعان بهم «دارا» في حربه ضد اليونانيين الأيونيين كما أن أسطول «أكزركسيس» في سلاميس سنة ٤٨٠ق.م كانت به ٣٠٠ سفينة ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف من بين ١٢٠٧ سفينة، وكان بحارتها يرتدون خوذات. ومشدات للخصر من الكتان ويحملون دروعاً خفيفة ونبال - وحارب جزء الأسطول المكون من الفينيقيين (الذي كان يعد أحسن أقسام الأسطول) على الجناح الأيسر في مواجهة الأثينيين وأبلى بلاءً حسناً كالمعتاد، ولم تكن سفنهم ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف التي استعملوها حينئذٍ من طراز السفن الحربية الحديثة في ذلك العهد على الرغم من أن كانت السفن التي استخدمت في الحروب حتى موقعه «الأليا»[2] (٥٣٥ق.م) كانت خمسينية (أي تحمل كل منها ٥٠ مجذافاً) فهذه الأخيرة أقدم كثيراً وأصغر حجماً حيث يقول المؤرخ الأثيني توكيديدز أن الكورنثيين كانوا أول من بنى السفن الثلاثية الصفوف من المجاذيف (نحو ٧٠٠ ق.م) بين اليونانيين ويمكن أن نتصور بأن رواية «كليمنت

١- حزقيال ٢٦/ ٧- ١٢.

٢- الأليا: معركة بحرية هزم القرطاجيون فيها الفوكايين (الذين كانوا قد تركوا مدينتهم في ايونيا بعد ان فرض كورش سلطانه عليها، واسسوا مستعمرة «الأليا» في كورسيكا ودمروا مستعمراتهم سنة ٥٣٥ق.م.

السكندري» عن أن الصيدونيين هم الذين اخترعوها لها نصيب من الصحة بينما كان «نخاو» (ثاني ملوك الأسرة ٢٦ المصرية) يستعمل سفناً ثلاثية صنعت في مصر سنة ٦٠٠ق.م حسب ما رواه هيرودوتس - والظاهرة العامة في كل السفن الحربية في ذلك الوقت تتمثل في مقدماتها المدببة لتدك أعداءها أو لتقصف ريش (نصال) مجاديفها عندما تمر بجوارها ، ويقول البعض إن ذلك كان اختراعاً فينيقياً ولكن شيئاً مماثلاً وجد في السفن الممثلة على نصل خنجر يرجع إلى عصر البرونز المبكر عثر عليه في «دوراك» بفريجيا في آسيا الصغرى مما يوحي، من جهة أخرى، بأنه اختراع إيجي نقله الفينيقيون عن الميكينيين.

ويبدو أن الموانئ الفينيقية الشرقية كانت بصفة رئيسية مرافئ (مراسي) تحتمي بها السفن، فحينما رأى حيرام ملك صور أن موقع مدينته أمام جزيرتين غير بعيد عن الشاطئ يهيئ فرصة طيبة لإنشاء مرفأين بينهما وبين المدينة أحدهما شمالي والآخر جنوبي ليكفل حماية السفن بهما مهما كان اتجاه الرياح وهو نظام أصبح معتاداً في فينيقيا وما زال المرفأ الشمالي باقياً تستعمله القوارب المحلية بينما ردم المرفأ الجنوبي بفعل حاجز الأمواج الذي أقامه الإسكندر ، ومع ذلك يبدو أن الفينيقيين الشرقيين لم يعرفوا الأحواض الداخلية.

ومن الروايات المفصلة التي تركها «بوليبيوس» و «ليفي» وغيرهما عن حروب صقلية وروما عرفنا عن عادات القتال التي مارسها الفينيقيون قدراً أكبر كثيراً مما نعرفه عن تلك التي مارسها الفينيقيون في المدن الشرقية - فقرطاجة بما وراءها من بقاع داخل القارة وجدت بمرور الزمن أن رعاياها الأفريقيين يشكلون جنوداً ممتازين فاستخدمتهم إلى أقصى حد ، ولكن ذلك أدى إلى ضرورة إعداد القرطاجيين أنفسهم كذلك للقتال براً في أوقات الثورات الأهلية[1].

وبحلول حرب «مالخوس» وخلفائه من أسرة «ماجون» في القرن السادس قبل الميلاد لا بد وإن صار لقرطاجة جيش قوي من كل من المدنيين ومن الرعايا الذين لم يكونوا مدربين على القتال وقد كون هذا بالإضافة إلى تعزيزات من المدن

١- محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، مرجع سابق، ص ١٣١ - ١٣٢.

الحليفة في صقلية ومن المرتزقة قوة هائلة، وقد اشتبكت قرطاجة منذ أواخر القرن الخامس قبل الميلاد حتى هزيمتها الأخيرة سنة ١٤٦ق.م في حروب متكررة ولكنها لم تنشئ جيشاً دائماً (تحت السلاح) ولم يكن ذلك شأن اليونان أو الرومان في ذلك الوقت أيضاً حيث أن قوات الرومان الدائمة لم توجد قبل القرن الأول قبل الميلاد.

ولم يكن لقرطاجة كذلك هيئة للضباط المحترفين وكان قوادها يعينون لمدة عام - وحينما يكونون ناجحين وأقوياء يظلون في القيادة سنوات طويلة كما حدث بالنسبة لعائلة «بارسيد» Barcud أثناء الحرب البونية الثانية فقد ظل كل منهم في القيادة سنوات طويلة ولا بد أن ذلك قد مكن قرطاجة من التفوق على خصومها وبالمثل حين كان يتفوق الخصوم الناجحون فإنهم كانوا يظلون في مراكزهم فترات طويلة مثل «ديونيزيوس» حاكم سيراكوز (مات سنة ٣٦٧ق.م) و (تيموليون) القائد اليوناني (الذي أرسله الكورنثيون لتنظيم شؤون المستعمرات اليونانية التي استنجدت بالوطن الأم أي اليونان بسبب الحروب الدائمة التي تتعرض لها)، و «اسكيبيو افريكانوس» (مات سنة ١٨٢ق.م) الذين استطاعوا هزيمة قرطاجة.

وقد لعب استخدام الجند المرتزقة دوراً مهماً في حروب قرطاجة الكبيرة ولم يكن ذلك فكرة جديدة بل شاع في الشرق منذ زمن طويل ويشير سفر حزقيال إلى ذلك في كلامه عن صور في القرن السادس قبل الميلاد حيث ورد فيه: «فكانت فارس ولود «ليديا» وبوت (بونت) في جيشك، رجالك المحاربين»[1]. ثم نشط استخدامهم بعد ذلك سريعاً في القرن الخامس قبل الميلاد عامة حيث يذكر ديودور بأن هاميلكار استخدم في جيشه مرتزقة من إيطاليا وغالة وأسبانيا في معركة «هيميرا» بصقلية سنة ٤٨٠ق.م - وقد حارب اليونان أنفسهم فيما بعد كمرتزقة للقرطاجيين ضد اليونان، وفي بعض الأحيان مثلاً كما حدث عند استيلاء «ديونيزيوس» على «موتيا» (بصقلية) سنة ٣٩٨ق.م - لقوا اهتماماً ضئيلاً من آسيرهم أبناء جنسهم غير أن القوة القتالية الرئيسية في الجيوش البونية كانت من أهل قرطاجة أنفسهم ومن رعاياها وأهمهم الليبيون والأسبان

١- حزقيال: ٢٧/ ١٠.

وهو ما يمكن توقعه، وعلى الرغم من أن تكاليف المرتزقة كانت باهظة فقد ظلت قرطاجة لا تستغني عنهم إلى آخر الحرب البونية الثانية في معاركها الكبيرة مع أنها كانت ذات إمبراطورية واسعة يمكنها أن تجند منها. كذلك لم يكن مثل هؤلاء الرجال أيضاً مطيعين (ليني العريكة) كما تحققت من ذلك في حرب المرتزقة عندما عجزت عن دفع أجورهم في نهاية الحرب البونية الأولى.

وقد استخدمت الجيوش البونية في معاركها مشاة فرودين بأسلحة ثقيلة، ولا بد أن جنود اليونان والجنود المرتزقة (ومعظمهم من اليونان في الجبهتين المتعارضتين) كانوا متشابهين في المظهر - فهذه القوات كانت تسلح بالسيف العادي وحربة، وفي أول الأمر كانوا يحملون دروعاً مستديرة، وبعدئذٍ دروعاً مستطيلة، ومثل هذه استخدمها الرومان والغال في الوقت نفسه تقريباً - وفضلاً عن ذلك كانوا يزودون ببزة (عدة) حربية، وقد وجدت صدرية وحامية للظهر من البرونز جميلة الزخرف من القرن الثالث قبل الميلاد بمقبرة في قصور الصف Ksour-es-saf في تونس وهي من إنتاج «كمبانيا» (في جنوب إيطاليا) يحتمل أنها كانت ملكاً لمرتزقة من إيطاليا.

وقد استخدمت جيوش ذلك الوقت قوات من الفرسان والرماة بالمقلاع ورماة السهام وقوات خفيفة التسليح ولم يشذ القرطاجيون عن ذلك، ولما توسع الغزاة المقدونيون، فيليب والإسكندر، في استخدام الفرسان المقدونيين والتساليين حذت قرطاجة حذوهم فشكلت قوات من الخيالة «النوميديين» الممتازين ثم من الأسبان والغاليين فيما بعد حيث كانت منهم قوات خيالة «هانيبعل» حينما دخل إلى إيطاليا التي شكلت نحو ربع جيشه بأكمله - وقد استخدمت قرطاجة إلى وقت اندلاع الحروب البونية كثيراً من العجلات الحربية حيث إنها كانت ترسل مع جيوشها قوات من العجلات الحربية إلى الخارج عبر البحار، إلى صقلية وغيرها.. ويروي «ديو دور» أن عدد العجلات الحربية التي يجر كلاً منها زوج من الخيل يصل في كل مرة تستخدم فيها إلى ٢٠٠٠ عربة، وبفرض أن هذا العدد مبالغ فيه فإنه على الأقل يدل على أن العربة الحربية كانت سلاحاً رئيسياً في القوات القرطاجية - ولا بد أنهم جلبوا استعمالها من الشرق حيث كان قتال العربات اعتيادياً، والعربات الحربية الشرقية

كانت إلى زمن السلوقيين تزود أحياناً بسيوف أو مناجل ومن المحتمل أن العربات القرطاجية كانت كذلك أيضاً.

ويبدو أن إقلاع القرطاجيين عن استعمال العربة يتفق ووقت إدخال الفيل كحيوان للقتال، ولكن يجب ألاّ نفهم وجود صلة مباشرة بين إدخال أحد الأسلحة والإقلاع عن استعمال آخر - وقد أدخلت الفيلة في حروب البحر المتوسط بعد أن التقى بها اليونان في حروب الإسكندر بالهند.

ولما كان لقرطاجة مورد قريب في شمال إفريقيا فإنها جعلتها عنصراً في جيوشها ابتداءً من أوائل القرن الثالث قبل الميلاد حيث استخدموها في صقلية وأسبانيا، وقد نجح هانيبعل بمهارته في العملية الشاقة التي قام بها في جعل أكثر من ثلاثين فيلاً تجتاز جبال الألب في سنة ٢١٨ق.م عبر بها كلها ولم يمت سوى واحد منها من البرد فيما بعد. وفي المعارك الكبرى كان العدد المعتاد للفيلة الذي تحت إمرة القائد يتراوح بين الخمسين والمئة، ومن المؤكد أنها كانت سلاحاً ناجحاً فمن بين نصوص معاهدة السلام ٢٠١ق.م التي أبرمت بعد معركة «زاما» ما يحتم على قرطاجة عدم استخدامها ويوجب عليها أن تتوقف حتى عن اصطياد وأسر فيلة شمال أفريقيا. وفي الشرق كانت الفيلة تحمل المقاتلين في هوادج محصنة، أما في الغرب فإن دورها ينحصر في أن يسوقها سائق بمنخس، وكان الفيل يزود بنوع من الدرع الواقي لجسمه ثم يدفع لاقتحام صفوف العدو فيثير فيها الرعب والاضطراب. وقد أحبط «اسكيبيو» ذلك بأن فتح ممرات بين صفوف جيشه فكانت الفيلة تندفع فيها دون أن تحدث أضراراً ولم تكن هذه الحيوانات نعمة خالصة إذ كانت أحياناً تصاب بالذعر فتهاجم صفوف جيشها.

أما عن فن الحصار الحربي فقد بلغ درجة عظيمة من التقدم خلال القرن الرابع قبل الميلاد وحدث الكثير من هذا التطور في صقلية، ولكن كثيراً من الخطط التي كانت تبدو في ذلك الحين حديثة عهد في غرب البحر المتوسط لا بد وأنها كانت معروفة منذ زمن طويل في الشرق حيث عرف الآشوريون الكثير عن وسائل الحصار الحربي المعتادة مثل المنجنيق وروابي الهجوم والأبراج وتقويض المنشآت من أعلى أو حتى من أسفل الأسوار ومع ذلك فربما كان سلاح وحيد وهو المنجنيق قد اخترعه

«ديونيزيوس» أو اخترع من أجله لأن «ديو دور» يذكر بأن استخدامه لأول مرة كان بواسطته في «موتيا» عام ٣٩٨ق.م. وكان يلقي بكرات المعدن والأثقال لمسافة عدة مئات من الأمتار، وكان أثره حينئذٍ فورياً. ولم تعد المدن تشعر بالأمن داخل سور واحد بل كان لا بد لها من أسوار في صفوف متعاقبة لتبعد المهاجمين فلا تكون في مدى مرماهم ولذلك فإن «موتيا» بسورها الوحيد المشرف على الشاطئ تعرضت بشدة لأضرار حينما أعاد «ديونيزيوس بناء السد (حاجز الأمواج) الموصل بينها وبين اليابسة واستطاع أن يضع أدوات حصاره ويجعل قذائفه بعيدة المدى تصيبها، ولا شك أن مدناً أخرى وقعت سريعاً في المتاعب نفسها.

وقد أفادت قرطاجة من هذا الدرس في القرن الثالث قبل الميلاد حينما قامت ببناء تحصيناتها الشهيرة عبر الجزء الضيق من البرزخ لأنها كانت مكونة من ثلاثة أجزاء: سور سميك ذو أبراج على أبعاد منتظمة واستحكامات (سواء) للرجال والفيلة والخيول في مرحلتين ومتراس متوسط (يحتمل أنه كان سداً ترابياً) وخارج ذلك خندق من خلفه سياج ذو أوتاد. وقد كشف عن هذه السلسة من التحصينات عن طريق التصوير الجوي بواسطة القائد دوفال سنة ١٩٤٩ الذي كشفت تنقيباته بعدئذ عن خندق خارجي عرضه ٢٠ متراً وآخر عرضه ٥,٣ مترا ذو صفوف من ثقوب الأعمدة (الحفر التي كانت تثبت فيها الأعمدة) وبه كذلك حفر ضيقة هي مواضع فلنكات سياج ذي أوتاد فيما بينها، وكانت هناك دهاليز تصل بين الواجهة والمؤخرة على أبعاد منتظمة كما زودت بعض زوايا الحصن بالطوابي، ويتفق هذا تماماً مع وصف «بوليبيوس» عن المنشآت الخارجية، ولكن لم يكتشف بعد خط السور الأساسي الذي كان من داخل كل ذلك[1].

ومع أن الأسطول كان يشمل خط الدفاع الأول عن قرطاجة يبدو أن أساطيلها في زمن الحرب لم تكن على درجة من القوة التي كانت تقدر لها حيث إنها هزمت تكراراً، لا من اليونان فحسب بل ومن الرومان أيضاً على الرغم من أنهم كما يروى، لم يكونوا معتادين على القتال البحري في زمن الحرب البونية الأولى حتى أنهم

١- المرجع السابق، ص ١٣٤- ١٣٦.

استخدموا مقاتلة بونية خمسينية المجاديف أسروها كنموذج لبناء أسطولهم الجديد، ولمعرفتهم بأنهم لا يضارعون أعداءهم في الملاحة اخترعوا جهازاً عبارة عن لوح خشبي سميك ذي كلابة (كويري متحرك) ليمكنهم من الإمساك بالسفن البونية والهبوط إليها وبواسطة هذا الاختراع نجحوا في كسب معركة «ميلاي Mylae» (٢٦٠ق.م) على الساحل الشمالي لصقلية، وهي أول اشتباك بحري عظيم في الحرب. وفي ثلاث معارك أخرى من بينها آخر هذه المعارك الثلاث وهي معركة جزر «ايجيتس» Aefates جزر صغيرة غرب صقلية) سنة ٢٤١ق.م.

وكان القرطاجيون ما زالوا يعتمدون على الأسلوب القديم من صدام السفينة المضادة بمقدمة سفينتهم أو التجديف بها في محاذاة السفينة المضادة لتحطيم مجاديفها، وكان مجدفوهم من المواطنين القرطاجيين، وقد شهد الكتاب القدامى لهم مرات كثيرة بالشجاعة.

وكانت السفن خمسينية المجاديف التي حلت محل السفن ثلاثية صفوف المجاديف في صدارة الصفوف، حسب ما رواه «ديو دور»، من اختراع ديونيزيوس ولكن لا شك في أن أحواض بناء السفن القرطاجية سرعان ما صنعت على غرارها، وكانت الأساطيل في حروب صقلية تتألف عادة فيما بين ١٠٠ و ٢٠٠ سفينة. وفي الحرب البونية الأولى اتجهوا إلى تسيير أكثر من ٢٠٠ سفينة كان من بينها سفن صغيرة أيضاً.

والمرفأ القرطاجي المستدير كان به ٢٢٠ حوضاً منها ١٦٠-١٧٠ يستوعبون سفناً خمسينية المجاديف، ومن العسير أن نتصور كيف أمكن، على ضوء الطوبوغرافيا الحالية حول المسطح المائي المستدير. إنشاء مكان يتسع لاستيعاب قدر بهذه الكثرة حتى ولو كانت بعض المراسي جافة، ولكن الدلائل القديمة لا يمكن نبذها بسهولة فمن الممكن أن تكون إعادة بناء المنطقة على يد الرومان قد طمست المعالم الطوبوغرافية التي يمكن أن تفسر هذا اللغز، والمرفأ الفينيقي الآخر الوحيد المؤكد هو المرفأ الصغير الذي في «موتيا» ومساحته ٥١ × ٣٧ متراً وقناته المؤدية إلى البحر عرضها ٧ أمتار في أضيق أجزائها، ومثل هذا الحوض يحتمل أنه بني أساساً من أجل السفن الصغيرة حيث إن السفن ثلاثية المجاديف كانت بالكاد تدخل عبر القناة (إذ إن

آثار هذه السفن التي كشف عنها في أثينا تدل على أن عرضها كان ستة أمتار وثلاثة أرباع المتر. كذلك لم يكن بالاستطاعة أن يستخدم المرفأ إلا عدد ضئيل في وقت واحد، ويشير مؤلف Afrucanum Bellum أي حرب أفريقيا[1] إلى أحد المرافئ في «هادرو ميتوم» (سوسة) في سنة ٤٦ق.م ولكن لم يمكن التعرف على موقعه. ويوجد حوض داخلي في «مهدية» فيما بين «سوسة» و «صفاقص» مساحته ٧٢×٥٦ متراً يؤخذ على أنه فينيقي، وقد اعتقد بعض الأثريين بأنه ربما كان من العصور الوسطى ولكنهم ذكروا ذلك قبل النشر عن مرفأ «موتيا» الأصغر منه مما يرجح أن حوض «مهدية» الداخلي هو حوض فينيقي[2].

١- يحتمل انه أحد ضباط يوليوس قيصر رافقه في حملته على افريقيا نحو ٤٦ق.م

٢- المرجع السابق، ص ١٣٦- ١٣٧.

المعتقدات الدينية

مقدمة:

المصادر المباشرة التي استقينا منها معلوماتنا عن الديانة الفينيقية هي ما اكتشفه المنقبون من نقوش كثيرة وجدوها في فينيقيا. غير أن طبيعة هذه النقوش وما تتصف به من إيجاز تميل إلى جعل المعلومات قاصرة على أسماء الألوهيات. فهي لا تنبئنا إلا النزر اليسير عن العبادات والحياة الدينية، ولا تنبئنا شيئاً عن الميثولوجيا.

أحد هذه المصادر الذي لا بد وأن كان مصدراً مباشراً في الأصل، لكنه وصل مداورة إلينا، هو عمل «سيكنياتون» وكان كاهناً فينيقياً من مدينة بيروت يعتقد أنه عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ينبئنا فيلو الجبيلي الذي كان يكتب باليونانية وكانت ولادته، على ما يروي سويداس، في نحو ٤٢ للميلاد وكان لما يزل على قيد الحياة في عام ١١٧، أيام الإمبراطور هادريان، إن سنكنياتون قد عرض للعقائد الفينيقية المتعلقة بخلق العالم. يزعم «فيلو» أنه استشهد بكتابات الكاهن الفينيقي القديم بعد أن ترجمها إلى اليونانية. لسوء الحظ، لم يصل عمل «فيلو» مباشرة إلينا، وكان عبارة عن فقرات استشهد بها مختلف المؤرخين - كان أشهرهم «يوسيبوس» صاحب مؤلف Praeparatio Evanfelica، وقد عاش في القرن الرابع للميلاد. يستشهد يوسيبوس بالفقرات المذكورة بغية دحض العقيدة الفينيقية، ولذلك استتبع أن ينشأ عن ذلك خلاف حول أصلية، أو صحة نقل، هذه العقيدة، لا سيما بعد أن عبرت أقنية بالغة التشابك.

قديماً، كان ثمة شكوك قوية تكتنف وجود سنكنياتون، غير أن مكتشفات أوغاريت مؤخراً أثبتت صحة روايات كثيرة، حتى بتنا نعتقد الآن أن عمل سنكنياتون

يمكن اعتباره صحيحاً، على الرغم من وجود أخطاء في الفهم واضحة ووجود حذف وتصحيف.

وهناك مصدر آخر للمعلومات عن الكوسموغونيا (خلق العالم) الفينيقية يمدنا به داما شيوس، الأفلاطوني الحديث، المولود في نحو ٤٨٠ للميلاد، الذي يستشهد بكوسموغونيا وصفها موخوس، وهو كاتب جاء ذكره أيضاً في مصادر أخرى بوصفه مؤلفاً في تاريخ الفينيقيين. أما خارج نطاق الكوسموغونيا فهناك كتاب كلاسيكيون، منهم بلوتارك ولوسيان خصوصاً، أمدونا بمعلومات عن معتقدات الفينيقيين يجب أن نقبل بها في تحفظ، لا سيما وأن مصادر أخرى لم تؤكدها إلى الآن.

هناك مشكلة أخرى هي المعلومات التي تضمنها «العهد القديم» عن قوم يسميهم العبران بالكنعانيين، أي الأقوام الذين أقاموا قبلهم في الإقليم السوري الفلسطيني. كل شيء أشير إليه في «العهد القديم» على أنه إرث كنعاني يمكن أن ينطبق إلى حد كبير على المدن الفينيقية. لكن «العهد القديم» لا ينبئنا إلا بالنزر اليسير عن عقائد هذه المدن. ومع ذلك هناك مشكلة أخرى تطرحها النصوص المكتشفة في أوغاريت، التي تحتوي على معلومات غزيرة عن ديانة ومثيولوجيا مدينة تقع على الساحل السوري الشمالي ترجع إلى حقبة تسبق الحقبة التي نحن بصددها مباشرة. لا شك أن ديانة أوغاريت كانت ديانة كنعانية، ولا شك أن كان فيها قدر مشترك مع ديانة المدن الساحلية الأخرى في العصر الحديدي. لذلك تعتبر مكتشفات أوغاريت وسيلة مفيدة للمقارنة والتحقق، لكن لا يمكن اعتبارها مصدراً مباشراً.

لأسباب مختلفة جداً نجد الديانة الفونيقية (الفينيقيين خارج فينيقيا لا سيما قرطاجة) في وضع مماثل أيضاً. فالمستعمرات الفينيقية في الخارج ظلت تحتفظ إلى حد كبير بالمعتقدات والعادات الدينية التي حملها المعمرون الفينيقيون معهم من الوطن، ومعلوماتنا عن المستعمرات أكثر بكثير منها عن المدائن الفينيقية. غير أنه لم يكن ثمة بد من حصول تطورات ثانوية وتغيرات أساسية في المستعمرات تمنعنا من اعتبار المعتقدات الفونيقية معتقدات فينيقية صرفة. لذلك نجد أنفسنا هنا أيضاً أمام مادة مفيدة بمقدار ما يتعلق الأمر بالتحقق والمقارنة، لكن لا يمكننا الاستفادة منها مباشرة.

هذه الاعتبارات المتعلقة بالمصادر برهان على تعقيد مشكلة الديانة الفينيقية. ويبدو أن الاستمرارية الكرونولوجية (الزمنية) للديانة هي التي يمكن أن نسميها عموماً بالديانة الكنعانية في الألفية الثانية قبل الميلاد، على الرغم من أنها اكتسبت عناصر مستقلة واحتفظت بها. كان نزول العبرانيين والآراميين في الداخل حداً للمجال الثقافي والسياسي الكنعاني وقصراً له على الساحل، مما أتاح للكنعانيين البقاء على تقاليدهم والثبات عليها وربما كان هذا مستحيلاً عليهم لو أنهم كانوا في مكان آخر. ولذلك يجب أن يكون موضوع بحثنا الاستمرارية والتواترية التي اختصت بها الديانة الفينيقية.[1]

فكرة الخلق عند الفينيقيين:

تذهب فكرة الخلق عند الفينيقيين إلى أنه: من البدء كان الوجود - كل الوجود - عبارة عن «الهواء السميك والفضاء»، ومنها خرجت «الريح»، وخرجت «الشهوة»، وهم بدورهما أخرجا «الجبل»، وكان شكله على هيئة «بيضة»، وفي داخل البيضة تكونت المخلوقات وبقيت في حالة الجنين، دون حركة، إلى أن انشقت البيضة، وقذف الجبل حينئذٍ بالشمس والقمر والنجوم، أثرّ الضوء، فانفصلت المياه عن السماء.

ولم يكن خلق الإنسان أقل تعقيداً من ذلك، فمن «الريح» المسماة «كولبيا» Kolpia وزوجته المسماة «باو» Baai، ولد «إيون» أو «الحياة» و «بروتوجونوس» (أو أول مولود)، وكان «إيون» Aion أول من عرف الفواكه الصالحة للأكل.

ثم ولد لهما (أي إيون وبروتو جونوس) من الأولاد: «جنوس» (أي الجنس) و «جنيا» (مؤنث جنس)، وهما أول من عبد الشمس.

ومن أولادهما: الضوء والنار واللهب، وهم الذين اكتشفوا النار، ومن النار ولدت العمالقة Geants، وكان أحدهم أول من بنى المدن، ثم عاش مخاصماً لأخيه «أوسوؤس» وكان أول من اتخذ الملابس من جلد الحيوان.

١ـ سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية، ترجمة نهاد خياطة، مرجع سابق، ص ٦٦ـ ٦٨.

ويذهب فيلون (الجبيلي، البيبلوسي) نحو ٦١-١٤١م إلى أن هناك ستة أزواج من الأخوة توصلوا إلى اختراع:

١- الصيد في البر والبحر. ٢- فن صناعة المعادن والملاحة.

٣- الحرف وبخاصة صناعة الآجر. ٤- الزراعة.

٥- القرى وحظائر الماشية. ٦- القانون والعدل.

هذا وقد ولد من القانون والعدل «تاأوتوس» Taautos مخترع الكتابة، فضلاً عن «أبالسة» يعرف الواحد منهم باسم «كبير» (Cabires).

وأما الآلهة فهم من المبدأ «إليون» Elion وبيروت Berauth وهما ولدا «أورانوس» (السماء)، و «جي» (Ge) الأرض.

ثم ولد من «أورانوس» «إيل» EL - بمعنى الله - وهويته، هوية ساتورن - عند فليون - وهو الذي أسس مدينة جبيل.

ثم ولد «أورانوس» أيضاً بايتولوس Baitulos (أي بيتل - بمعنى بيت إيل - أي بيت الرب) و «داجون» و «أطلس» و «زيوس ديكاروس» و «بونتس» Pontos (بمعنى البحر).

ثم ولد «ديماروس» الإله «ملقارت» معبود صور، ثم «عشتار» الإلهة الكبرى في فينيقيا، ثم «ريا» Rhea وغيرهما.

ثم ثار «إيل» وإخوته - ذكوراً وإناثاً - على «أورانوس» السماء، كما أن «إيل» - وهو أول مولود للسماء - إنما قد رزق أولاداً هم «برسفيون» و «أثينا» و «ايروس» و «الموت» ... الخ.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى تلك العادة المغرقة في القدم - عند الآشوريين والبابليين واليونانيين والعبرانيين - والتي تفترض أشخاصاً معينين، على أنهم مخترعوا كل ما أنتجه التقدم لتنظيم المادة، فضلاً عن عادة تسمية هؤلاء الأشخاص بأسماء الأشياء المخترعة، إلى جانب عادة أخرى مضمونها: إدخال المخترعات والقوى الطبيعية الموجودة تحت جسًّا على هيئة شجرة أنساب، بعض أفرادها مولود لبعض[1].

١- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، مرجع سابق، ص ٣٠٨- ٣١٠.

هـذا وقـد أشـار «دمـسقوس» (فيلسوف ولـد في دمشق نحـو عـام ٤٨٠م إلى عـدة مـذاهب فينيقيـة في خلق العـالم، فقـال: «في البـدء، قبـل كـل شـيء، وجـد كرونـوس (الزمن) وبوتوس» (الشهوة)، وأميكليه (كلمة مسامية مشوهة، ربما بمعنى الأم لكل المخلوقات)، ومن الأخيرين - أي اتحاد الشهوة وأميكليه - جاء «الهواء»، وهـو النقاء، دون امتزاج بأي مفهوم، ومن اتحادهما جاء «أورا» وهو الصورة الأولى الحيوية للمفهوم، وتتحدد حركته بالهواء، ومن هـذين الأخيرين (الهواء وأورا) ولـد «أوتـوس»، وهـو العقل المدرك.

ويـروي «دمـسقوس» مـذهباً آخـر في خلـق العـالم، وهـو مـذهب «مـاخوس» - وهـو مـؤرخ فينيقـي في القـرنين الثـاني والثالـث. يقـول مـاخوس: «إن الأثير والهواء باعتبارهما عنصرين أولين، ولدا «أولوموس» - الإله المدرك - الـذي يخـرج مـن نفسه «خوسـوروس»، ثم «البيضة»، ويعنون بالبيضة «العقل المدرك».

وأما «خوسوروس» فهو القوة المدركة، فهو أول من ميـز الطبيعـة غير المتمـايزة، اللهم إلا إذا وضعوا بعد العنصرين، «القمة» المسماة «ايخـوس»، والموصوفة بالوحدانيـة، وضعوا بعد العنصرين، «القمة» المسماة «ايخـوس»، والموصوفة بالوحدانيـة، ووضـعوا في الوسط بينهم الريحين «ليبوس» و «نوتونس» لأنهم يقـدمون في الغالـب هـذه الآلهة الثلاثة على أولوموس، وبالتـالي يصبح أولومـوس هـو العقـل المـدرك، ويكـون ترتيبـه الأول بعـد المدرك.

وأما البيضة فهي السماء، لأنهم يقولون إن البيضة قد انقسمت نصفين، أخرجت «أورانوس» و «جي» وكلاهمـا عبارة عن أحد النصفين.[1]

المعبودات الفينيقية:

كانت ديانة الفينيقيين مجموعة من الطقوس والعبادات تقيمها المدن الفينيقيـة وتختلف من مدينة إلى أخرى، وإن اشتركت جميعها في نظرة القوم العامـة في الظـواهر الكونية والطبيعية. وكانت طقوس العبادة منبثقة من حياة القـوم الزراعيـة، ومن ثم فقد لجؤوا - حماية لأنفسهم - إلى أن يضفوا على الطبيعة وظاهرتها، صفات إنسانية،

١- المرجع السابق، ص ٣١٠.

وجعلها قريبة منهم. وأن يقدم لها المرء القرابين يسترضيها بها، ثم أوجد سلسلة من العبادات بغية التأثير على هذه الطبيعة.

وهكذا كانت المعبودات الفينيقية - شأنها في ذلك شأن غيرها من الديانات القديمة - تدور حول تقديس مظاهر الكون، وعبادة الطبيعة، ومن ثم كان لكل مدينة فينيقية «بعلها» - أي سيدها - وهو جد ملوكه، ومخصب أرضها، فكل الزروع والخمور من عمله.

هذا - وكما أن لكل مدينة إلهها، أو آلهتها - فقد كان لهذا الإله - أو الآلهة - في الغالب، فكان بين الآلهة التي يعبدها القوم جميعاً، وكانت تمثل وظيفة معينة من وظائف الآلهة المشتركة - أو مظهراً معيناً من مظاهرها - ويتمثل هذا - على أحسن وجه - في نصوص أوغاريت، فهي تذكر الآلهة، ثم أحداثاً تتعلق بهذه الآلهة، لا تتصل دائماً اتصالاً مباشراً بعبادات تلك المدينة.

هذا وكان الإله - أو المعبود - يوصف بالمكان الذي يعبد فيه مثل «بعل روشي»، أي (سيد الرأس)، وبعل سافون، أي (سيد الشمال) وبعل شمين (أي سيد السماوات)، وزيوس كاسيوس جوبيتر - الإله الذي يحمي (جبل كاسيوس)[1].

وكان للحياة البحرية التي عاشها الفينيقيون أثرها في نسبة صفات بحرية إلى آلهتها، وقد أضيفت تلك الصفات إلى الصفات القديمة، وقد كان يغلب على «بعل صور» في العصور القديمة الصفة البحرية، كما كان «بعل داجون» الملقب «سيتون» Siton يوصف كذلك في العهود القديمة بصفات بحرية.

ولعل أول ما يروع المرء في الدين الكنعاني - الفينيقي أنه أدنى كثيراً من دين أرض الرافدين في المستوى الحضاري، ويتجلى هذا بأجلى صورة في قسوة بعض طقوسه في نواح عدة، واهتمامه الغليظ بالعناصر الجنسية لدرجة تدعو إلى التقزز.

هذا فضلاً عن أن آلهة الدين الكنعاني - الفينيقي، ذات طابع غير محدد أو ثابت، فهي كثيراً ما تتناوب صفاتها ووظائفها وصلاتها - بل كذلك جنسها - حتى ليصعب أحياناً أن نعرف حقيقة طبيعتها وصلات بعضها بالبعض الآخر.

١- جبل كاسيوس: ويسمى الآن «الجبل الأقرع» ويقع شمال غرب سوريا، فيما بين السويدية واللاذقية، وكان البحارة يقدمون الذبائح من هذا الجبل للإله «زفس».

ولعل السبب في ذلك إنما يرجع أولاً إلى انعدام الوحدة بين القوم - أي بين الفينيقيين أنفسهم - ويرجع ثانياً إلى عدم وجود طبقة من الكهان منظمة تنظيماً كافياً، تستطيع أن تقيم تنظيماً دينياً سليماً - كما في أرض الرافدين. أما أهم المعبودات فهي:

١- إيل:

هو رأس المعبودات الكنعانية، واسم «إيل» (إل)، ليس في الأصل اسم علم، ولكنه اسم سامي عام معناه «إله»، أو هو الكلمة السامية للإله، كما يبدو واضحاً مثلاً في كلمة «إلوهيم» - وهي جميع مفرده إله - والأمر كذلك في الكلمة العبرية، وقد أدخلت عليها أداة التعريف «إل» فأصبحت «الإله» وفي كلمة «بعل» ومعناها «رب» أو سيد ومؤنثها «بعلات» ومعناها «ربة» أو سيدة.

و «ملك» ومعناها ملك أو حاكم، وكذلك كلمة «أدون» العربية، و «أدوناي» العبرية، و «أدونيس» اليونانية، ومعناها (سيد) وهذه الكلمات العامة يمكن استخدامها منفردة أو متصلة باسم الإله.

هذا وقد ظل الإله الفينيقي «إل» (إيل) كالإله البابلي «آن» شخصية بعيدة غامضة بعض الشيء، فهو يسكن بعيداً عند منابع النهرين، هذا فضلاً عن أن ذكره في الأساطير هو أقل من ذكر الآلهة الأخرى.

هذا وقد وصف «إيل» في نصوص أوغاريت بأنه رأس مجمع الآلهة الفينيقي، وهو الإله الأكبر، صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في شؤون البشر الدينية، فهو أبو البشر، وخالق الخلق، وأبو السنين (أي الخالد) والملك والثور (كناية عن القوة) والحكيم والطيب وذو الفؤاد (الرحيم) وأشيب اللحية - أي الشيخ.

وهو يسكن عند منبع النهرين، ووسط مجاري المحيطين - أي في أطراف العالم، بعيداً عن الآلهة والبشر، ولكن هؤلاء جميعاً يسعون إليه طلباً لمشورته - كلما أزمهم أمر من الأمور فإذا اختلفت الآلهة مثلاً: فيمن يحق له منهم بناء معبد أو قصر (رمزاً لسيادته عليهم جميعاً) رجعوا إلى «أيل» (إل) الإله الأكبر، ليختار لهم من يراه جديراً بالسيادة عليهم.

وكانت زوج الإله إيل هي الإلهة «إيلات» والمعروف كذلك باسم «عشيرة البحر»، والتي يطلق عليها لقب «الأم الآلهة» هذا وقد لقبت «عشيرة» في نصوص أوغاريت بالسيدة «أثرت» إلهة البحر (ربت أثرت يم) والآلهة «ألت»، وكما أن زوجها «إل» خالق الخلق، فكذلك هي «خالقة الآلهة»، فإذا قيل «بنو أثرت» فالمقصود الآلهة. ونظراً «إيلات» أو «أثرت» ذات كلمة مسموعة لدى زوجها، فقد كان أصحاب الحاجات يلتمسون وساطتها لديه، وكانت وساطتها دائماً وأبداً ناجحة، ومثال ذلك: إن الإلهة «عنت» - أخت بعل وامرأته - سألتها التوسط لدى «إيل» لكي يسمح لـ «بعل» أن يبني قصراً له، رمزاً لسيادته فأذن له.

٢ـ بعل:

هو أبرز «الآلهة الكنعانية - الفينيقية»، ومركز مجموعة أخرى من الآلهة، وكلمة «بعل» معناها في الأصل «سيد»، ولهذا أمكن إطلاقه على آلهة أخرى، ولكن «بعل الأكبر» إله العاصفة والبرق والمطر والإعصار، كالإله «حدد» (هدد) عند البابليين والآراميين.

وتشير بعض الأساطير إلى أنه «ابن ايل» من عشيرة البحر، بينما تشير أساطير أخرى إلى أن زوج «عشيرة» إنما هو «أدد» المعروف باسم «بعل» أو «السيد» أو «أدون» رب الرعد والعاصفة والبرق، ومن ثم فهو إله خصب وإخصاب.

هذا ويوصف «بعل» في بعض النصوص بأنه أقوى الأبطال، وهو الأمير (ذبل - بعل - بول، إله عقرون في التوراة)، وهو أحياناً الشمس التي تضيء.

وأما اسمه «أدد» (حدد - هدد) فيشير من الناحية اللفظية إلى الرعد وأمطار الشتاء، تعبيراً عن مظهر القوة، ولكنه لم يظهر إلا بصورة ثانوية - كإله للزراعة الناتجة عن المطر - وهو يوصف كأنه محارب صغير، يبدو في دثاره القصير، مسلحاً ببلطة الحرب، وحربة البرق، وعلى غطاء رأسه قرنا ثور، إشارة إلى قوة إخصابه.

وهناك إشارة تتعلق بصفات «بعل» فيما يختص بالخصب والزراعة، وهي ما تزال موضع خلاف، - في تفسيرها، وترجمة جزيئات منها، فضلاً عن الخلاف حول أسماء الآلهة - وهناك كذلك من يرفض وجود ابن للإله بعل، يسمى «عليان» ويفسرون اصطلاح «عليان بعل» بأنه صفة للإلهة، بمعنى «الرفيع أو العالي»، وليس اسماً لابن بعل.

وتدور الأسطورة حول صراع بعل ووالده عليان ضد المعبود «موت» (وهو عند فليون الجبيلي بمعنى الموت، وعند «ديسو» الفرنسي بمعنى البطل المحارب)، الذي يسمى حرارة الصيف، ويبدأ الصراع ببعل قوياً - قبل وصول موت - فيرسل الصواعق والمطر مدراراً، فضلاً عن الرياح والأعاصير - كما يحدث في شهر شباط (فبراير)، غير أن سلطان بعل سرعان ما ينهار أمام قوة موت، الذي يأمر بأن تسود الحرارة والدفء، وهكذا يموت بعل أولاً، وينزل إلى باطن الأرض، ويبقى ابنه «عليان» بمفرده بعض الوقت، متمثلاً في الثمر على الشجر، تحت وطأة حرارة الشمس القوية.

ويضطر عليان إلى السقوط واللحاق بوالده داخل الأرض، ولكنه قبل وفاته يلتقي بأخته وزجته «عينات» (عين أو نبع الماء)، واجتماعهما يمثل الربيع، وتبحث عينات عن أخيها حتى تجده تحت الأرض، فتخرج جسمه، وتذهب به إلى قمة جبل «سافون»، حيث تدفنه وتضحي من أجله، ثم تفتش عن «موت» وتسأله أن يرد أخاها إلى الحياة، فيرفض فتقتله، وتصف النصوص مشهد قتله، متمثلاً في سنابل القمح التي تنضجها حرارة الصيف، ثم تعيد أخاها إلى الحياة، ثم تستأنف الدورة الزراعية سيرتها من جديد[1].

وهذه الفكرة - فكرة إله يموت ليقوم منتصراً على الموت - أصبحت - فيما يقول الدكتور فيليب حتي - جزءاً حيوياً من المأثور المسيحي[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن بعلاً - كما تشير نصوص رأس الشمرا - ليس له معبد، كغيره من الآلهة، وإن كان «إل» (إيل) قد عالج هذا النقص، حين قام الآلهة أنفسهم - بناء على اقتراح من عشيرة - ببناء معبد له، وقد شارك «بعل» نفسه في بنائه، بقطع أخشاب الأرز التي يحتاج إليها البناء.

ولعل هذا يشير إلى أن «بعلاً» قد أقحم على مجمع الآلهة متأخراً، وإن كان هناك ما يشير إلى أن «بعلاً» لم يكن إلهاً حديثاً، وإنما هو إله محلي قديم، كان يسمى في فلسطين الجنوبية «بعل صفون» أو «بعل الشمال» أو «صفون» فقط، وكان له

١- المرجع السابق، ص ٣٥١- ٣١٦.

٢- د. فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ١٥٦.

من «عشيرة» ابن هو «عليان بعل» الذي كان له الإشراف على مياه البحر والأرض معاً، وهو منبت الحبّ، وهو إله الفيضان كذلك.

وكانت «عنات» - فيما يرى البعض - أختاً للإله «عليان بعل»، وهي عذراء، محاربة، لها صفات، «عشتار أربل»، وكان عليان بعل إلهاً عاماً، يجمع كذلك في شخصيته كل الآلهة، ومن أسمائه كذلك «إل»، وهو «إلوهيم» عند اليهود.

وهكذا يبدو الارتباك واضحاً في صلات النسب، وفي ماهية هذه الآلهة جميعاً، فالمعبود أو الإله إنما يتكرر في أكثر من مظهر، وفي أكثر من موضع، فهو «ابن» مرة، وهو «أب» مرة أخرى.

ولم يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للإلهات اللواتي يختلسن صفات بعضهن بعضاً، فضلاً عن خصائصهن، حتى لتطغى الواحدة منهن على الأخرى، وحتى ليبدين أحياناً، وكأنما الكل في واحدة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة البعل هذه ومقاومة النبي «إلياس» (إيليا) لهذه الوثنية، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾[1]

٣ـ ملقارت:

ملقارت هو «ملكرت» إله صور، وكلمة «ملقارت» تتكون من كلمتين فينيقيتين، وهما كلمة «ملك» بمعنى «ملك»، وكلمة «قارت» بمعنى مدينة، أي «ملك المدينة» أو «إله المدينة» وهذا يعني أن ملقارت إنما هو ملك المدينة وبعلها - أي سيدها - وقد شبه الإغريق «ملقارت» بمعبودهم البطل «هرقل». وسوف نتحدث عنه بالتفصيل عند الحديث عن المعبودات الفينيقية في قرطاج.

١- سورة الصافات: الآيات ١٢٣- ١٣٢.

٤ـ أشمون:

يعد «أشمون» بعل «صيدا» أو سيدها، ولم يكن يحمل لقب «بعل»، وقد قرنه اليونان بمعبودهم «إسكليبوس» الذي يشرف على الشفاء، فضلاً عن خصائص الخصوبة التي عرفت عنه، ومن ثم فهو يعد «إله الطب». وسوف نتحدث عنه بالتفصيل عند الحديث عن معبودات قرطاج.

٥ـ داجون:

داجون إله رفيع المقام، مرموق المكانة عند القوم، وقد مثل على قطع العملة ملتحياً ذا خصلات طويلة من الشعر، ويمسك في كل يد سمكة، كما ينتهي نصف جسمه الأسفل على هيئة ذيل سمكة كذلك، مغطاة بالفلوس، ومزودة بالزعانف، ويشير الاسم والصورة إلى الارتباط ببابل، وهو على هذه الصورة ليس إلهاً جديداً، وإنما هو معبود كنعاني قديم[1].

ولئن صدقنا ما يرويه «فيليون الجبيلي» (نحو ٦١-١٤١) فإنه يرجع إلى المعبود «داجون» كشف الخواص الغذائية للحبوب كما ينسب إليه اختراع المحراث.

هذا وقد عثر في «رأس شمرا» على معبد للمعبود «داجون»، ملاصقاً لمعبد «بعل»، ولما كان داجون إلهاً للزراعة - وبخاصة القمح - فلعله يصبح أمراً واضحاً تفسير اللقب المعروف لـ «بعل» كابن لداجون. وتشير بعض ألقابه مثل «داجان تاكالا» في رسائل العمارنة، من «بيت دجن» وتقع على مبعدة ١٦ كم شرقي يافا، ثم عبادته في «أشدود» - وهي أسدود الحالية، على مبعدة ٢٩ كم، شمال شرق غزة - حيث تنتشر زراعة الحبوب[2].

٦ـ رشف:

معبود فينيقي شرقي، نلتقي به في النصوص الميثولوجية لرأس شمرا، حيث يشار إليه كمعبود فلكي، يحمل آلهة الشمس، وكان رشف إلهاً للضوء والبرق، ومن ثم فقد قرن بـ «أبوللو»، ومع ذلك فليس من الواضح أنه يعادل «حدد» (هدد)

١ـ د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

٢ـ نفس المرجع، ونفس الصفحة.

السوري. وكان رشف يعبد أيضاً في «قرطاج» في معبد يقع فيما بين منطقة الموتى وبيرسا.

هذا وقد امتدت عبادة رشف إلى مصر السفلى في عهد الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة (١٥٧٥-١١٨٤ق.م)، وهو يوصف في النقوش المصرية بأنه إله حرب نشط، مثل «بعل»، وله قرنا وعل على غطاء رأسه، وربما يشير ذلك إلى صلته بالصحراء، التي كان مبعث خوف، كمصدر للضرر، بالنسبة للعالم المستقر في الشرق القديم، ذلك لأن «رشف» - شأنه شأن نرجال في بلاد النهرين - كان الإله يقضي على البشر كجماعات، عن طريق الأوبئة والحروب.

هذا وقد لقب «رشف» في أحد نصوص رأس شمرا بلقب «سيد السهام» كناية عن صفته الحربية.

٧- أدونيس:

هو الصيغة اليونانية لاسم الإله السامي «أدون»، بمعنى «السيد» وتساوي لفظ «بعل»، بمعنى أنها اسم عام، وقد أشيع اسمه «أدونيس» عند الإغريق فقط، حيث تغير اسم «أدون»، بإضافة السين في آخره، إلى «أدونيس»، أي سيدي ومولاي.

هذا وقد اسماه العبرانيون «تموز»، تشبيهاً بإله بلاد الرافدين (تموز) المختص بالحب والإنبات، وأما في مصر، فإن تموز يصبح «أوسيرس» وبهذا الاسم - أدونيس - أصبح أشهر إله بين آلهة السوريين.

هذا وقد ذكر «دمسقوس» - في القرن الرابع الميلادي - أن «أدونيس» لم يكن مصرياً، ولا يونانياً، وإنما كان فينيقياً. وقد دخلت عبادة «أدونيس» بلاد الإغريق، وفي القرن الخامس قبل الميلاد، كانت عبادته راسخة الأركان.

وأما فينيقيا، فإن قصة أدونيس وعشتاروت - سيدة جبيل - تركزت في «أفقا» - عند منابع نهر إبراهيم، والذي عرف بنهر أدونيس، في أعالي لبنان - وتقول القصة: -

«إن خنزيراً برياً هاجم تموز، وأنشب نابه في جسمه، فحمل وهو ينازع سكرات الموت إلى زوجته عشتاروت، ومنذ ذلك الحين، أصبحت مياه النهر، تصطبغ بدمه عاماً بعد عام.

وعندما يكون «تموز» في العالم السفلي، يذبل النبت على وجه الأرض، ثم يموت، ويظل تموز بين الأموات، إلى أن تنزل عشتاروت إلى العالم السفلي - عالم الموتى - فتخلصه وتعود به إلى وجه الأرض.

هذا وقد نشأت في «جبيل» على مبعدة ٨ كم من مصب نهر أدونيس (نهر إبراهيم) إلى الشمال شعائر وطقوس، لأحياء ذكرى موته وقيامه، ومنها أن النساء كن يذهبن إلى الحقول، ليفتشن عن أدونيس الميت، وكانت هذه الشعائر تدوم أسبوعاً كاملاً. وعند قيام أدونيس من الموت كانت تستولي موجة من الفرح تشبه الجنون على عباده من الرجال وعابداته من النساء، وكانت تقدمن عفافهن كقرابين بينما يضحي الرجال برجولتهم ويقدمون أنفسهم خداماً خصياناً في هيكله.

وهناك علاقة وثيقة بين عبادتي أدونيس وعشتار، فقد كان الفينيقيون يعتقدون أن الآلهة كالرجال يحتاجون إلى أنثى، لذلك كان لأدونيس - إله الجمال - في جبيل حبيبة هي عشتار، وقد كانت عبادتهما، وبخاصة أدونيس، شعبية جداً، ولا سيما بين النساء، وتصور الأسطورة أدونيس في هيئة شاب، قتله خنزير وحشي، وأن عشيقته عشتار، نزلت إلى طبقات الجحيم، لتنتزعه من الموت[1].

٨ـ عشتارت:

عشتار هي الإلهة الرئيسية في كل من دولتي بابل وآشور الذين سموها «عشتار»، وفي مدن الفينيقيين، على سواحل سوريا ولبنان وفلسطين، وهي إلهة واحدة في كل هذه المناطق، وإن تغير اسمها بعض الشيء، وكذا طقوسها من مكان لآخر.

وعلى أيّ حال، فعشتار: هي الصيغة المؤنثة من البعل - أي بعلة أو سيدة - وأصح نطق لها - فيما يرى البعض - «عشترة» - أي بالتاء المربوطة للمؤنث - كما جاء في رسائل تل العمارنة، وفي النصوص اليونانية تنطق «آستارت» (أشتارتيه).

وقد أطلق بنو إسرائيل عليها اسم «عشتوريت» Ashtoreth - (وجمعها عشتاروت) كما جاء في سفر الملوك الأول. وهي عند السومريين «أنانا»، وتقوم هناك بدور بارز في الأدب والقصص والأساطير.

١ـ فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ١٥٨.

هـذا ومـن المعـروف أن التـسمية الأكاديـة «عـشتار» Eshtar، سـامية الأصـل، وأن عشتار قد وجدت بصيغ أخرى مقارنة في مناطق متعددة من الشرق الأدنـى القـديم، منهـا «عـشتارت» عنـد الأقـوام الـسامية الـشمالية الغربيـة، و «عثـر» Athr في رأس شمـرا وعنـد عرب جنوب الجزيرة العربية.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن البابليين والآشوريين والكنعانيين عبـدوا عشتار على أنها إلهة أنثى، بينمـا عبـدها العـرب الجنوبيـون علـى أنهـا إلهـة ذكـر، بـل إن الاخـتلاف في جنسية عـشتار إنمـا وجـد كـذلك في وادي الرافـدين، وفي فـترة مبكـرة، فمـثلاً هنـاك أسمـاء سـامية - فيمـا قبـل العـصر الـسرجوني - يـدخل في تركيبهـا اسـم عشتار علـى أنـه مـذكر مثـل «عـشتار زوجـي»، ومـرة مؤنـث مثـل «عـشتار أمـي»، وربمـا كـان سـبب هـذا الاضـطراب وجـود إلهـين مختلفين جنساً عنـد أوائـل الـساميين الـذين استوطنوا بلاد الرافدين، أحدهما مذكر، والأخر مؤنث.

إن كلمـة «عـشتار» في اللغـة الأكاديـة تفيـد معنـى الأم بصفة عامـة، كمـا تعـني كذلك المعبودة الشخصية أو تمثالها، والتي كان الفرد يتخذ منه وسيلة بينه وبين الآلهة الأخرى، وقد اشتق منه الصفة «عـشتوريت» بمعنـى «المقدسـة» والـتي أصـبحت مـن نعـوت عشتار.

هـذا وكـانت هـذه الـصفة «عـشتوريت» تطلق أيضاً علـى صـنف معـين مـن النـسوة اللاتـي كـن مكرسـات للخدمـة في المعابـد - مـع أصـناف أخـرى مثـل (Kulmashitu) و (Qadishtu) - ممن كن يمتهن مهنة «البغاء المقدس».

هذا وقد تمتعت عشتار بقسط وافر من الصفات والألقاب التي تـشير إلى وظائفهـا وخصائـصها المختلفـة، ولعـل مـن أبـرز صـفاتها، وأكثرهـا شـهرة، أنهـا إلهـة الخـصب بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، بما في ذلك من مدلولات على الجنس والتكـاثر والحـب، كما كانت إلهة للحرب.

وكان يشار إلى عشتار برموز معينة، من أشهرها حزمة القصب، ونجمـة مثمنـة، كما كان الأسد، بصفتها إلهة حرب، من رموزها. وقد كـرس الملك الآشوري «ناصـر بال الأول» (١٠٤٩-١٠٣٠ق.م). الإلهة عشتار تمثال أسـد في مدينـة «كـالح» (نمـرود)، مـع نص للإهداء، ودعاء طويل.

وهكذا فالإلهة «عشتار» هي إلهة ترمز إلى الخصب، وقد أضاف الآشوريون والبابليون إليها صفة «إلهة المعارك»، وقد عرفت عند اليونان تحت اسم «أفروديت». هذا وكان اسم «عشتار» يتردد - بصفتها إلهة الحب والجنس - في بعض التمنيات التي كانت تقال في المناسبات الخاصة، ومن ذلك ما كان يقال في اللغة السومرية، لمن هو مقدم على الزواج: «عسى أن تمنحك إنانا «عشتار» زوجة دافئة الأطرف، تضجع معك، وعسى أن تمنحك أولاداً أقوياء السواعد، وأن تجد لك منزلاً سعيداً» هذا وقد اشتهرت عشتار كذلك - عن أهل الرافدين - بلقب «سيدة الحرب» و «سيدة المعركة».

هذا وقد استمر ادعاء بعض الملوك بتسليم مقاليد الحكم من عشتار تقليداً سارياً، حتى أننا نرى - بعد اندثار الإمبراطورية الآكادية بما يقارب القرون الخمسة - الملك «زمري ليم» (١٧٧٩-١٧٦١) ملك ماري أنه تسلم شارات الحكم من الإلهة «عشتار»[1].

وكانت عشتار ربة صور الرئيسية، وقد حمل المهاجرون الصوريون عبادتها عبر البحار إلى جميع الأنحاء: إلى قبرص ومالطة وصقلية وسردينيا وقرطاج.

وتروي الأسطورة أن «عشتارت» اختفت مرة في الظلام في أول الشهر القمري فلحق بها «ملقارت» إلى الغرب، مفتشاً عنها، ورجع بها إلى صور.

وفي أسطورة أخرى، شاهد الصوريون ذات ليلة في منتصف الليل، شعاعاً ساطعاً، ينتشر في أجواء صور، وينير المدينة، فهبوا من رقادهم متراكضين إلى الشاطئ، وإذا هم أمام صبية رائعة الجمال، تخرج من بين الأمواج، وتنشر معها النور والسرور، كانت تلك هي «عشتارت»، بعد جولتها في المسكونة، ورجوعها إلى الجزيرة المقدسة صور.

هذا ويصف الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) «عشتار» بأنها الإلهة الغربية، وأنها آلهة الصيدونيين، ونعلم أن عبادتها - كما تشير التوراة - إنما كانت بين بني إسرائيل، «الذين تركوا الرب، وعبدوا البعل وعشتارت»[2].

١- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، مرجع سابق، ص ٣٢٤- ٣٢٩.

٢- المرجع السابق، ص ٣٣٠.

وهنـاك مـن يـذهب إلى أن الإلهـة الكـبرى الـشهوانية «عـشتار» الـتي كـان بنـو إسـرائيل يعبـدونها في الأمـاكن المرتفعـة بـين الغيـاض، والـتي كـانوا يـأتون بالـدعارات المقدسة تكريماً لها، لم تكن سوى «زهراء بابل عشتار».

وكان لعشتار هذه حظوة عظيمة لدى شعب إسرائيل الشبق، وذلك لما كان لها من شعائر شهوانية وكان لها هياكل على التلال، تحاط بغابات الزيتون، حيث يسمع للحمائم العاشقات، سجع وهديل، وحيث تجلس الفتيات اللاتي يقضين نهارهن في تطريز الخيام للغياض، ولياليهن في قضاء أوطار المؤمنين، الذين يتقاطرون إلى هناك.

ولعل من الجدير بالإشارة أن عشتار إنما كانت تلقب كذلك بلقب «ملكة»، وهذا يذكرنا «بملكة السماء» التي تحدثت عنها التوراة في سفر أرميا.

وهكذا أصبحت عشتار أشهر إلهات الخصب، وصارت باعتبارها «بعلة» أو «سيدة» متصلة بمكان معين، وأصبحت حامية لمدينة، ومن هذه الحاميات «بعلة جبيل» حامية مدينة جبيل[1].

٩- عبادة الكواكب:

هذا ومن المعروف أن الديانة الفينيقية قد عرفت كذلك «عبادة الكواكب»، فقد كان للشمس والقمر مكان محدد، على نحو ظاهر بين القوى الطبيعية المختلفة التي كانت تؤلهها كنعان وفينيقيا، ويرجع هذا إلى نسبة خصائص الشمس والقمر إلى آلهة أخرى، على أنه من المقطوع به أن أهمية الشمس والقمر، كانت تقل شيئاً فشيئاً بين الشعوب السامية.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الشمس في «أوغاريت» إلهة أنثى - كما كانت كذلك في جنوب الجزيرة العربية - وفي الوقت نفسه كانت إلهاً ذكراً عند بقية الشعوب السامية.

هذا وقد حملت الشمس في نصوص أوغاريت لقب السيدة «ربت» و «مصباح الآلهة»، وأما القمر، فقد حمل في هذه النصوص لقب «منير السماوات»، كما يتحدث أحد هذه النصوص (في أسطورة نكل وكثرت) عن زواج القمر (يرح) من الإلهة «نكل».

١- نفس المرجع، ص ٣٣١- ٣٣٢.

بقيت الإشارة إلى أن الكنعانيين والفينيقيين إنما قد عبدوا آلهة عدة، أخذوها عن المصريين والبابليين، وهنا يتجلى الطابع المركب التوفيقي الذي تتسم به حضارتهم، وقد حدث ارتباط واندماج فيما بين الإلهة الكنعانية الفينيقية وآلهة اليونان.

١٠ـ الآلهة الفينيقية في قرطاج:

لا ريب في أن العبادات في قرطاج إنما تشبه إلى حد كبير تلك التي في الوطن الأم (فينيقيا) حيث نشأت أصلاً. وأما أهم المعبودات القرطاجية فهي:

أ- بعل حمون:

يعد بعل حمون هو الإله الأعلى في العالم الفينيقي الغربي، حيث عرف بهذا الاسم، وأما في فينيقيا فهو «بعل»، وأما معنى اللقب «حمون» لبعل قرطاجي فهي «الناري»، ويعبر عنه بشكل الشمس، وقد شبه في العصور الرومانية بالمعبود «ساتورن» Saturnus وقد أورد «هنو» (Hanno) وغيره ذكر معبده في قرطاج، وربما اقترن قبل ذلك بالمعبود «زيوس»، ذلك لأن المعبود الرئيسي الذي كان يذكر فيما يتصل بقسم هانيبال عن العداوة المستعمرة الأوار ضد روما، كان هو «زيوس» الذي تم القسم أمام محرابه. هذا وكرست لوحات تذكارية فينيقية غربية للمعبود «بعل حمون» و «تانيت بيني بعل» معاً، وهو يبدو فيها أقل الاثنين شأناً، ومع ذلك فهو يظهر وحده في لوحات أخرى، ومن الطبيعي أن يوجد له (أي بعل حمون) معابده ومحرابيه على جبل «بوقرين» الذي يشرف على قرطاج عبر الخليج).

وعلى أيّ حال، فإن المعبودات الفينيقية - بصفة عامة - إنما ترادف أو تماثل قوى إلهية أخرى تناظرها في العقائد المختلفة، فالإله بعل الفيبقي، يرادف في العقائد العراقية القديمة المعبود (أداد)، وملقارت إله مدينة صور، يماثل الإله اليوناني هيراقليس، وداجون الفينيقي يقترب من أوناس البابلي وآشمون يرادف أسكليبيوس اليوناني.

ب- تانيت:

برزت تانيت Taanit في القرن الخامس قبل الميلاد، كمعبودة شعبية، وقد اختلف المؤرخون في أصل هذه المعبودة، غير أن عدم الإشارة إليها في نصوص رأس شمرا وصور وغيرها، إنما يؤكد أنها غير فينيقية. كما أن اسمها الليبي، فضلاً عن عبادة البربر لها،

إنما يدل على أنها بربرية الأصل، وعلى أيّ حال، فهي إلهة الإنتاج والخصوبة عند القرطاجيين، وقد رمز لها بامرأة ترضع طفلها، كما مثلت على هيئة مثلث يمثل الجسم واليدين ودائرة تمثل الرأس، كما مثلت في أشكال أنثوية تحمل أسلحة، مع ارتفاع ذراعيها، تمثيلاً بسيطاً على مئات من اللوحات في قرطاج وغيرها، ولعل اهتمام البربر بآلهة أنثى - بدلاً من إله ذكر - إنما يرجع إلى أن المجتمعات القبلية ربما كانت تعطي أولوية خاصة للمرأة، الأمر الذي يجعلها رمزاً للقوى الكامنة في ظاهرة الإخصاب.

ج- عشتارت:

عشتارت أو عشتار (وجمعها عشتاروت) هي الصفة المؤنثة من البعل، أي بعلة، أو السيدة، وأصح نطق لها، فيما يرى البعض «عشترة» بالتاء المربوطة للمؤنث) - كما جاء في رسائل العمارنة - وتنطق في النصوص اليونانية «أشتاريته»، وقد أطلق العبرانيون عليها - كما في سفر الملوك الأول من التوراة - «عشتورت»، وليس هناك من شك في أن عبادة عشتارت هذه إنما انتقلت إلى قرطاج عن طريق الفينيقيين[1].

د- أشمون:

أشمون هو في الأصل بعد مدينة صيدا وسيدها، ولم يكن يحمل لقب بعل، وقد قرنه اليونان بمعبودهم «أسكلبيوس»، الذي يشرف على الشفاء، هذا فضلاً عن خصائص الخصوبة التي عرفت عنه، ومن ثم فهو في نظرهم - إله الطب، وعلى أيّ حال، فإن اشتقاق اسم أشمون غير معروف على وجه اليقين، ومن ثم فلفظة اشمون إنما هي مجرد صفة كمعظم الأوصاف التي تطلق على البعول الأخرى.

هذا وقد كشف عن معبد أشمون في صيدا عام ١٩٠١م، على الضفة الجنوبية من نهر «الأولي» على مقربة من مصبه في بستان الشيخ.

وهناك ما يشير إلى أن أشمون إنما قد أصبح معبوداً أكثر قوة في قرطاج، ولعله قد فاق المعبود «ملقارت» نفسه، فلقد وقف القرطاجيون في دفاعهم الأخير عن مدينتهم في عام ١٤٦ق.م، عند معبد أشمون الذي كان في قلعة المدينة، أو في منطقة بيرصة Byrsa - أقدم جزء في قرطاج.

١- المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٤٢.

هـ- ملقارت:

ملقارت هو «ملكرث» معبود صور، وكلمة «ملقارت» تتكون من كلمتين فينيقيتين، هما «ملك» بمعنى «ملك»، وقارت بمعنى المدينة. أي «ملك المدينة أو إله المدينة»، وهذا يعني أن «ملقارت» إنما هو ملك المدينة وبعلها، أي سيدها، وقد شبه الإغريق ملقارت بهرقل، هذا، وطبقاً لنقش من مالطة، فلقد لقب «ملقارت» بلقب «بعل صور»، وقد انتشرت عبادته من صور إلى قبرص وقرطاج وغيرها.

هذا وكان ملقارت في الأصل معبوداً شمسياً، ثم سرعان ما اكتسب خصائص بحرية بعد أن انتقل عبر البحر غرباً، وقد ظهرت عبادته في أكثر من مكان في الغرب، فظهرت في «جاديس» (كاديز - قادس)، حيث كان له معبد أسسه فينيقيو صور منذ القرن الثاني عشر، وقد قدم لنا وصفاً له في القرن الأول الميلادي الكاتب «سليوس إيتا ليكوس»، ويشير إلى قيام العبادة فيه عن طريق كهنة على النمط الفينيقي، حفاة الأقدام، يرتدون الكتان، وأن النار به إنما كانت شعلة دائمة، وإن لم يكن به تمثال عبادة، كما كان لملقارت معبد آخر على مقربة من «لكسوس» على شاطئ المحيط الأطلسي.

ويرجح الباحثون أن ملقارت هو المعبود الذي كان يضحى له بالأطفال تحت اسم «مولوخ» أو «مولك» (الملك= الإله الرهيب)، وكان القوم حين يحز بهم الأمر، يضحون بأطفالهم، فيحرقونهم أحياء، تقرباً له، كما حدث أثناء حصار قرطاج في عام ٣٠٧ق.م (وربما في عام ٣١٠ق.م)، حيث أحرق على مذبح الإله الغاصب مائتا غلام من أرقى الأسرات، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تغطي على صراخ الأطفال وهم يحترقون في حجر المعبود، وقد عثر في قرطاج على جبانة واسعة تضم جثثاً لأطفال معظمهم دون الثانية، وإن كانت هناك قلة ضئيلة تصل إلى عمر الثانية عشرة.

هذا وقد عثر في بعض مزارات ملقارت على البقايا المحترقة لهؤلاء الأطفال مدفونة في جرار، ومن المعروف أن تمثاله كان صنماً من النحاس المجوف تشعل فيه نار حامية، ثم تقدم له الذبيحة البشرية، كما عثر على نظائر لهذا المكان في «نورا» أو «نوري» وفي موتيا، وفي جهات أخرى في الشمال الإفريقي.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك معبودات من الدرجة الثانية عند القرطاجيين، لعل من أهمها: أدونيس: وقد شبهه الرومان بمعبودهم مركور، واسم أدونيس مشتق من كلمة سامية معناها «سيد» وهي كلمة «أدون» التي نجدها في العبرية والأوغاريتية، والأصل في أدونيس هو أدوني (سيدي) فحرف في اليونانية واللاتينية إلى أدونيس Adonis.

وهناك «بس»، وهو قزم مشوه الخلقة شنيع، نجد له أمثالاً في آسيا الصغرى ومصر.

وهناك «جوبيتر أمون» - كما أشرنا من قبل - وهو معبود إفريقي، وقد اختلط الاسمان فيما بعد، حتى اتخذ «جو بيتر أمون» الإفريقي شخصية «زيوس كويليستيس» عن طريق بعل حمون، ثم اختلطت الخصائص مع أن الاسمين في الواقع المعبودين مختلفين كما يدل على ذلك هجاء اسمها الأصلي، غير أن حروف «بعل حمون» لم تلبث أن نسيت، وشاع رسم الاسم خطأ باسم «بعل أمون».

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الغالبية العظمى من الأسماء القرطاجية إنما يدخل في تركيبها أسماء الإلهة (Thophoric)، وليس من شك أن ذلك إنما كان بقصد ترضية الآلهة والتبرك بها، وعلى سبيل المثال، فإن «حملقرت» إنما يعني «حبيب ملقارت»، و «حنبعل» يعني «حبيب بعل»[1].

هذا وقد عرف الفينيقيون - الكنعانيون كذلك عادة التضحية البشرية، ومن ثم فقد كانت التضحية بالطفل البكر عرفاً جارياً لدى الكنعانيين في العصر العتيق، وفي حفريات «جازر» (على مبعدة ٢٩ كم شمال غرب القدس، ٢٧ كم جنوب شرق حيفا)، دليل قاطع في هذا الصدد، فلقد وجدت بها عظام أطفال في حالة بلاء بين بين، مودعة في أسس المنازل، وقد احتفظ الفينيقيون بهذه العادة السيئة إلى العصور القريبة، حتى روى «فيلون» الجبيلي النحوي (٦١-١٤١م) أنه كان من عاداتهم في حالة الأخطار العامة أن يضحوا بأعز أبنائهم لإبعاد الكوارث عن أنفسهم[2].

١- المرجع السابق، ص ٣٤٣- ٣٤٥.

٢- نفس المرجع، ص ٣٤٨.

١١ـ العبادة:

من الأوصاف الإلهية، ومن الجذور اللغوية لأسماء الأعلام، بل ومن الأسماء الإلهية نفسها، يمكننا تكوين فكرة قريبة من الوضوح عن العلاقة بين العناصر البشرية والإلهية في الديانة الفينيقية. على وجه الأجمال تؤكد الصفات على الفرق بين العناصر البشرية والإلهية. ففي حين يندر أن توصف العلاقة بين الآلهة والبشر على أنها علاقة «ابن» أو «ابنة»، يكثر وصف الإنسان على أنه «عبد» للآلهة. فالإله يوصف بأنه العالي والسلطان والقدير والحامي والحاكم والحكيم والمحرر، وهكذا دواليك.

كانت العبادة تقام عادة في الجبال، وبالقرب من المياه والأشجار والصخور التي كانت تتصف بالقدسية عندهم. رأينا كيف كانت تضاف إلى الأسماء الإلهية صفات أو ألقاب معينة (بعل على وجه الخصوص) توحي لنا كيف أن العبادة متمركزة في الأقاليم الجبلية. إن هذا تؤكده الأطلال المتبقية من الحرم، وأحياناً الكنائس المسيحية الصغيرة التي شيدت على أنقاض المقادس الوثنية. كان للمدن الرئيسية مقادسها التي كانت تقام على التلال المجاورة لها - أرواد في بيتوقيا وجبيل في أفقا. فقد زار لوسيان معبد أفقا وذكر أنه قديم جداً. وفي صيدا معابد مختلفة لا بد وأن كانت مقامة فوق مرتفعات تشرف على المدينة. فمعبد اشمون كان مقاماً على منحدر تل يجري عند سفحه نهر اسكليبيوس.

وكانت المياه أيضاً تحظى بقسط كبير من التبجيل. فقد كان مقدس أفقا مقاماً في جبال لبنان عند المكان الذي ينبع منه نهر أدونيس، الذي يعرف الآن بنهر إبراهيم. كانت القرابين التي تقدم إلى عشتارت توضع في طاس أو زبدية، وكان الاعتقاد أن الهدايا المقدمة تكون مقبولة إذا غاصت، وإلا طفت على السطح.

وأحياناً يحدث أن يميل ماء النهر إلى الحمرة إذا اقترب من البحر. ويذكر لوسيان أن هذا الماء الأحمر هو دم أدونيس في نظر المؤمن، وبذلك يلقي ضوءاً ساطعاً على المثيولوجيا الفينيقية، التي لم تحفظ لنا عن غير هذا الطريق، لسوء الحظ.

كذلك كانت الأشجار، مثلما كانت المياه، موضوعاً للعبادة. فقد كانت الغياض المقدسة تزرع قريباً من المقادس، وكان العهد القديم يندد بالعبادات التي كانت تقام «تحت الأشجار الخضراء الظليلة». من هذه الغياض واحدة كانت قريبة من حرم عشتارت في أفقا.

في عبادة الحجارة، كانت الأحجار المخروطية تقام فوق مذابح تدعى بيت إيل. ومعنى الكلمة «بيت الله». وهذه تمدنا بتفسير كاف لمفهوم هذه العبادة.

وكان أشهر بيت إيل في فينيقيا ما كان في معبد جبيل، وإننا لنجده محفوراً على قطع نقدية ترجع إلى الحقبة الرومانية. وقد يماثل ذلك عمود خشبي صغير منذور لإله اسمه «اشيراح».

كانت المعابد تتألف عادة من باحات مكشوفة تحيط بالحرم. في وسطها مصلى صغير، أو بيت - إيل، أو مصلىً يحتوي على بيت - إيل، أمامه مذبح للقرابين ويتمم المقدس عادة نافورة مقدسة أو حوض وغيضة. وتوحي لنا الآثار الأركيولوجية أن مقادس أشمون في صيدا وفي بيتوقيا قرب أرواد كانت على هذا الطراز.

والرسوم المحفورة على القطع النقدية تؤكد تماثل معبد بعلات في جبيل مع المعابد الأخرى. كذلك كان للفينيقيين معابد مسقوفة، كما يثبت ذلك آثار أخرى، والوصف الذي أشتمل عليه العهد القديم لهيكل سليمان الذي شيده معماريون فينيقيون.

أما القرابين فكانت من الحيوان والنبات. غير أن فيلون الجبيلي يذكر قرابين بشرية كانت تقرب إلى الآلهة إذا دهت القوم دهياء عظيمة. يؤكد هذه الممارسة الكتاب المقدس وما عرفناه عن المستعمرات الفينيقية في الغرب، ولذلك لا نشك في صحتها.

كانت أكثر الأعياد انتشاراً ما كان يقام منها على شرف أدونيس. فقد كان أهالي جبيل، وربما أيضاً مدن أخرى، يحتشدون في هذه المناسبات. ولو كان لدينا توثيق كاف عن ديانة المدن الفينيقية الأخرى، لأمكننا اعتبار هذه الأعياد إحدى خصائص هذه الديانة. على أن هناك مصدراً آخر غير مباشر - ثيو قريطوس في روايته

عن أدوناي في الإسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد - نستطيع أن نستخلص منه أن عيد أدونيس كان ذا طابع مأتمي بصفة رئيسية: يكرر جنازة الإله، ويكرر القرابين والمآدب[1].

١٢- الكهانة:

كان القوم يخصصون لكل معبد مجموعة من الكهنة للقيام بالشعائر الدينية وهم «الكوهانيم» ويحمل أكبرهم لقب «رب» بمعنى رئيس، وكان هناك - في بعض الأحايين - كاهنات.

وكان من بين الكهنة طبقة «العرافين» كما كان للمعبد خدم منهم الحراس، ومن بين الخدم، الحلاقون، وغيرهم من أهل الحرف، وغالباً ما كان الحلاقون يقومون بحلق شعر كل من يريد أن يتعبد للآلهة.

ولعل من الجدير بالإشارة، أن وظائف الكهنة إنما كانت شرفية، كما كانت وقفاً على بعض الأسر أحياناً، كما كان بالمعبد رقيق مقدس من الجنسين، يقومون بالبغاء المقدس، وهو نظام إنما كان يوافق ويلازم عبادة عشتار بوصفها إلهة للخصب.

هذا وتشير بعض نصوص أوغاريت (رأس شمرا) إلى بعض طقوس التنبؤ، هذا وقد وجدت طائفة خاصة هي «طائفة الأنبياء المحترفين» وهم على وجه اليقين، غير أنبياء الله الكرام البررة - وليست الدنيا المعلومات الضرورية التي تمكننا من فهم مكانتهم ووظيفتهم في الدين الكنعاني الفينيقي، ولكنهم يمثلون مظهراً من مظاهر هذا الدين، له نظير عند بني إسرائيل، يدعو إلى الاهتمام البالغ.

ونقرأ في التوراة أن عدد أنبياء البعل أربعمائة وخمسين، وأنبياء السواري أربعمائة في عهد نبي الله إلياس (إيليا) عليه السلام، وعلى أيام ملك إسرائيل «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ق.م)[2].

١- سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية، مرجع سابق، ص ٨١- ٨٣.

٢- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، مرجع سابق، ص ٣٥٤- ٣٥٥.

١٣ـ العالم الآخر:

كان الدفن في فينيقيا على عدة صور، فالفقراء يدفنون في الحقول، أو في جرار فخارية، وأما الأرستقراطيون فكانوا يدفنون في نواويس (توابيت)حجرية على الطراز المصري[1].

هذا وكان القوم يعتقدون في بقاء الروح، بعد موت الإنسان، في حياة ضيقة النطاق، لا حركة فيها، ولا متعة، وإن ظلت الروح على اتصال وثيق بالجسم الذي فارقته، ومصيرها متوقف على مصيره، ومن ثم فقد اهتم القوم كثيراً بالحفاظ على الجسد.

هذا وكانت الروح تعيش على الضفاف أو الظلال، طالما كان الجسم سليماً، موسداً في قبره (منزل الراحة - أو منزل الأبدية)، ومن ثم فقد كان الجسد يوضع في تابوت في أعماق بئر، بعيدة النور، أو في داخل كهف يموّه من الخارج، بحيث يضل اللصوص.

وكانت تقام إلى جوار المقابر أعمدة جنائزية، كما كانت توضع - مع الميت أحياناً - بعض أدواته ومعداته اللازمة، وأدوات الزينة، الأمر الذي يشير إلى وجود اعتقاد غامض بين القوم، بنوع من الحياة على الطراز المألوف في هذه الدنيا.

يقول سباتينو موسكاتي مؤلف كتاب الحضارة الفينيقية: «ما من شك في أن الفينيقيين كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت. فبالإضافة إلى القرابين الجنائزية، كانت هناك التوابيت الباذخة، وكان هناك تحنيط الموتى الذي ظهرت فيه آثار إلى النور. وفوق كل ذلك كانت هناك الأوعية التي تنقش على التوابيت محذرة من ينتهك حرمة الميت من أن تحل عليه لعنة الآلهة. يقول أحيرام:

«إذا هجم ملك أو حاكم أو قائد جيش على جبيل وكشف الغطاء عن هذا التابوت، فلينكسر صولجانه ولينقلب عرش ملكه».

وأوضح من ذلك نقوش صيدا. يقول تبنيت Tabnit:

١ـ د. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص ١٣٢.

«كائناً من كنت، أيهذا الذي يجد هذا التابوت، لا تفتح الغطاء ولا تزعجني، لأنني لا أملك نقوداً ولا ذهباً، ولا أملك شيئاً يستحق النهب، لا أملك غير نفسي التي ترقد في هذا التابوت لا تفتح غطائي ولا تزعجني، لأن هذه إساءة إلى عشتارت. فإذا فتحت غطائي وأزعجتني، لم تكن لك ذرية في حياتك تحت الشمس، ولا راحة مع الموتى».

وتذكر النقوش أسماء كائنات من العالم الآخر كانوا يسمونها «رفائيم» (= ظلال)، مما يؤكد إيمانهم بالعالم الأسفل والأرواح التي تسكنه»[1].

وعندما تعلم الفينيقيون التحنيط من المصريين، في القرن الخامس قبل الميلاد، مارسه كثير من الأغنياء.

وهناك تأثير مصري آخر، يظهر في عادات الدفن عند الفينيقيين، وهو وجود التوابيت ذات الشكل البشري، وقد اكتشفت توابيت كثيرة من هذا النوع، يظهر فيها رأس بشري، وأحياناً شكل متكئ بكامله على الغطاء، وترجع إلى الفترة فيما بين القرن السادس والثالث قبل الميلاد[2].

١٤ـ الأصنام:

اكتفى الكنعانيون عامة بالنصب والعمود المقدسين واستغنوا بهما عن ضرورة صنع الأصنام. والصور والتماثيل الصغيرة البرونزية التي تمثل بعل واقفاً يلوح بالصاعقة بيده اليمنى المرفوعة كانت شائعة. والإلهة كانت عادة تمثل عارية ويداها على جانبيها أو تمسكان بثدييها كما لو كانت تعطي الغذاء. وقد وجدت تماثيل صغيرة متعددة من هذا النوع مصنوعة من المعدن أو الطين. ولكنها كلها تبدو أنها كانت تستخدم في المنازل وليس في الهياكل. وكانت تحترم بسبب قدرتها السحرية. وكان المتعلم يعتبر التمثال مسكن الآلهة، أما العامي فربما اعتبر أن التمثال نفسه هو الآلهة. وكانوا يمثلون الإلهة السورية أتارغاتس عادة في أواخر الألف الثاني بشكل امرأة عارية أيضاً وترفع إحدى يديها ممسكة بساق نبات الزنبق أو بالحيات.

١ـ سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية، مرجع سابق ص ٨٣ـ ٨٤.

٢ـ د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، مرجع سابق ص ٣٥٧ـ ٣٥٨.

وهناك إلهة سوريا أخرى هي قادش وتتخذ أيضاً شكل امرأة عارية واقفة على أسد. وكان الأسد أو الثور رمزاً للحيوية والقوة. أما لماذا اتخذت الحية رمزاً للخصب فإن ذلك غير واضح. وقد يكون ذلك لأنها كانت تعيش في أحشاء الأرض. ولا شك أن الأقدمين كانوا يعجبون بقدرتها الفائقة على طرح جلدها وتجديد جسمها كل سنة وعلى إصابة من تعضه بالموت المباشر. وقد يتردد الفلاح السوري حتى اليوم في قتل حية سوداء إذا وجدها في منزله على أساس أنها قد تكون حاميته[1].

١- د. فيليب حتي، المرجع السابق، ص ١٣١- ١٣٢.

الحروف الهجائية والكتابة الفينيقية

اشتهر الفينيقيون باقتران اسمهم بالحروف الهجائية التي ينسب إليهم أنهم أول من تعرف عليها، فقد كان الفينيقيون - بحكم وضعهم الجغرافي - يحتلون مكاناً وسطاً بين شعبين، استطاعا أن يصلا إلى التعبير عن أفكارهم وتسجيلها بالكتابة، التي برزت في حضارة وادي النيل بالحروف والمقاطع الساكنة معاً، وبرزت في حضارة وادي الرافدين بالمقاطع المسمارية.

وأما أداة التسجيل في وادي الرافدين، فكانت «ألواح الطين»، وكانت في وادي النيل «أوراق البردي» وملفاتها، وكانت أهم السلع التجارية في «جبيل».

ومن هنا اشتق اليونان في لغتهم «بيبلوس» Biblos، ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة «Bible» في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وتعنيان «الكتاب المقدس» أي (التوراة والإنجيل).

وكانت المقاطع والخطوط المسمارية - كأداة للكتابة - تتطلب الكثير من الجهد لغموضها وصعوبة فهمها وعدم قدرتها على الأداء السليم، لما يراد التعبير عنه، ذلك لأنها إنما تعتمد على الصور التي تقوم مقام الكلمات - في أغلب الأمر - ومن ثم فهي لا تستطيع أن تكون وافية بالغرض من حيث التعبير عن القوة النطقية أو الأصوات، ولما تطورت ظلت تحتفظ بالعلامات الرمزية، على الرغم من إدخال عدد كبير من المقاطع للتعبير عن الصوت.

وأما الكتابة المصرية بأنواعها المعروفة (الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية)، فقد ظهر بها ٢٤حرفاً (أربعة وعشرون حرفاً هجائياً)، فضلاً عن المقاطع المكونة من حرفين أو ثلاثة.

هذا وعلى الرغم من أنها احتفظت بالمخصصات والعلامات الرمزية، غير أن التطور الذي طرأ بظهور الصور التي تعبر عن الأصوات، ويستطاع عن طريقها،

ترجمتها لها، إنما يمكن أن يعد الخطوة الأولى للتبسيط وظهورها حروف الهجاء، واضحة محددة. وانطلاقاً من هذا كله، فإن الفينيقيين - دونما ريب - ليسوا أول من عرف حروف الهجاء، بل إن هناك من سبقهم إليها، واهتدى إلى معرفتها قبلهم، فهم في أغلب الأمر - ناقلون، استطاعوا أن يدخلوا بعض التحسينات والإضافات للحروف التي أخذوها، من حيث أخذوا البردي[1].

وإنا لنجد الفينيقيين نحو عام ١١٠٠ قبل الميلادي، يستوردون البردي من مصر، وكان هذا النبات ذا فائدة لا تقدر للأمة التي تعنى بحفظ السجلات الحسابية ونقلها من مكان لآخر، وذلك لما فيه من يسر، إذ ما وزن بالألواح الطينية الثقيلة التي كانت تستخدم في العراق القديم.

هذا فضلاً على أن الحروف المصرية (الهجائية) أرقى كثيراً من المقاطع السمجة التي تستخدم في غير مصر - من بلاد الشرق الأدنى القديم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أقدم ما كشف من كتابات بالحروف الهجائية، لم يكشف في فينيقيا، وإنما في مصر - في سيناء - فلقد عثر (سير وليم ماثيوس فلندرن بتري) في عام ١٩٠٤ في «سيرابيط الخادم» حيث كان المصريون القدامى يستخرجون الفيروز - على نقوش لعلامات كتابة جديدة، عرفت باسم «البروتو سينائية» أو «كتابة ما قبل السينائية» أثارت اهتماماً كبيراً بين علماء اللغات.

هذا قد ذهب «بتري» إلى إرجاع عصر هذه الكتابة إلى نحو عام ١٥٠٠ق.م - أي الأسرة الثامنة عشرة المصرية (١٥٧٥-١٣٠٨ق.م)، وأنها نتيجة التأثير الواضح في ثقافة الساميين، الذين احتكوا بالمصريين أثناء استغلالهم لمناجم الفيروز في سيناء، وأن هذه الكتابة قد اشتقت من كتابة مصرية قديمة، لأن علاماتها شديدة الشبه بالعلامات المصرية القديمة، وإن اشتد الجدل حول هذه الكتابة المصرية: هل هي الهيروغليفية أم الديموطيقية[2].

وكان للسير «آلن جاردنر» - العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة - فضل السبق في اشتقاقها من الهيروغليفية، وأنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة وربما فيما

١- د. نجيب ميخائيل: سوريا، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٥٥- ٥٦.

٢- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، ص ٣٦٥- ٣٦٦.

يـرى الـبعض إلى أيـام الهكسوس (١٧٢٥-١٥٧٥ق.م)، أو بعـد طـردهم مباشـرة، بـل إن هناك من يحاول إرجاعها إلى نحو عام ٢٥٠٠ق.م.

وعلى أيّ حال، فإن هذه الكتابة «البروتو سينائية» - أو كتابة ما قبل السينائية - ليست بالخط المصري، كما أنها ليست بالكتابة المسمارية المقطعية، وإنما هي حروف هجائية محدودة العدد، استعملت بهيئة صوتية، يمثل كل منها صوتاً خاصاً، وإن لم يكن الصوت الأول دائماً، فهي - بهذه الصفة - هجائية مقطعية.

ولم يستطع أحد - حتى اليوم - أن يزعم أنه استطاع أن يحلها حلاً يطمأن إليه تمام الاطمئنان، وإن كان هناك من يذهب إلى أن هذه الكتابة «الكتابة البروتو سيناثية» «قد انتقلت إلى الفينيقيين، هذا فضلاً عن أن هناك من يذهب إلى أنها قد انتقلت إلى بلاد العرب الجنوبية».

ويذهب «شبر نجلنج» إلى أن «الكتابة البوروتو سيناثية» إنما قد انتقلت من سيناء إلى بلاد العرب - عن طريق القوافل المحاذي لساحل البحر الأحمر - حيث نشأت الكتابة العربية الجنوبية، ثم انتقلت هذه الأخيرة إلى الشمال - عن طريق القوافل الداخلي، والذي يمر بالمراكز الحضارية المختلفة في «العلا» و «مدائن صالح» وغيرهما - حيث نشأت الكتابة الحبشية القديمة.

وقد أشار «جريمة» إلى أوجه الشبه بين الحروف الثمودية وبين الكتابة البروتو سيناثية، فكلاهما تكتب أفقية ورأسية، ولا توجد فواصل في كل منهما، والأمر غير ذلك في الكتابة المعينية والسبئية.

ثم يرى «جريمة» - بعد ذلك - أن الذين ابتكروا الكتابة الثمودية، إنما هم قوم «مدين»، الذين عاشوا في شبه جزيرة سيناء، إبان النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، وكانوا أقرب الجيران إلى أصحاب «الكتابة البروتو سيناثية».

ثم انتقلت الكتابة «البروتو سيناثية» عبر مدين إلى الجنوب في بلاد العرب كلها، وأنها أصل الكتابة السيناثية الجنوبية.

ولعل أقدم الوثائق الأبجدية التي كشف عنها في فينيقيا، إنما هي وثائق أوغاريت ولكنها مسمارية الطابع، وأقدم نقش أبجدي فينيقي الطابع هو النقش المكتوب على تابوت «احيرام» (٩٦٩-٩٣٦ق.م)، وبدهي أنه يرجع إلى الألف الأول قبل

الميلاد - وربما فيما يرى البعض إلى الألف الثاني ق.م وصورة الأبجدية التي كتب بها هذا النقش، تشبه أبجدية النقوش الفلسطينية شبهاً مباشراً، وفيها أيضاً شبه بالأبجدية السينائية.

هذا فضلاً عن أنها إنما تعد المرحلة المتطورة للكتابة بالحروف الهجائية، وتتألف من ٢٢ حرفاً هي نواة الكتابة التي اشتقت منها الكتابات الهجائية السامية، وغير السامية، التي تمثلها الفينيقية.

وهناك رواية يونانية قديمة شاع الإيمان بها في العالم اليوناني تنسب اختراع الحروف الهجائية إلى الفينيقيين، حيث اعترف اليونان بما نقلوه في قصة «قدموس» الذي ينسب إليه إدخال ستة عشر حرفاً، ربما فيما بين عامي ٨٥٠، ٧٥٠ قبل الميلاد.

وعلى أيّ حال، فإننا إذا جردنا قصة قدموس من زخارفها الشعرية، فإنها تشير إلى أن المهاجرين من سوريا (فينيقيا) أدخلوا إلى بلاد اليونان الأبجدية، وفن التعدين، وعبادة «ديونيسيوس» - إله الخمر.

هذا وقد نقل اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، أبجدية - أدخلوا عليها بعض التحسينات إلى الرومان، ومن هذه الأبجدية تولدت معظم الأبجديات الأورُبية.

هذا وكان اليونان قد قلبوا بعض الحروف، لأنهم كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين، ولكن حروفهم في جوهرها، هي الحروف التي علمهم إياها الفينيقيون، والتي علموها - هم بدورهم - أورُبا.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن الآراميين الذين استعادوا كذلك أبجديتهم من الفينيقيين نقولوها - بدورهم - إلى العرب والهنود والأرمن، وسائر الشعوب الشرقية التي تكتب بالأبجدية.

هذا وكان من صفات الأبجدية الفينيقية - المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً - بساطتها، مما جعل الكتابة والقراءة في متناول الشخص العادي.

وقد تكون كتابة عرب الجنوب مشتقة مباشرة من الكتابة السينائية والتي لها على الفينيقيين فضل تحقيق المرحلة الابتدائية.

وهكذا تتجه الآراء الآن إلى أن الحروف الأبجدية، إنما قد أخذها الفينيقيون من المصريين، وقد يكون استعمال المصريين لطريقة قصر القيمة الصوتية لعلامات

معينة على الحرف الأول، هو الذي أوحى بذلك الاختراع، فلقد كانت الموانئ الفينيقية أوثق أرجاء سوريا وفلسطين اتصالاً بمصر.

هذا فضلاً عن أن أرجح تفسير للنماذج الأصلية، التي أقيمت على أساسها الحروف - على فرض أن الحروف نشأت عن نماذج - هو التفسير الذي يشتق تلك النماذج من رموز هيروغليفية مصرية، على أساس أن الهجائية وجدت أولاً، في الهيروغليفية المصرية، حيث كان هناك رموز، تدل على حروف، إلى جانب الرموز المستعملة كلمات أو مقاطع.

وانطلاقاً من كل هذا، فيمكن القول: إن كل ما فعله الفينيقيون أنهم طوروا الفكرة، واستخدموا الرموز، للدلالة على حروف فقط، أي أنهم جعلوا منها نظاماً أبجدياً تاماً، مؤلفاً من اثنين وعشرين علامة، من دون حروف صوتية، بسبب تأثير الهيروغليفية المصرية، وهكذا حصل ما سموه بحق «أعظم اختراع أتى به الإنسان»[1].

وهكذا يبدو واضحاً أن أصل الأبجدية الفينيقية، التي غيرت معالم الحضارة، إنما قد استمدت من مصر، ومن كتابتها الهيروغليفية، فالمعروف أن المصريين والسومريين إنما قد اخترعوا الكتابة، قبل أن يخترعها الفينيقيون بنحو ألف عام.

وكانت هذه الكتابة تصويرية في أول الأمر - مجرد تصوير الأشياء المعبر عنها - وكانت تلك هي الخطوة الأولى، وكانت الخطوة الثانية اقتران صوت معين، ونطق معين، بصورة معينة، دون ارتباط بين هذا النطق، وبين ما كانت الصورة تعبر عنه من قبل: ثم مضى المصريون إلى أبعد من ذلك، بأن خصصوا بعض هذه العلامات لتدل على الحروف الجامدة، وجعلوا هذه الحروف تمثل صوت الكلمة الأولى التي اقتبست منها وبذلك اخترعوا أبجدية تتألف من ٢٤ حرفاً، ولكن الكتاب المحترفين الذين كانوا يحتكرون هذه الصناعة، ويحتكرون أسرارها، لم يغيروا من طريقتهم القديمة المعقدة، ولم يعتمدوا على هذه الأبجدية في التعبير عما يريدون، حتى أصبحت هذه الكتابة، أشبه بالألغاز، لا يفهمها إلا من يتقنها، أو يتضلع فيها.[2]

١- سباتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، بيروت ١٩٨٦ ص ١٢١.

٢- حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ص ٤٠١، نشر مكتبة مصر، القاهرة

إن أنواع الهجاء المختلفة التي أشرنا إليها آنفاً، والتي كانت شائعة بين الناس في هذه المنطقة تدل دلالة واضحة على تعدد التيارات الحضارية من وادي الرافدين ومصر وفينيقيا وتلاقحها. وتشير إلى تبادل الأفكار العلمية والدينية بين هذه البلدان أصبح أمراً ميسوراً. ولكن مما يؤسف له أنه لم تصلنا نماذج كثيرة من هذا الأدب. فالفينيقيون كانوا يكتبون على مواد قابلة للتلف والاضمحلال: على البردي.

وفضلاً عن هذا فإن أكثر ما كان يكتبه الفينيقيون كان من نوع المعاملات التجارية. ومن مهازل القدر أن يكون الشعب الذي وضع الحرف قد خلف لنا قليلاً من الحرف. وأكثر النقوش الفينيقية الطويلة تعود إلى زمن متأخر: ما بين القرن الخامس والثاني قبل الميلاد وفي فينيقيا ذاتها لا نعثر على أي نقش كتابي فينيقي بعد ظهور المسيحية. أما في المغرب فقد ظلت اللغة الفينيقية بشكلها القرطاجي حية حتى ظهور الإسلام. وقد كان العثور على نقوش مزدوجة اللغة في قبرص ومالطة، أي نقوش مكتوبة باللغة الإغريقية والفينيقية جنباً إلى جنب، حافزاً قوياً جعل المستشرقين الفرنسيين في منتصف القرن الثامن عشر يبذلون قصارى جهدهم لحل رموز الحرف الفينيقي وقراءة النصوص. وقد كللت جهود المستشرقين بنشر مؤلف قام به المستشرق الألماني المعروف جاسينيوس Gescnius عام ١٨٣٧، وفيه قراءة وتفسير لجميع النقوش الفينيقية التي كانت معروفة في زمنه[1].

١- د. فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ١٥٣.

النشاط الاقتصادي

الزراعة:

أثرت البيئة في حياة الفينيقيين - كما أثرت في تاريخهم وعمارة مدنهم - فقد كانوا يحيون حياة اقتصادية تمليها ظروف البلاد ومواردها الطبيعية، وكانت أهم حرف السكان: الزراعة والصيد، وعلى الرغم من أن الفينيقيين شعب ملاح، فهم أيضاً شعب مزارع، حتى أنهم لا يدعون أقل قطعة من الأرض صالحة للزراعة دون استغلال.

وكان الفينيقيون كذلك يستخرجون من الأرض كل ما يمكن أن تعطيهم من موارد، وكانوا بوجه خاص يستغلون غابات لبنان، بل اعتقدوا يومئذ أنها غابات لا تنفد، حتى ابتدؤوا في قلعها، لا استغلالها.

هذا وكانت زراعة الحدائق أحب الحرف إليهم، حتى أنها أثرت في فنهم ودينهم، وكانوا يبذرون الحب بأيدهم، في أول الأمر، ثم ما لبثوا أن استعملوا المحاريث، من بابل حيناً، ومن مصر أحياناً أخرى، وقد عثر المنقبون على بعض الأدوات الزراعية التي ترجع إلى نحو عام ١٥٠٠ق.م، وربما إلى ١٢٠٠ق.م.

وكان الفلاح الفينيقي يجني محصوله بواسطة منجل مصنوع من الصوان، أسنانه من الملاط، ومقبضه من الخشب، وقد ظلت هذه الآلة تستخدم حتى نحو عام ١٠٠٠ قبل الميلاد حينما استخدم «المنجل الحديدي»، وسرعان ما صنعت المحاريث من الحديد.

وكان القوم يستخرجون الحب بشوكة طويلة من الخشب، ويطحنون القمح بمطاحن من الحجر، ويخبزونه في أفران أسطوانية من الطين.

هذا وكانت المحاصيل الرئيسية: القمح والشعير والشوفان والفول والعنب والتين والزيتون والرمان والحبوب والفاكهة وغيرها من محصولات حوض البحر المتوسط.

وفي لبنان حيث يزيد عدد السكان عن طاقة الأرض، نجد القوم يزرعون سفوح الجبال ويقيمون من حولها الأسوار لحماية الأرض وبسط رقعتها، وهذه السفوح ملائمة تماماً لزراعة الحدائق والكروم والحبوب.

ومن المعروف أن الأشجار المثمرة التي كانت تزرع في فينيقيا على نطاق واسع، إنما هي الأنواع الثلاثة التي تقاوم الجفاف - وهي التين والزيتون والكرمة - وقد أدخل الفينيقيون الكرمة إلى بلاد اليونان، ومن هناك إلى إيطاليا.

ومن المعروف كذلك، أن شجر الزيتون - وهو شجر قديم أصيل في لبنان - قد جاء أقدم ذكر له في نقوش «أوغاريت» ويرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، كما أن جرار الزيت التي كانت تستخدم توابيت يدفن فيها الأموات، إنما كانت ترجع إلى نفس القرن الخامس عشر قبل الميلاد[١].

وكان القوم يحرقون الزيت في السراج لإنارة بيوتهم، والزيت مرهم لجراحهم، ويدخل في صناعة الدهون العطرية، والعلاجات الطبية.

هذه وكانت تربية الحيوان من أقدم وأكثر أنواع النشاط الاقتصادي انتشاراً بين الفينيقيين ومع ذلك فإن المصادر المختلفة إنما تظهر لنا أن القوم لم يقتصروا في نشاطهم على تربية قطعان الماشية، وزراعة الحاصلات الزراعية، وإنما زرعوا كذلك الكتان، بقدر ما سمحت لهم رقعة الأرض المحدودة في شرقي البلاد.

وأما أشهر أشجار لبنان وأفخمها إنما هو «شجر الأرز» وهذا وقد تغنى الشعراء والأنبياء والمؤرخون القدامى بصفاته، ومن ثم فقد وصف بالقوة والمقاومة والجلال والملائمة للحضر، وفي الواقع فإن الإشارة في أسفار التوراة إلى طول شجرة، وعلو ارتفاعه، وإلى أرز لبنان العالي المرتفع، كل ذلك إنما يشير إلى ما كانت عليه ضخامة الأرز اللبناني، وعظم ارتفاعه، كما هو الآن[٢].

هذا وقد زوَّد الأرز الفينيقيين بأحسن الأخشاب لبناء سفنهم، كما كان هذا الأرز يجتذب كثيراً ملوك وادي النيل، ووادي الرافدين، حيث لا تنبت أشجار كبرى في بلادهم.

١- د. فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٤١.

٢- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، ص ٣٨٧- ٣٨٨.

والتاريخ يحدثنا أن المصريين قد ركبوا البحر إلى سواحل لبنان منذ عصور ما قبل التاريخ لإحضار أخشاب الأرز، فضلاً عن رحلة سفن الملك «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة المصرية، فلقد جاء في «حجر بالرمو» بأن «سنفرو» قد أرسل أسطولاً بحرياً مكوناً من أربعين سفينة لإحضار كتل من أخشاب الأرز من لبنان.

هذا وقد فعل «سرجون الثاني» (٧٢٢-٧٠٥ق.م) ملك آشور، ما فعله الملك المصري «سنفرو»، ويحتفظ متحف اللوفر برسم محفور، عثر عليه في «خرسباد» يمثل أسطولاً صغيراً من السفن، يحمل عدة أعمدة خشبية، وقد ربطت بمؤخر الأسطول أعمدة من خشب، هذا فضلاً عن رسوم عثر عليها في «قصر خرسباد» تبين إنزال الخشب إلى الأرض، وصفه في أكوام.

وقصة إمداد «أحيرام» ملك صور، لسليمان بالخشب مشهورة في تاريخ فينيقيا، وفي توراة اليهود، هذا فضلاً عن إنشاء سليمان لأسطوله المشهور بالخبرة والأخشاب الفينيقية.

وهناك هيكل سليمان، والذي تكاد تجمع آراء المؤرخين على أنه فينيقي الطراز، الأمر الذي يشير إلى أن الفينيقيين إنما قاموا بالعمل، كما أنه من فينيقيا أتت أشجار الأرز، التي قام عليها «بيت وعر لبنان»، وقد استخدم الفينيقيون الأعمدة الخشبية - من أخشاب الأرز، بدلاً عن الأعمدة الحجرية.

هذا وقد استؤنست الحيوانات، مثل الأبقار والحمير والماعز والخنازير والكلاب ولم يكن اللحم يؤكل، إلا في الأعياد، وكان يطبخ في قدور ذات فوهات واسعة، وكان القوم يأكلون بأيدهم، أو بملاعق من خشب.

وكان ماء الشرب من خزانات الأمطار والعيون، ويحمل إلى المنازل على الرؤوس في قرب أو أواني فخارية، وكانت المصابيح تصنع من الفخار، وتوقد بالزيت، وقد صنعت هذه المصابيح في النصف الأول من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد عثر المنقبون على عدد لا يحصى من أواني الطبخ[1].

هذا وقد اشتغل الفينيقيون بالصيد كذلك، وبرعوا فيه، بحكم وقوعهم على الشاطئ وصنعوا الزوارق من خشب الأرز، ومن أشهر مدن الصيد الفينيقية مدينة

١- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، ص ٣٩٠- ٣٩١.

«صيدا» حتى أن البعض ذهب إلى أن اسمها، إنما قد اشتق من الجذر السامي «صيدا» بمعنى صيد الأسماك.

وأما بالنسبة لـ «قرطاج» فقد كانت تزرع الحبوب والكروم والزيتون، وتهتم كثيراً بتربية النحل، فضلاً عن الضأن وقطعان الماشية.

وأما عن الحبوب وكثرتها هناك، فيكفي الإشارة إلى أن ولاية شمال أفريقيا أصبحت واحدة من أهم مصادر الغلال لروما.

هذا وقد قام شجر النخيل بدوره في الحياة الزراعية في الشمال الإفريقي، حتى أن بعض المدن، إنما قد اتخذت «النخلة» شعاراً لها، وحتى نقش رسمها على بعض العملة والأختام واللوحات الجنازية.

وأما عن تربية الحيوان، فكان الشائع هو تربية الأبقار والأغنام والماعز.

بقيت الإشارة إلى أن أهل قرطاج كانوا يزرعون نفس المزروعات الفينيقية. وقد اشتهر من أهلها عالمان هما «هميلكار» و«ماجون»، وقد ألفا كتابين في الزراعة، كان لهما شهرة عظيمة في عصرهما، وإن كانت كتبهما قد ضاعت.

وقد اشتهرت الأنبذة الفينيقية بوجه عام، وأشارت إلى ذلك نصوص كثيرة، هذا وكان الفينيقيون والقرطاجيون يستخرجون الزيت أولاً من أشجار الزيتون البرية، ثم زرعوا تلك الشجرة بعد ذلك، كما أن الفينيقيين هم الذين أدخلوا إلى أفريقيا شجرة الرمان.

الصناعة:

اشتهر الفينيقيون في عدة صناعات، لعل من أهمها:

١- صناعة الصبغة الأرجوانية:

اشتهرت جميع المدن الفينيقية تقريباً بهذه الصناعة، وإن كانت صور وصيدا، أهمها جميعاً، وتعتمد هذه الصناعة على ظروف البيئة، ذلك أنه على طول الشاطئ الشرقي لحوض البحر المتوسط، يعيش نوع من القواقع فوق الصخور، وفي المياه الضحلة، وإن كان بعضها يعيش في مياه أكثر عمقاً.

وتمتاز هذه القواقع باحتوائها على كيس صغير، يحوي مادة حمراء أرجوانية، بحيث يستطيع إذا داهمه الخطر آن يلوّن المياه بهذا اللون، فينجو من الخطر المحدق به، وإن كان هذا موضع ريب عند الباحثين.

وعلى أيّ حال، فلقد عرف الفينيقيون كيف يستغلون هذا الحيوان استغلالاً اقتصادياً ناجحاً وكيف يسخرون هذه المادة الملونة، بطريقة علمية دقيقة، وكيف يحتكرون تجارتها ويعرفون سرها دون سائر الأمم.

هذا وأنسب أوقات صيدا هذا الحيوان كان في آخر الشتاء وأوائل الربيع، قبل أن تبدأ إناثه في وضع البيض، فإذا تم صيد هذه القواقع، بدأت عملية تحضير الصبغة.

ومن عجب أنه ليست هناك وثائق فينيقية تحدثنا عن عملية إعداد الصباغ، وإنما عرفنا ذلك من المؤرخ الروماني «بليني الأكبر» (٢٣/٢٤-٧٩م) في موسوعته المشهورة «التاريخ الطبيعي» جاء فيها: «إن هذه الأصداف ما تكاد تصطاد حتى تموت، فإذا ماتت خرج من أجسامها ذلك السائل الأحمر، فيضاف إليه ملح الطعام، ثم يترك لينقع ثلاثة أيام، ثم يغلى في حرارة معتدلة، وأثناء غليانه تنزع الرغوة من وقت لآخر، وفي حوالي اليوم العاشر، عندما تصبح محتويات القدر مائعة، تغطس المادة النسيجية فيه، وتترك لامتصاص السائل مدة خمس ساعات، ثم تسرّح وتوضع ثانية، حتى تتشرب اللون تماماً، ويعتبر الصباغ على أحسنه، عندما يتخذ لون الدم المتجمد»[1].

وكانت هذه الصباغة ذات شهرة عالمية في العالم القديم، كما كانت المنسوجات المصبوغة لا يقدر على اقتنائها سوى الأغنياء، ومن ثم فقد أصبحت الثياب الأرجوانية اللون، عنوان التفوق، وأدت فيما بعد إلى التعبير المتعلق بالملوك «مولود في الأرجوان»[2].

وفي العصور الهومرية والهلنستية اقترنت الثياب الأرجوانية بالملكية والملوك.

١ـ د. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص ١٠٣.

٢ـ كان تعبير «مولود في الأرجوان» يستعمل دائماً للتعبير عن الأرستقراطية، وشرف المولد. وكانت كلمتا «ارجوان» و«ملكي» متلازمتين لدرجة أنهما كانتا تؤديان المعنى ذاته.

٢ـ صناعة النسيج:

كانت صناعة الغزل والنسيج من أهم الصناعات المنزلية التي قامت بدور كبير في الحياة الاقتصادية في فينيقيا، وقد عثر المنقبون على الأثقال التي كانت تستخدم في الأنوال القديمة، وقد ثبت أنهم استخدموا الأنوال في هذه الصناعة منذ الألف الثالثة قبل الميلاد.

وكانت المادة الخام اللازمة لهذه الصناعة تتمثل في الصوف والقطن، ومن الكتان الذي كان يزرع بكثرة في بلاد الشام، منذ القرن العاشر قبل الميلاد.

وفي الواقع فلقد برع القوم في الحياكة وصناعة النسيج، وكانوا يستعملون - في بادئ الأمر - المواد الخام التي تقدمها لهم منطقتهم، مستعملين أصواف قطعانهم ومواشيهم، ولكنهم ما لبثوا أن استعانوا بما يستوردون من أصواف من بلاد الرافدين وتركيا، ومن قطن مصر.

وتشيد التوراة (العهد القديم) بمهارتهم في هذا المجال، كما بدأت صناعة الحرير منذ القرن السادس قبل الميلاد، وقد ذكر «القرمز» في العهد القديم، وكان يصنع من حشرات كانت توجد على نوع من أشجار السنديان الذي ينمو حول السواحل الشرقية للبحر المتوسط، وعندما كانت تجف الحشرات، وتحل في بعض الحوامض، كانت تعطي اللون القرمزي، وكانت هذه الحشرة برية في أول الأمر، ثم صارت فيما بعد تربى من قبل الفرس، ثم من قبل الأرمن فيما بعد.

وأما الصوف - وهو أقدم المنسوجات - فقد جاء ذكره في «وثائق نوزي» - وهي مدينة تقع في أعالي دجلة، في موقع «يورجان تبة»، جنوب غربي كركوك - (نحو عام ١٥٠٠ق.م)، وأما القطن فهو من نباتات الهند، أدخله الملك الآشوري «سنحريب» (٧٠٥-٦٨١ق.م) إلى آشور، حيث يشار في إحدى الكتابات إلى «الأشجار التي تحمل صوفاً»، وقد أدخل الفينيقيون القطن إلى العالم اليوناني في أوائل العصر الهلينستي، باسمه السامي، وكانوا ينتجون الكتان في سوريا الجنوبية في القرن العاشر قبل الميلاد.

هذا وقد امتدح «هوميروس» صناعة الحلل الحريرية الفينيقية، فلقد جاء في الإلياذة الكثير من العبارات التي تشير إلى القماش المطرز بالحليات، والمصبوغ باللون الأرجواني، الذي كانت تنتجه صيدا ثم تصدره بعد ذلك عبر البحار.

واستمرت شهرة الفينيقيين بصناعة الملابس طويلاً، حتى أن صيدا كانت تزود القسطنطينية - عاصمة الإمبراطورية البيزنطية - في عهد «جستنيان» (٥٢٧-٥٦٥م) بالمنسوجات المختلفة كالنسيج.

ومما يشهد للفينيقيين بالتفوق في صناعة الغزل والنسيج ما اكتشفه الآثاريون من أن الغزالين إنما كانوا يستخدمون الإبر والدبابيس المصنوعة من البرونز، كما عثر على «أزرار» من العظم أو العاج أو الفخار.

هذا ويبدو شغف الفينيقيين واضحاً بالثياب ذات الألوان الزاهية، كما يبدو ذلك واضحاً في نقوش (بني حسن) في مصر. ففي مقبرة «خنوم حتب» أمير بني حسن (إقليم الوعل) من عهد سنوسرت الثاني (١٩٣٩-١٨٩٥ق.م)، مجموعة نقوش تصور هذا الأمير وهو يستقبل مجموعة آسيوية «كنعانية فينيقية» تتكون من ٣٧ شخصاً رجالاً ونساءً - بزعامة «أبشاي» حيث يلبس القادمون ملابس فاخرة، ذات ألوان متعددة وزاهية، ويطلق الرجال لحاهم، وكان للنساء شعر طويل أسود[1].

٣- صناعة المعادن والعاج والفخار:

أتقن الفينيقيون صناعة المعادن منذ عصر البرونز (٢١٠٠-٢٠٠٠ق.م)، فاستخدموا النحاس والبرونز بوفرة، وقد أثبتت التحاليل الكيماوية لبعض الأسلحة التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أنهم عرفوا فن صهر الحديد، كما خلطوه بمعادن أخرى ليجعلوه أكثر صلابة، وأوفر مقاومة، وقد قاموا برحلات خارج بلادهم للبحث عن القصدير، وذلك للاستعانة به في صنع البرونز، وتحسين خامة الحديد، كما بحثوا عن الذهب والفضة.

هذا وقد استخدمت الفضة على نطاق واسع في الصناعة الفينيقية، بل استخدمت كذلك في التبادل التجاري بين فينيقيا وغربي آسيا، فقامت مقام العملة، واستخدمت أيضاً في الصناعة، فصنعت منها أنواع فاخرة من أطباق الطعام، وقد وجدت في مصر منها أطباق، قدمت لفرعون كجزية.

هذا وقد برع الفينيقيون في استخدام المعادن في صناعة الأسلحة على اختلاف أنواعها، وقد وجد في حفائر مدينة (جريكو) «أريحا» سكاكين ورؤوس حراب

١- د. محمد بيومي مهران: مصر- الجزء الثاني- الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٩١- ٣٩٢.

وفؤوس، كما ظهرت في فلسطين نماذج من الأسلحة الحثية والقبرصية منذ عام ١٥٠٠ق.م. ولا ريب في أن فن الصياغة إنما قد وصل إلى أقصى غايته في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد عثر في بعض المناطق على ميزان الجواهرجي، كما وجدت أساور من الذهب والفضة والبرونز فضلاً عن الأقراط والخلاخيل.

هذا وقد تفوقت صناعة أدوات الزينة فكان الناس يتزينون بعقود وخواتم مصنوعة من حجر الجير والكوارتز والعقيق.

وكانت صناعة الفخار، من أهم الصناعات الفينيقية وأكثرها ازدهاراً، وقد تأثر الفينيقيون في هذه الصناعة بالحضارات الكبرى - في وادي الرافدين - وغيرها من الحضارات المجاورة.

هذا وقد ظل الخزف الفينيقي تنقصه دقة الصناعة، وجمال الهيئة، حتى استخدم الصانع عجلة الفخار، فكان استخدامها فتحاً جديداً في تاريخ صناعة الفخار، ومن ثم فقد اكتسب الخزف الانسجام والإتقان، ودقة الذوق وسلامته.

وقد استخدم القوم القصدير في تلميع الخزف واكتسابه بريقاً خاصاً، ولا تزال النماذج التي عثر عليها دليلاً على مبلغ ما وصلته الصناعة من رقي وإتقان[1].

٤. صناعة الزجاج:

كانت صناعة الزجاج من الصناعات التي تفوق الفينيقيون فيها. وكان المصريون قد اخترعوا صناعة الزجاج من قبل، وأن الفينيقيين قد تاجروا بالزجاج المصري.

ويذهب الدكتور محمد السيد غلاب إلى أن مادة النطرون التي تدخل في صناعة الزجاج إنما كانت متوفرة في مصر، ولم تكن موجودة في فينيقيا، ويرجح أن الفينيقيين قد تعلموها من مصر، وأنهم كانوا يستوردون هذه المادة من مصر، ثم توسعوا في صناعة الزجاج على نطاق واسع، حتى أصبحت صيدا وصور من أكبر مراكز صناعته في حوض البحر المتوسط[2].

ويرى «رينيه ديسو» أنه إذا كان المصريون قد ابتكروا عجينة الزجاج القاتمة، فإن الزجاج الرقيق الشفاف من ابتكار الفينيقيين.

١- د محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، ص ٣٩٩- ٤٠١.

٢- د. محمد اليد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، مرجع سابق، ص ٤٤٢.

ويذهب «ديسو» كذلك إلى أن أهل صيدا، قد ابتكروا الزجاج المنفوخ الذي يزودنا بتحف زجاجية رقيقة وشفافة، وأن الصناع الصيداويين في العصر الروماني قد سجلوا أسماءهم على تحفهم.

وهناك من روائع صناعة الزجاج الصورية، سمكتان من الزجاج الأبيض، طول الواحدة منهما نحو ٥سم اكتشفتا في صور في مطلع القرن العشرين، موجودتان الآن في متحف اللوفر في باريس، وترجعان إلى القرن الأول الميلادي، وتشبهان - إلى حد بعيد - آنيتين للشرب بمتحفي «روما» و «تريف»، مما يدل على أن هاتين الآنيتين إنما قد صنعتا في مصانع الزجاج في صور.

وهناك قطعتان من الزجاج الصوري، واحدة في «كاتدرائية جنوة» والأخرى في كنيسة «مونزا» في إيطاليا، وقد روت الأساطير أنها هدية بلقيس ملكة سبأ للملك سليمان عليه السلام.

وعلى أيّ حال، فلقد ظلت «صور» مشهورة بصناعة أنقى أنواع الزجاج حتى القرون الوسطى.

هذا وقد صنع الفينيقيون أنواعاً مختلفة من الأدوات الزجاجية كتلك التي كانت للاستعمال العادي - مثل الكؤوس والزجاج المستعمل للسوائل والقنيات مما نجده في القبور - وقد اكتسب في الغالب خاصية عكس أضواء ملونة، بسبب طول الحفظ في الأرض، هذا إلى جانب الأدوات الزجاجية المخصصة للترف.

وكان الفينيقيون يصنعون - بطريق النفخ - زهريات من الزجاج الرقيق جداً، وكان الناس يقدرونه، بحيث صارت هذه الزهريات أحياناً، جوائز تعطى في بعض مسابقات المصارعة.

وكانت المصنوعات الزجاجية الفينيقية تصدر إلى البلاد البعيدة - أكواباً رقيقة شفافة، وكانوا يلصقون بها حبوباً من عجين الزجاج، على شكل أسماك ومحار وأعشاب بحرية، وقد اكتشفت نماذج من هذا النوع في «روما» و «تريف» لا شك أنها انتقلت إلى هذه البلاد مع الاتصالات القوية بالغرب.

هذا وقد اشتهر الزجاج الفينيقي الملون برسوم ظاهرة في داخل العجينة الزجاجية وكانوا يتوصلون إلى ذلك عن طريق الترصيع، قبل أن تبرد العجينة، والألوان السائدة

في هذا النوع من الزجاج هي: الأبيض والأصفر والأخضر والأزرق والبني، أما اللون الأحمر فنادر، وقد استعملوا للحصول على هذه الألوان المختلفة «أكاسيد المعادن»، وتكون الزهريات المصنوعة بهذه الطريقة صغيرة جداً، وكذلك استعملوا العجينات الملونة لمحاكاة الأحجار الثمينة، وكثيراً ما كانت ترصيعات الأقراط تصنع من عجين الزجاج الملون بألوان الأحجار الثمينة.

وهناك «لؤلؤ الزجاج»، وهو نصف شفاف، ملون أحياناً، وأحياناً قاتماً، مع رسوم في نفس العجينة، وقد استغل الصانع هذه الصناعات الزجاجية في تأليف القلائد، فإما أن يجعلوا لؤلؤ الزجاج حلية للذهب، وإما أن يؤلفوا القلائد كلها من لؤلؤ الزجاج، ومن عناصر زخرفية مصبوبة في قوالب على شكل أقنعة آدمية، أو رؤوس حيوانات.

هذا وقد صنع الفينيقيون أيضاً العصا الزجاجية الصغيرة المثنية، التي لا نعرف طريقة استعمالها، كما عثر على كمية من حب زجاجي صغير شفاف غير ملون، أو مصبوغ بكل مادته، وغير مثقوب بأي ثقب، وربما كان عنصراً زخرفياً.

وهكذا نجح القوم في صناعة الزجاج الشفاف غير الملون، والملون، والقاتم الذي يشبه الخزف، ويسمح بنفاذ الضوء، والزجاج الذي لا يخترقه الضوء[1].

التجارة:

ساعد موقع فينيقيا البحري على أن تصبح مركزاً للتجارة ولا سيما البحرية، كما ساعد توفر أخشاب الأرز والصنوبر والشربين على الملاحة البحرية وهي ضرورة لازمة للشعوب التجارية، الأمر الذي أدى إلى توجيه الفينيقيين إلى الطواف في البحر المتوسط، واحتكاكهم بالشعوب المجاورة، واتصالهم بالجزر البحرية المهمة، مثل كريت وقبرص وصقلية - كما رأينا من قبل.

ومن المعروف أن التجارة كانت، أو كادت تصبح الحرفة الرئيسية للفينيقيين وبخاصة أهل صور وصيدا الذين كانوا بمثابة وسطاء عالميين للتجارة، انتشروا في العالم القديم شرقاً وغرباً، وحملوا إلى الأسواق الأوربية كل سلع الشرق ومنتجاته،

١- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، ص ٤٠٣- ٤٠٥.

وهكذا تميز الفينيقيون باستعدادهم التجاري، استعداداً كان مضرب الأمثال، بحيث أصبحت كلمة «فينيقي» كثيراً ما تستعمل كمرادف للفظ «تاجر».

هذا ويذهب الأستاذ «رينيه دوسو» إلى أن التجارة إنما قد تمت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: بالقوافل بين خليج العقبة وإقليم أشدود - وهي أسدود حالياً، وتقع على مبعدة ٢٩ كم شرقي غزة - ولم يكن هذا الإقليم - كما هو اليوم - صحراوياً مقفراً.

المرحلة الثانية: بالطرق البحرية - بعد احتلال مدن الساحل في بداية الألف الثالث قبل الميلاد. ولعل أكبر دور قامت به البحرية الفينيقية إنما يرجع إلى الألف الأول قبل الميلاد وأما قبل هذا التاريخ فكان الدور الأول للبحرية الإيجية، ولعل من قرائن ازدهار البحرية الفينيقية أن أبطال هوميروس حين أرادوا الرحيل بالبحر، إنما التجؤوا إلى بحارة فينيقيين.

وعلى أيّ حال فأمر كثافة التجارة الفينيقية، وميل الفينيقيين للهجرة، إنما تؤكده روايات متقابلة رواها الكتاب القدامى، بل يؤكده وجود أشياء ذات أسلوب فينيقي محقق، في أماكن ذكرت الروايات أن سفن ترسيس (سردينيا) قصدتها ونزلت بها.

ولعل من الجدير بالإشارة أن التوراة إنما قد رددت صدى هذا الرواج التجاري في فينيقيا، وذلك في وصف النبي «حزقيال» ٥٩٣-٥٧٢ق.م - في سفر المعروف باسمه - لكثرة الترف في صور، ثم تنبؤه بدمارها وصورت التوراة كيف يهرع الناس إلى الموانئ الفينيقية في منتصف الألف الأول قبل الميلاد، وكيف توجد بالميناء بضائع لا حصر لها في أكوام مكدسة على الأرض[1].

الحياة الاقتصادية في قرطاج:

لا ريب في أن قرطاج قد اعتمدت على التجارة أكثر من أيّ مدينة أخرى، وأن الرجل القرطاجي الأصيل، إنما كان في أذهان الناس وقت ذاك - وبخاصة عند اليونان والرومان - تاجر بطبعه، كما كانت قرطاج تمثل أغنى مدينة في عالم البحر

١ـ المرجع السابق، ص ٤٠٦ـ ٤٠٧.

المتوسط، ومع ذلك فإن الثروة التجارية لم تترك آثاراً تتفق وما اشتهرت به قرطاج من غنى وجاه، فضلاً عن أنها (أي الآثار) - أقل بكثير من آثار المدن الكبرى - الإغريقية والأترورية - التي ترجع إلى نفس الفترة، وليس هناك من ريب في أن أحد الأسباب الرئيسية في حالة قرطاج، أن أغلب تجارتها إنما كانت في سلع لا تترك أثراً، فأغلبها معادن غير مصنعة - وهي الهدف الرئيسي من حركة الاستكشاف الفينيقية - ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية التي تزايدت نتيجة لاستغلال أراضيها الخصبة، وكانت تجني الأرباح من التجارة مع القبائل الداخلية التي جلبت منها الذهب والفضة والقصدير، وربما الحديد أيضاً، ذلك لأن قرطاج كانت تصنع أسلحتها بنفسها.

وليس من شك في أن قرطاج إنما قد حصلت على تلك المعادن في مقابل مصنوعات رخيصة، ومن ثم فقد جنت أرباحاً طائلة، وليس أدل على وفرة الأرباح من تلك الجيوش الضخمة التي استطاعت قرطاج تجنيدها من المرتزقة في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد - هذا فضلاً عن سك النقود من الذهب، على نحو تجاوز ما فعلته المدن المتقدمة الأخرى آنذاك.

هذا وتحدثنا المصادر كثيراً عن الدور القيادي النشط في المشروعات التجارية الكبرى، وطبقاً لرواية هيرودوت، فإن الفرعون المصري «نخاو الثاني» (٦١٠-٥٩٥ق.م) قد كلف الملاحين الفينيقيين بالطواف حول أفريقيا، ويكاد يكون من المؤكد الآن أن السفن التي أرسلها الفرعون لتقوم بدورة ملاحية حول أفريقيا قد نجحت في هذه المهمة حيث قضت في رحلتها ثلاث سنوات دارت فيها حول شواطئ أفريقيا، ثم عادت من مضيق جبل طارق محملة بجميع خيرات أفريقيا التي حصلت عليها من الموانئ التي مرت بها السفن.

ولعل من أهم الأدلة على نجاح الرحلة ما ذكره الملاحون من أنهم كانوا دائماً يسيرون على مقربة من الشاطئ، وكانت الشمس تشرق عن يسارهم، ولكنهم وصلوا إلى نقطة فإذا بهم يرون أن الشمس تشرق عن يمينهم، وقد رفض هيرودوت تصديق ذلك، بينما آن هذه النقطة بالذات إنما تدل على صدق أنباء الرحلة، لأن ذلك إنما قد حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح، وكانت المرة الأولى التي تمر فيها مثل هذه السفن لغرض الكشف والمعرفة وإظهار المهارة وفتح أسواق للتجارة في آن واحد، ولا بد أن مهدت لها معارف وإرهاصات سابقة.

ويحدثنا هيرودوت عن التجارة القرطاجية على الساحل المراكشي، فكتب نحو عام ٤٣٠ق.م يقول: «أخبرنا القرطاجيون أيضاً عن جزء من أفريقيا وسكانها وراء مضيق جبل طارق، وعندما وصلوا هذا البلد أفرغوا بضائعهم ورتبوها على الشاطئ، ثم عادوا إلى سفنهم، وأرسلوا إشارة بالدخان، عندما رأى الوطنيون الدخان جاؤوا إلى البحر ووضعوا كمية من الذهب مقابل البضائع ثم قفلوا راجعين، وعندئذ عاد القرطاجيون إلى الساحل مرة أخرى وفحصوا الذهب الذي تركه الوطنيون، فإذا رأوا أنه يعادل قيمة البضائع أخذوه وأبحروا بعيداً، وإلا عادوا إلى سفنهم وانتظروا أن يضيف الوطنيون الذهب الكافي لإرضائهم، لا يخدع جانب جانباً آخر، فلم يكن القرطاجيون يقربون الذهب حتى يساوي في قيمته البضائع التي أحضروها كما أن الوطنيين ما كانوا يقربون البضائع حتى يتم نقل الذهب من مكانه»[1].

هذا وكان القرطاجيون يقومون برحلات تجارية برية، عبر الصحراء، إلى منطقة نهر النيجر والسنغال، وربما كانت عن طريق «لبدة» و «صبراته»، وهما المدينتان الواقعتان في منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة، وعلى أيّ حال، فإن اهتمام قرطاج بإبعاد الإغريق عن المنطقة دليل على وجود تجارة مهمة مع الداخل، حيث إن الأرض الزراعية المناسبة للاستيطان نادرة، وفي القرن الخامس قبل الميلاد يحدثنا هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما: الجرمانتيون والناسامونيون في أقاليم جنوب سرت، وأن المسافة بين الساحل ومنطقة الجرمانتيين - المركز السكاني لجرمة - تستغرق ثلاثين يوماً، وأن الرومان قد حصلوا - عن طريق الجرمانتيين - على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية في القرون التالية.

وهناك ما يشير إلى أن «العقيق الأحمر» إنما كان إحدى السلع التجارية الصحراوية، وربما كان هناك تجارة في الرقيق، حيث يذهب البعض إلى أن الجرمانتين كانوا يتعقبون الإثيوبيين (الزنوج) بعربات تجرها أربعة جياد، هذا إلى جانب تجارة العاج والجلود، وليس هناك من ريب في أن عدم وجود «الجمال» في شمال أفريقيا وقت ذاك، إنما يجعل السفر في الصحراء صعباً جداً، الأمر الذي يحول دون تجارة واسعة عن طريق الصحراء.

١- د. محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٤٠٩- ٤١٠.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن التجارة كانت تتم عن طريق المقايضة، وأن اليونان قد بدؤوا في استخدام العملة في القرن السابع قبل الميلاد، وأكبر الظن أن «كرويسوس» (٦٥٠-٥٤٦ق.م) ملك ليديا هو الذي استخدم صب السبائك الذهبية، ذات الوزن الواحد، وطبع الصور عليها... أي أصبح استعمال العملة عادياً في القرن السادس قبل الميلاد.

وقد بدأت قرطاج في إصدار عملتها في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة، وحيث أصبح من الضروري أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقداً[1].

١- المرجع السابق، ص ٤١٩.

الفن الفينيقي

يذهب بعض الباحثين إلى أن الفن في سوريا وفينيقيا وفلسطين يمتاز بفقره وجمعه بين عناصر أجنبية، وكان هذا أمراً محتوماً من الوجهة التاريخية، ذلك لأن هذه المنطقة لا يمكن أن تقوم فيها قوة سياسية موحدة، بل إن جزءاً كبيراً من هذه المنطقة - ولا سيما في فينيقيا - لم يكن يهتم أصلاً، بإنشاء مثل هذه القوة، أو حتى إنشاء وحدة حضارية ثابتة، تبعاً لذلك، فقد كان منهكاً في المطامع التجارية.

ومع ذلك، فإذا نظرنا إلى بيان الغنائم التي وقعت في أيدي المصريين بقيادة الفرعون «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) - في أعقاب «معركة مجدو» في ١٢ مايو من عام ١٤٦٨ قبل الميلاد - لهالنا ثراء تلك البلاد، وتقدمها الحضاري في ذلك العهد، فإلى جانب العربات المصفحة بالذهب والفضة، والأواني الذهبية والأسلحة، يذكر الفرعون سبعة قضبان من نوع ثمين من خشب «مرو» وكانت مصفحة بالفضة لتحمل سرادقات بعض الأمراء، وكان عدد الماشية التي استولى عليها المصريون ألفين أو تزيد، وكان عدد الماعز ألفين، أما الضأن فكان عددها عشرين ألفاً، فضلاً عن ألفين ومائتين وثمانية وثلاثين حصاناً.[1]

١ـ المعابد:

يتألف المعبد الفينيقي عادة من ساحة، توضع فيها صورة الرب - إما منفردة وحيدة، وإما مصحوبة بمعبد صغير - ويقام أمام صورة الرب مذبح، ولعل خير مثال يمكن أن نستعرض أجزاءه المختلفة هو معبد عمريت - وهي مدينة فينيقية قديمة

١ـ احمد فخري، مصر الفرعونية، ص ٢٨٠.

على ساحل البحر المتوسط (محافظة طرطوس)، وقد ظلت فترة طويلة تابعة لمدينة أرواد.

يتكون الجزء الأساسي من معبد عمريت من سور مقدس في جنب تل من التلال، ومن ساحة كبيرة داخل السور، وهي منحوتة في الصخر (طولها ٢٥م، وعرضها ٤٨م) وكان من نتائج النحت في الصخر، أن جدران السور المجاورة للتل من الصخر، قد ترتفع إلى ٥م، ويشرف الجدار الشمالي للساحة على نهر عمريت، وفي أطراف الساحة حفرة منحوتة في الأرض، ربما لتكون مبايت لشواهد أو لصور الرب، وأعلى من ذلك في متن الجدار نفسه من الداخل، توجد حفرة أصغر، ذات شكل مربع.

وهناك من القرائن ما يثبت أنه كان يوجد في كل نواحي السور، أروقة بأعمدة من خشب، على الأرجح، ذات سقف محمول على عروق من خشب، وقد ثبتت في الحفرة المربعة، ويوجد في وسط الحوش كتلة صخرية، ارتفاعها ٣م، وقد نحتت بحيث تصاغ منها قاعدة لإقامة معبد صغير عليها.[1]

والمعبد - الذي يعود تاريخ بنائه إلى ما بين القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد - يدعم نقطة أساسية في تاريخ العمارة الفينيقية، وهي حسب الضخامة، والتعود على الأبنية المنحوتة في الصخر الطبيعي، كلما أمكن ذلك، الأمر الذي جعل سكان «أرواد» يحتالون على ضيق المكان، برفع البناء عدة طبقات، غير أن القاعدة الأساسية إنما كانت النحت في الصخر. وما زلنا نرى في الجزيرة الكبيرة المواجهة لمدينة صيدا، تصميم الأبنية القديمة على الصخر، واستخدام كتل حجرية ضخمة لبناء الحيطان، مثبتة تثبيتاً قوياً بصخور الأرض التي لا تعرف البلى.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الأبنية الدينية في فينيقيا، إنما تتكون في الغالب من أرض في العراء، تحيط بها أسوار، وتضم مذبحاً، هذا وكان للمدن الكبيرة معابد مسقوفة أيضاً.

١- كونتنو: الحضارة الفينيقية، ص ١٨٦- ١٨٧.

وهكذا كان المعبد الفينيقي بسيطاً أول الأمر، لا يعدو أن يكون حجرة واحدة لها باب جانبي وسرعان ما انتقل الفينيقيون ببناء المعبد من البساطة إلى التعقيد، فتعددت حجراته، وتعددت أبهاؤه، .أصبح لها طابع معين، وأصول خاصة، إذ لا بد أن يحتوي المعبد على مذبح حجري، تقدم عليه القرابين، هذا فضلاً عن حجر مقدس، على هيئة عمود يمثل الإله الذكر، وإلى جانبه الشجرة المقدسة - رمز الخصب الدائمة والخصوبة الأبدية.

هذا وكان للمعبد كذلك حجرات تحتية يستخدمها الكهنة في إصدار النبوءات عندما يأتي الناس للآلهة يستشيرونها، ويهتدون بهديها، كما كان بالمعبد آنية للبخور، وهياكل ذات مصاطب يغسل الناس فيها أقدامهم قبل أن يتقدموا للعبادة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن الفينيقيين، لم يتخذوا أصناماً يتقربون إليها، وإنما كانوا يكتفون بصورة صغيرة تمثل المعبود «بعل» رافعاً يده يصد البرق والرعد.

هذا وقد كشف في عام ١٩٣٢م عن حرم ذي مسلات صغيرة، ووديعتي تأسيس، وكانت إحدى الودائع جرة تحوي عدداً من الودائع الذهبية والفضية والبرونزية، ومنها كذلك فأسان، ثم خنجر قبضته مغطاة بورقة شجرة ذهبية واحدة من الذهب، وعلى الغمد المصنوع من الذهب أيضاً يرى صور حيوانات، وشخصاً ممتطياً بغلاً.

وأما المعبد فقد أقيم مكان حرم قديم، يرجع تاريخه إلى نحو عام ٣٠٠ق.م، ويتكون المعبد من مقدمة ساحة، ثم ساحة يوجد الحرم في مكان منها مرتفع بعض الشيء. وأما المسلات فعددها عشرون، ويتراوح ارتفاعها فيما بين ٨٠-٣,٥سم، هذا وفي الساحة معابد أخرى أصغر، وبناء مستقل لصهاريج المياه المخصص للطهارة، والمعبد فيما يبدو يرجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة المصرية (١٩٩١-١٧٨٦ق.م).

٢ـ التحصينات والقصور:

كشفت الحظائر الحديثة في فينيقيا عن الأبراج والقلاع والحصون، مما يشهد للمهندس الفينيقي بتمكنه من فنه، وكانت القلاع والحصون والأسوار من أعظم ما عرفه العالم من فن العمارة، كما يتجلى ذلك في أسوار مدن: جازر وصيدا وصور.

وعلى سبيل المثال مدينة «صور»، وكانت مدينة على صخرة وسط البحر، مع منازلها ذات الطبقات الكثيرة، وكانت محاطة بجدران من الحجارة الضخمة، يبلغ ارتفاعها ١٥٠ قدماً، وترتفع فوقها أبراج تسهل على حماتها مهمة الدفاع عنها، بينما كانت صفوف السفن الحربية متأهبة لسد الطريق في وجه من لا ترضى عنه.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن المهندس الفينيقي كان يستخدم كتلاً حجرية ضخمة، الأمر الذي أدى إلى إنه لم يستطع أن يتحكم في المادة وأن يصوغها وفق هواه، وإنما تحكمت المادة فيه، لأن الكتل الضخمة من الأحجار لا تمكن الفنان من أن يستخدم ذوقه في إكسابها الهيئة التي يريد.

هذا وقد كشف في «أوغاريت» (رأس شمرا) وفي «ألالاخ» - وهي تل عطشانة الحالية على نهر العاصي، فيما بين حلب والبحر المتوسط - عن بعض القصور الملكية، التي كانت تبنى على نمط نظائرها في أرض الرافدين، أي التي في هيئة فناء أو أكثر، تحيط به الحجرات، وإن كانت أضيق نطاقاً.

٣ـ التوابيت والأختام وأدوات الزينة:

من أشهر التوابيت تابوت أحيرام من بيبلوس فهو وإن كان من عمل القرن الثالث عشر قبل الميلاد. إلا أن أحيرام أعاد استعماله في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد. وأصبح المؤرخون يجمعون على تأريخه بزمن كتابة نقوشه أي (بالقرن العاشر قبل الميلاد). وتمثل المناظر التي على جانبيه الطوليين حاكماً ملتحياً يجلس على عرش بجانبيه أشكال مجنحة لأبي الهول وأمامه موكب من سبعة خدم ومتعبدين يتقدمون نحو مائدة موضوعة أمامه محملة بالأطعمة وفي أعلى المنظر صف من أزهار اللوتس، فالكثير من هذا الطراز مصري ولو أن الأشخاص الممثلين في المناظر يلبسون ملابس ليفانتينية تشد عند الخصر بزنار (حزام)، وعلى كل من جانبي التابوت المستعرضين أربع من النساء النائحات عاريات الصدور - وتمثل في أسفل التابوت أربعة أسود كما يمثل اثنان منها على حافة غطاء التابوت، على جانبها أشكال رجال ملتحية - وعلى الغطاء من أعلى نقش محفور يمثل شخص

الملك بطوله - وتذكرنا الأسود بأشكال مشابهة في الفن الآشوري والحثي - وأشكال الرجال والأشكال التي على الإطار ليفانتينية سورية أما حزام اللوتس فهو مصري بأكمله.[1]

وهناك الكثير من التوابيت الحجرية، وعلى سطحها الأعلى قالب لرأس إنسان، وكثيراً من هذه التوابيت قد وجد في صيدا، ويظهر في القليل منها تأثير مصري ملحوظ، في شكل وزينة رؤوسها.

هذا وقد وجدت آثار قليلة للتصوير بالألوان في غرف القبور الفينيقية تحت الأرض، وكانت جدرانها محلاة بألوان زاهية، يغلب عليها اللونان الأحمر والخضر، مع زخارف من أكاليل الزهور والطير، ومن البشر والحيوان أحياناً.

هذا وقد أدى انتشار استعمال الأختام إلى تقدم كبير في صناعتها الأمر الذي ينطبق على الحلي وغيرها من أدوات الزينة التي وجدنا آثاراً منها تنطوي على قيمة فنية رفيعة.

هذا ونجد على الأساور والخواتم الذهبية صور النخيل ورؤوس الأسود والوعول والطيور، وكانت صوراً أثيرة.

وكانت القلائد وعقود اللؤلؤ والأقراط أنماطاً أخرى للزينة يجلّها الناس بل ويجدّون في السعي وراءها.

٤ـ العملات:

بدأ الفينيقيون في العصور المتأخرة بسك العملة، وكانت التجارة قبل ذلك تتم عن طريق المقايضة، وكان اليونان قد بدؤوا في استخدام العملة في القرن السابع قبل الميلاد.

أما أقدم عملة فينيقية، فقد ضربت في «صور» عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تبعتها «صيدا» ثم «أرواد» ثم «بيبلوس» في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد، وأما بقية المدن الفينيقية فلم تضرب عملتها إلا في العصر الهيليني.

١ـ د. محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية ص ١٥٣ـ ١٥٤.

وعلى أيّ حال، فإننا نجد على النقود الفينيقية - وهي قائمة على تقليد النقود اليونانية - رموز آلهة تلك المدن، فضلاً عن رموز بحرية وأجسام وحيوانات.

هذا ومن أقدم العملات - وترجع إلى النصف الثاني للقرن الخامس قبل الميلاد - إنما هي تلك القطعة - المحفوظة في المتحف البريطاني - وهي من «صور»، وعلى أحد وجهيها «درفيل» (حيوان بحري) وأمواج وأصداف، وعلى الوجه الآخر «بومة» داخل مربع.

وعثر في مدينة «أرواد» على قطعة، على أحد وجهيها معبود له ذيل سمكة، وعلى الوجه الآخر، زورق وفرس البحر، وتؤرخ ببداية القرن الرابع قبل الميلاد.

وعثر في «صيدا» على قطعة من العملة على أحد وجهيها عراك وزورق وأسدان، وعلى الجانب الآخر، أحد ملوك الفرس، وهو يضرب سبعاً، وتؤرخ هذه القطعة بأوائل القرن الرابع قبل الميلاد.

ولعل من الجدير بالإشارة، أن «صقلية» قد ضربت عملتها منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وضربت «أسبانيا» النقود في القرن الثالث قبل الميلاد.

وهناك نقود من الفضة ضربت في قرطاج، كما عثر في «أجاديس» على قطعة نقود، على أحد وجهيها رأس المعبود «ملقارت»، وعلى وجه الآخر «فيل» وحرف أبجدي، وتؤرخ هذه القطعة بنحو عام ٢٠٩ قبل الميلاد.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن النقود الرومانية المنسوبة إلى العصر الإمبراطوري قد سجلت لنا رسوماً لبعض المعابد الكبرى في فينيقيا أو في قبرص[١].

٥ـ النحت:

هناك من الألف الأول قبل الميلاد، تماثيل آلهة من الحجر والخزف والرسم المحفور وأخرى على شكل تماثيل صغيرة ويظهر فيها جميعاً تأثير تيارين أساسين: الواحد: تيار مصري، ودليله «بعلة جبيل» بأسلوبها المصري، وترجع إلى عصر الدولة القديمة، والثاني: تأثير يوناني.

١- د. محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، ص ٣٨٠- ٣٨١.

ويمثل شاهد عمريت الفن الفينيقي - قبل ظهور التأثير اليوناني - وعلى الشاهد صورة «حدد» أو «رشف»، والأرجح أن اللوحة تمثل «بعل عمريت»، كما أن منطقة عمريت إنما تقع في القسم الشمالي من فينيقيا - حيث يسود التأثير الحثي أو تأثير بلاد الرافدين.

هذا ويلبس المعبود في الصورة قميصاً من دون أكمام، محبوكاً على جسمه، كما يلبس في وسطه قميصاً آخر، لا يكاد يصل إلى الركبة، مخططاً بخطوط متوازية محفورة، وفوق رأس الإله تاج ذو قرنين، وفي يده اليسرى، الأرجل الخلفية لسبع صغير، ويده اليمنى شاهرة سيفاً عريضاً (حربة).

وسيقان الإله عارية، وإحدى قدميه موضوعة على رأس أسد، والأخرى على ذيله المعقوف، والأسد يسير على أرض مرسومة على شكل من المحار، وفوق رأس الأسد رسم قرص الشمس، محمولاً على هلال، وارتفاع الشاهد كله ١.٧٠م.

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن هذا التصوير للأرباب، إنما يكشف عن عدة تأثيرات، فمثلاً ثياب الإله هي نفس الثياب التي كان يلبسها سكان سوريا الشمالية، وهي القميص الأعلى المحبوك، والميدعة أو القميص المربوط بالوسط، المتدلي إلى الركبة، وهي نفس الثياب التي توجد على الأختام الأسطوانية المستعملة لختم اللوحات، وهي نفس الثياب التي تظهر في الفريسكات المصرية، عندما تريد هذه الفريسكات تصوير السوريين.

وأما غطاء الرأس، فمركب من عناصر مختلفة، ففيه الخوذة منتهية بسنان غليظ الطرف، ونفس غطاء الرأس كله، له نظير في رسم بارز على الصفحة الجانبية من معبد صغير محفوظ بمتحف اللوفر في باريس.

وأما القرون فهي من خصائص الربوبية في وادي الرافدين، وهي هنا تلاصق صفحة الخوذة، بدلاً من أن تنحرف عنها، على حين يرسم النجم المصري في المكان الذي جرى الاصطلاح الفني على اعتباره مقدم الخوذة، ومن قمة الخوذة يتدلى شريط.

وأما الشعر فيتجمع في خصلة كبيرة معقوفة، تتدلى على قفل الرب، وهي من الخواص التي تميز بها أهل سورية الشمالية.

وأما السلاح الذي يمسك به الرب. فنوع من السيوف العريضة المسماة «الحرية» ويرسم غالباً في أيدي الملوك الآشوريين، غير أن التحوير في رسم هذا السيف جعله أشبه بعصاة غليظة محدبة.

وأما هيئة الرب قائماً على رأس حيوان وعلى ذيله، فهيئة لها نظائرها في الفن النحتي الريفي في «ياسيلي كايا»، وعلى مقربة من «بوغاز كوي» في بلاد الحثيين (آسيا الصغرى).

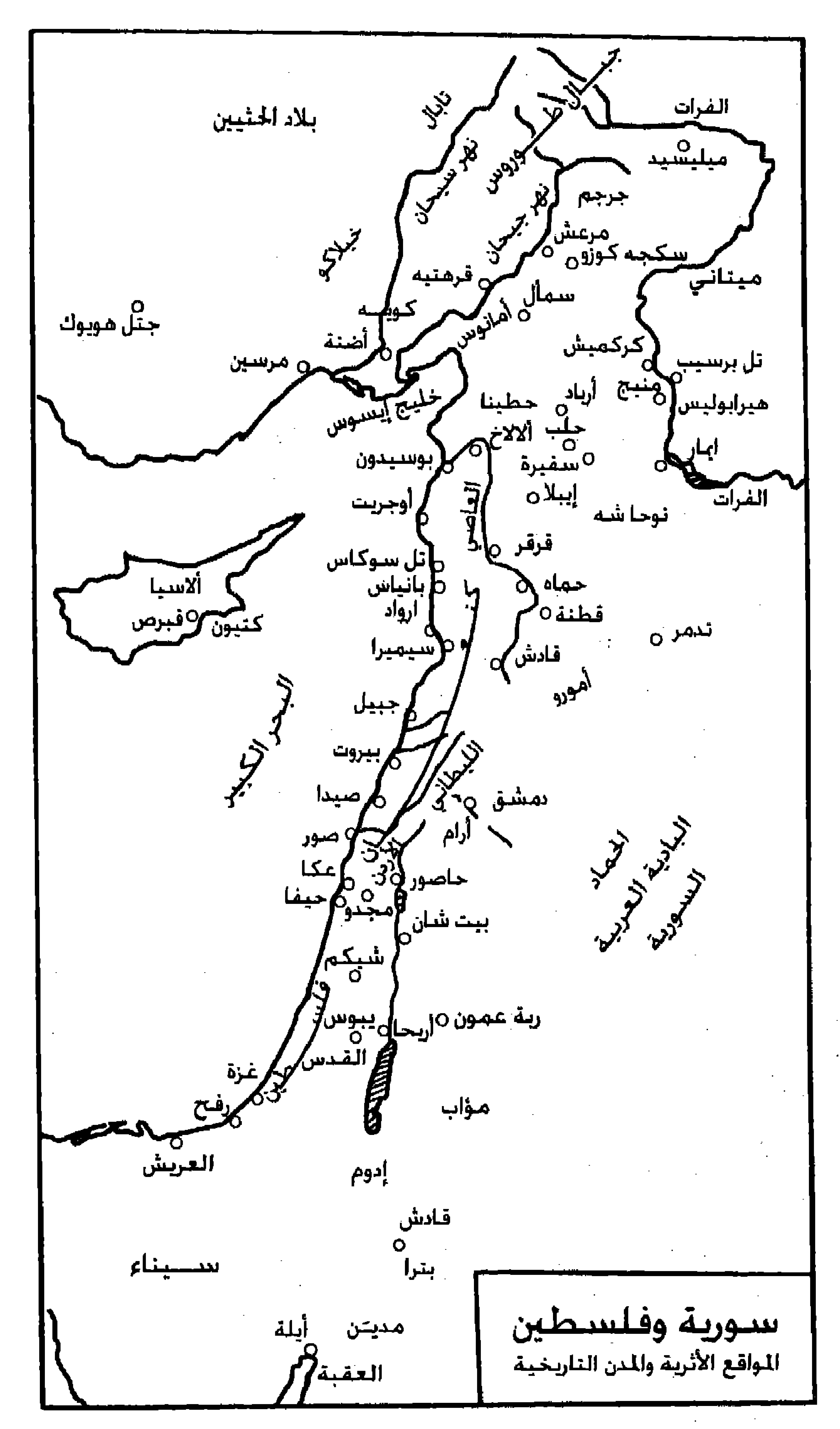
وانطلاقاً من كل هذا، فإن شاهد «عمريت» يعد ممثلاً تاماً للفن الفينيقي، قبل أن يظهر فيه التأثير اليوناني.

ولا ريب في أن الفن الفينيقي - على أيام شاهد عمريت - إنما كان مزيجاً من أساليب سوريا وحثية وآشورية وبابلية ومصرية - استطاعت العبقرية الفينيقية أن تصهرها، وأن تخلق منها وحدة منسقة، ذات طابع شخصي[1].

١- المرجع السابق، ص ٣٨٢- ٣٨٣.

UGARIT 1400-1300 V.CHR	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	الأوغاريتية ١٤٠٠-١٣٠٠ ق.م
BYBLOS 1400 - 900 V.CHR	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]				الكنعانية (جبيل) ١٤٠٠-٩٠٠ ق.م
ÄGYPTEN 1400 V.CHR. - 176 N.CHR — HIEROGLYPHISCH	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]				الكتابة المصرية ١٤٠٠ق.م - ١٧٦م — الهيروغليفية
HIERATISCH	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]			[illegible]				الهيراطيقية
DEMOTISCH	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]			[illegible]				الديموطيقية
SÜDARABIEN 1000 V.CHR - 600 N.CHR — LIHYANISCH	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]				العربية الجنوبية ١٠٠٠ق.م - ٦٠٠م — اللحيانية
THAMUDISCH	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]				الثمودية
SAFAITISCH	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]				الصفائية
SABAISCH	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]				سبئي معين
ARAMÄISCH 900 V.CHR-100 N.CHR	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]			[illegible]				الآرامية ٩٠٠ ق.م - ١٠٠م
GRCHISCH 700 V.CHR	Α	Β	Γ	Χ	Δ	Η	Ω	Ζ	Η	Θ		Κ		Λ	Μ		Ν		Σ		Φ				Ρ	ʘ		Τ	Ι	Ο		اليونانية ٧٠٠ ق.م
NABTÄTISCH 500 V.CHR-106 N.CHR	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]			[illegible]				النبطية ٥٠٠ ق.م - ١٠٦ م
LATEINISCH 500 V.CHR	A	B	G	K	D	H	W	Z	Ḥ	Ṭ	Y	K	SH	L	M	Z	N	Ẓ	S	‘	F	Ṣ	DAD	Q	R	TH	GH	T	I	U	S	اللاتينية ٥٠٠ ق.م
PALMYRENISCH 44 V.CHR-272 N.CHR	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]			[illegible]				التدمرية ٤٤ ق.م - ٢٧٢ م
SYRISCH 200 N.CHR	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]			[illegible]				السريانية ٢٠٠م
ARABISCH 700 N.CHR	ا	ب	ج	خ	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ش	ل	م	ذ	ن	ظ	س	ع	ف	ص	ض	ق	ر	ث	غ	ت	ءِ	ءُ	س	العربية ٧٠٠ م

جدول يحتوي أبجديات مختلفة



مصور تاريخ سورية القديم

الفهرس

النشاط البحري والتوسع الاستعماري

دويلات المدن الفينيقية

النظم السياسية والعسكرية

المعتقدات الدينية

الحروف الهجائية والكتابة الفينيقية

النشاط الاقتصادي

الفن الفينيقي

من منشورات دار علاء الدين

- الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
  ....محمد الخطيب
- الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية
  ....محمد الخطيب
- الفكر الإغريقي
  ....محمد الخطيب
- المجتمع العربي القديم
  ....محمد الخطيب
- ديانة مصر الفرعونية
  ....محمد الخطيب
- مصر أيام الفراعنة
  ....محمد الخطيب
- الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى سبر في التاريخ القديم
  ....فضل عبد الله الجثام
- أسرار الآلهة والديانات
  ....أ. س. ميغوليفسكي
- تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما
  ....ادوين أولدفاذر ريشاور
- المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية
  ....إ.س.سفينسيسكايا
- دراسات حول الأكراد
  ....ب ليرخ
- التاريخ السري
  ....بروكوبيوس
- الجنس في العالم القديم
  ....بول فريشاور
- فتح بلاد الغال يوليوس قيصر
  ....بيتي راديس
- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
  ....جان كلود مارغرون
- من هم الموحدون الدروز
  ....جميل أبو ترابي
- أميرات سوريات حكمن روما
  ....جودفري تورتون
- أساطير في أصل النار
  ....جيمس فريزر
- الاقتباس والجنس في التوراة
  ....خالص مسور
- نقد النص التوراتي ١
  ....د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التأريخ التوراتي والتاريخ ٢
  ....د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية ٣
  ....د. إسماعيل ناصر الصمادي
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
  ....د. خالد صناديقي
- في أصل العرب ومواطنهم
  ....د. ماجد عبد الله الشمس
- القاهرة وبيت المقدس ودمشق
  ....دافيد صمونيل مارجوليوت
- سلسلة الأساطير السورية ديانات الشرق الأوسط
  ....رينيه لابات
- أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة
  ....س. بريوشينكين
- طقوس الجنس المقدس عند السومريين
  ....س. كريمر
- بنو معروف في التاريخ
  ....سعيد الصغير
- التشريعات البابلية
  ....عبد الحكيم الذنون

من منشورات دار علاء الدين

- بدايات الحضارة
  ....عبد الحكيم الذنون
- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
  ....عبد الحميد محمد
- أسرار بابل
  ....ف. ا. بليافسكي
- الحضارات القديمة ١-٢
  ....ف. دياكوف / س. كوفاليف
- سلطان باشا الأطرش تاريخ وطن
  ....فريد عبد الكريم فياض
- نهاية راسبوتين ذكريات الأمير فيليكس يوسوبوف
  ....فيليكس يوسوبوف
- المصادر التاريخية العربية في الأندلس
  ....[illegible]
- سحر الأساطير دراسة في الأسطورة التاريخ الحياة
  ....[illegible]
- الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
  ....ماجد عبد الله الشمس
- حكايات وأساطير من مصر القديمة
  ....مارغريت ديفين
- معجم الأساطير
  ....ماكس شابيرو، رودا هندريكس
- الشعوب الإسلامية في القفقاس وروسيا وآسيا الوسطى
  ....مجموعة من المؤلفين
- شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم
  ....مجموعة من المؤلفين
- موسوعة تاريخ القفقاس والجركس
  ....محمد جمال صادق إبه زاو
- هل هبط آدم في القفقاس
  ....محمد عمر بغداي
- الديانة الزرادشتية مزديسنا
  ....نوري إسماعيل
- الديانة الفرعونية
  ....واليس بدج
- الأسطورة والمعنى
  ....فراس السواح
- التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية في الصين
  ....فراس السواح
- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
  ....فراس السواح
- الرحمن والشيطان
  ....فراس السواح
- الوجه الآخر للمسيح
  ....فراس السواح
- آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ و التاريخ التوراتي
  ....فراس السواح
- تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود
  ....فراس السواح
- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
  ....فراس السواح
- دين الإنسان
  ....فراس السواح
- لغز عشتار
  ....فراس السواح
- مدخل إلى نصوص الشرق القديم
  ....فراس السواح
- مغامرة العقل الأولى
  ....فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان ١-٥
  ....فراس السواح